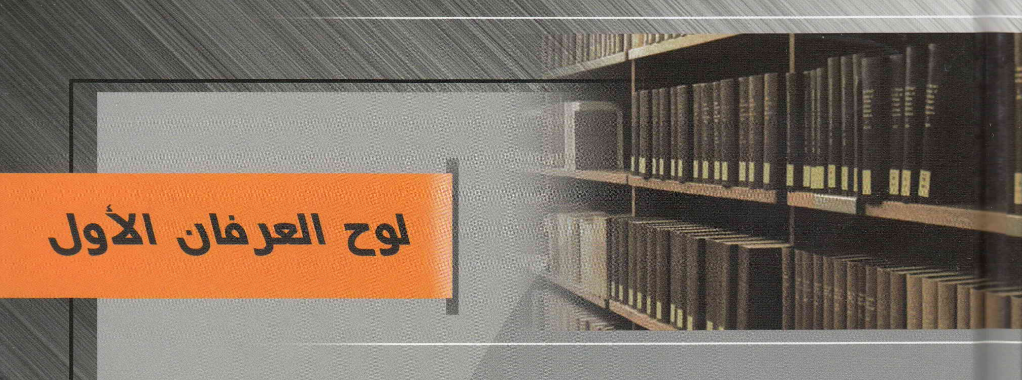


لوح العرفان الأول

الجماعات التكفيرية

قراءة في البنية الفكرية والعقائدية

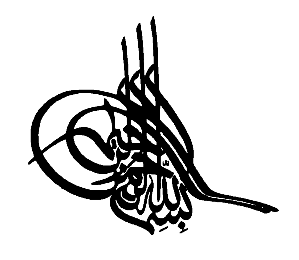
الرؤى والمفاهيم

مجموعة من الباحثين

الجزء الثاني

الجماعات التكفيرية
قراءة في البنية العقائدية والفكرية

الجماعات التكفيرية
قراءة في البنية العقائدية والفكرية
(الرؤى والمفاهيم)



تأليف: مجموعة من الباحثين

الناشر: مؤسسة العرفان للثقافة الإسلامية

توزيع: مؤسسة المصباح الثقافية

الكمية: ١٠٠٠

al.orfan@yahoo.com

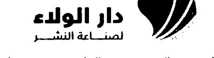
الطبعة الأولى

١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م

رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق ببغداد: ٨٦١ لسنة ٢٠١٥

تنفيذ طباعي:

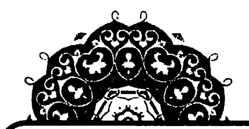




شارع الرويس، الرويس، برج البراجنة، بيروت - لبنان

Mob: 00961 3 689 496 | TeleFax: 00961 1 545 133 , P.O. Box: 307/25

info@daralwalaa.com | daralwalaa@yahoo.com | www.daralwalaa.com



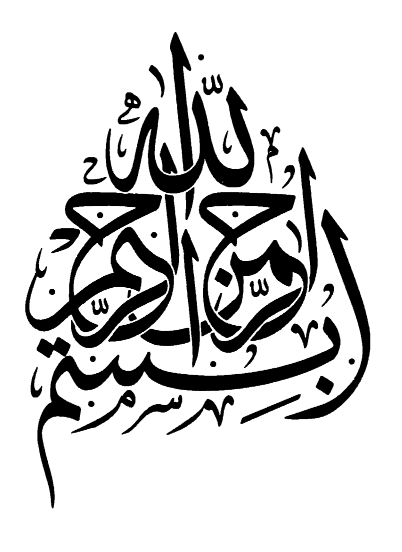
الإشراف العلمي: الشيخ مهدي البغدادي، د. عبد الزهرة زبون، التدقيق اللغوي: د. قحطان رشك، مراجعة النص: د. أحمد حسين الربيعي، الإخراج الفني: رياض الساعدي، تصميم الغلاف: ممتاز الحسن.

الجماعات التكفيرية
قراءة في البنية العقائدية والفكرية

(الرؤى والمفاهيم)

الجزء الثاني




بسم الله الرحمن الرحيم

المحتويات

الإرهاب والتكفير
ظاهرة إسلاميّة أم صناعة غربيّة؟

الإرهاب والتكفير ظاهرة إسلاميّة أم صناعة غربيّة؟

الشيخ عبد الكريم آل نجف *

مقدمة

إذا قلت: إن السؤال المطروح في عنوان البحث يمثل الموضوع الأول من حيث الأهمية في ما يخص العالم بصورة عامة، و في ما يخص العالم الإسلامي بصورة خاصة، وللمؤمنين بخط الصحوة الإسلامية بصورة أخص، فليس في ذلك مبالغة، ولا تعبير تسامحي، ولا دعاية إعلاميّة؛ وإنما هي حقيقة يقودنا إليها البحث، والتحقيق الموضوعيّ الصحيح.

ففي مرحلة ثمانينيات القرن الماضي وما قبلها كانت المسألة الأولى في العالم هي مسألة الصراع بين المعسكرين الشرقي والغربي، وكان العامل الذي يدفع بها إلى الصدارة لتكون المسألة الأولى في العالم يتمثل بالعامل الأيديولوجي، فالسبب الأصلي للصراع لم يكن هو التنافس على النفوذ، أو المصالح الاقتصادية أو السياسية، كما هو الصراع حالياً بين الغرب وروسيا، وإنما كان يتمثّل في كون الطرفين كليهما من مدرسة فكرية تحلل الكون والحياة والمجتمع بطريقة مختلفة عن الآخر، ويعرض نفسه بالنتيجة بوصفه اتجاهاً في الحياة يختلف عن الآخر، وإن كان الطرفان ينتميان للنهضة الأوروبية الحديثة باتجاهاتها المادية المعروفة، فهما

* باحث إسلامي من فضلاء الحوزة العلمية – قم المقدسة .

مدرستان ماديتان نبعتا من منبع واحد، والنزاع بينهما أشبه بالنزاع بين مذاهب مختلفة في دين واحد، وما إن انهار المعسكر الشرقي حتى أعلن المعسكر الغربي الدخول في حرب عالمية جديدة تلعب دور المسألة الأولى الجديدة في العالم، وهي ما أسماه بـ (الحرب على الإرهاب)، معتبراً إياها الحلقة الأولى في سلسلة (صِدام الحضارات) القادمة لعالم القرن الحادي والعشرين.

لقد بنى الغربيون بزعامة أمريكا سياستهم الخارجية والدفاعية والإعلامية على قاعدة أن المعسكر الغربي هو معسكر الحرية في العالم، وأن الشعوب والأمم والقارات الأخرى التي لا تتخذ من الحرية شعاراً مركزياً لها تمثل تهديداً لحاضر الغرب ومستقبله، وأن الغرب في حالة صراع مع هذه القارات والشعوب والأمم قبل أن تتحول في يوم ما في المستقبل إلى معسكر يناجز الغرب بجدية على زعامة العالم، كما كان المعسكر الشرقي يفعل ذلك، وأن المعركة الأولى في سلسلة (صِدام الحضارات) هي المعركة مع العالم الإسلامي، باعتبار أن الإسلام يمثل أبرز ثقافة غير غربية لا تتخذ من الحرية شعاراً لها، وكل من على هذه الحالة فهو إرهاب، المعركة القادمة إذاً هي المعركة مع الإرهاب، والإرهابي الأول في العالم هو الإسلام، وسموا ذلك بالضربة الاستباقية بلحاظ أن المطلوب هو القضاء على الخصم، وإن كان في حالة جنينيّة ما زالت في المهد.

وهذا ليس تحليلاً نقوله فحسب، وإنما هو نص ما ورد على لسان زعيم الحرب على الإرهاب الرئيس الأمريكي السابق جورج بوش، فقد أعلنت محطة الإذاعة البريطانية في صباح ١٩ مارس ٢٠٠٣م الخبر الآتي:

«صرح الرئيس جورج بوش أنه حتى وإن تنحّى الرئيس صدام حسين فإنه سوف يجتاح العراق لتركته (لجعله تركياً)، أو لفرض العلمانيّة عليه لاقتلاع ذلك الدين الذي يتمخّض عنه الإرهاب في منطقة الشرق الأوسط وفي العالم بأسره»[1].

---

(١) حرب صليبية بكل المقاييس: ١٣.

وكان لوران مورافينتس قد أعلن في ١٠-٧-٢٠٠٢م في تقرير له أمام مجلس الدفاع في أمريكا مطالبته بتغيير النظام في المملكة العربية السعودية، والقضاء على الإسلام، وكتب جيمس ولسي المدير الأسبق للمخابرات الأمريكية في ما بين ١٩٩٣ و١٩٩٥م تحت عنوان: (أمريكا ستكسب الحرب العالمية الرابعة) ما نصه: «لقد دخلنا الحرب العالمية الرابعة وهي التي هدفها أكبر من أن تكافح الإرهاب، فهو يرمي إلى أن تمتد الديمقراطية إلى مختلف بلدان العالم العربي والإسلامي اللذين يهددان الحضارة الحرة التي شيدناها طوال القرن العشرين، ودافعنا عنها طوال الحرب الباردة الحرب العالمية الثالثة، ولكي نهزم الإرهاب لابد لنا من تغيير عالم الشرق الأوسط»[1].

كما كتب برنارد لويس المستشرق البريطاني الذي يعد فيلسوف الحرب على الإرهاب كتابه الإسلام وأزمة العصر حرب مقدسة وإرهاب غير مقدس الذي هاجم فيه الإسلام والمسلمين بوقاحة تامة، واتهمهم بكراهية الآخر، والفشل في استيعاب الحضارة الغربية ومعطياتها.

لقد مضى على هذه الحرب حتى الآن ما يقارب ربع قرن، وإن كان الرئيس الأمريكي السابق جورج بوش قد أعلن هذه الحرب في عام ٢٠٠١م في أعقاب أحداث الحادي عشر من سبتمبر، فإن التاريخ الواقعي يتقدم على التاريخ الرسمي بعشر سنوات ويبدأ مع بداية التسعينات من القرن الماضي، ولا ندري كم ستستمر؟ وكم جيلاً سوف يُطحن بها؟ ولكن الذي نعلمه أن الغربيين لن يتركوها حتى يحققوا أهدافهم كافة منها، وأنها مازالت مدرجة على جدول أعمال دول الناتو عسكرياً وسياسياً وإعلامياً ومخابراتياً، وأن نهاية هذه الحرب رهن برد فعل العالم الإسلامي عليها؛ وبطبيعة التحولات الثقافية والسياسية التي يريد الغرب تحقيقها في العالم الإسلامي، وهي التي توصله إلى الاطمئنان بأن جذور الإرهاب الإسلاميّ قد ماتت، وأن العالم الإسلامي قد استبدل شعار التوحيد بشعار الحرية، هذا كله من الجانب الغربي.

---

(١) حرب صليبية بكل المقاييس: ٢٠.

بقي أن نتحدث عن الجانب الإسلامي، أي الطرف الثاني من الحرب على الإرهاب وصِدام الحضارات، ماذا أعدّ لها؟ وكيف تعامل معها؟ إن منطق الأشياء يقتضي أن تكون هذه الحرب هي المسألة الأولى لكل مسلم يقطن العالم الإسلامي، أو يقيم في الخارج، سواء كان مواطناً عادياً، أم وزيراً، أم رئيساً للجمهورية، أم عالماً دينياً، أم ملكاً، شيعياً كان أم سنياً، عربياً كان أم إيرانياً، أم باكستانياً، أم هندياً، أم أفريقياً، وأن يؤدي كل فرد دوره المطلوب فيها من الموقع الذي يشغله في هذه الأمة، وهي مسألة تفرض منطقها على الجميع شاء من شاء وأبى من أبى، فمن لم يعتنِ بها كما ينبغي سوف لا يقلل من شأنها وإنما سوف يقلل من شأنه فيها، فتجري عليه، وسوف يكون جندياً في الجانب الغربي من حيث يدري أو لا يدري، وإن كان يلهج بالإسلام ومصالح المسلمين بصدق، ولكن بسذاجة، سذاجة الذين لا يعملون أن الحياة البشرية لا يمكن أن تُدار إلا بما هو خير وهداية وصلاح ورشاد للإنسان، والحرب على الإرهاب هي حرب الذين يدّعون الخير ويرمون العالم الإسلامي والإسلام بالشر والإرهاب.

فإذا لم يهتم الإنسان المسلم بها كما ينبغي وكما تستحقه منه فسوف تظهر منه تصرفات تدخل في خدمة المعسكر الغربي، وسوف يتصرف في مصير الإسلام ومستقبل أجيال المسلمين بما يضرهم؛ ولذا على الجميع أن يعرفوا كيف يعالجون هذا البحث الحساس والمصيري بما يناسب شأنه، ثمّ يلتزمون بنتائج البحث عملياً.

إن منطق الحرب على الإرهاب يفرض أمام المسلمين خيارين لا ثالث لهما، وهما:

الخيار الأول: خيار التعاون مع الغرب

ويمكن أن يُحتج على هذا الخيار بالوجوه الآتية:

١ ـ إن العالم الإسلامي في حالة ضعف وتشرذم شديدين ولا يمكنه الدخول في صراع مع الغرب الذي خرج تواً من انتصار ساحق على المعسكر الشرقي، وأنه يملك ثلاثة مقاعد في مجلس الأمن، وقوات الناتو، وأساطيل إعلامية، وهيمنة شاملة على أكثر دول العالم

الإسلامي، وقدرات اقتصادية وتكنولوجية جبّارة؛ وبالنتيجة نحن لا نملك خيارين وإنما خياراً واحداً هو التعاون مع الغرب.

٢ ـ إن الحرب على الإرهاب تستهدف أنظمة ديكتاتورية، وجماعات إرهابية ولا تستهدف الأمة الإسلامية، فلماذا لا نقف مع الغرب بوجه هذه الأنظمة والجماعات؟

٣ ـ إن الحضارة الغربية، فيها ما هو حسن وما هو سيّئ، ولا مانع من إقامة العلاقات معها فنأخذ منها ما هو حسن ونترك منها ما هو سيّئ.

٤ ـ إن الإسلام ليس ضداً للحرية والديمقراطية، ومن الممكن الجمع بين الطرفين في نسيج فكري واحد، ومن الضروري أن نفعل ذلك حتى نبيّن الوجه المشرق للإسلام.

وطبقاً لهذه الوجوه يصبح هذا الخيار هو الخيار العقلائي المعتدل الذي يجنب المسلمين ويلات الصراع والحروب المدمرة، وقد اختارته كثير من الزعامات الدينية والسياسية والحزبية في العالم الإسلامي، وله طيف واسع من المؤيدين والأنصار.

الخيار الثاني: خيار الرفض والمقاومة والصحوة الإسلامية

وينبني هذا الخيار على رؤية معمّقة وجذرية للحرب على الإرهاب وصِدام الحضارات، تتيح لأصحابه مناقشة الخيار الأول وعدم القبول بالوجوه الأربعة المذكورة، والخروج بموقف جديد له أسسه ومبانيه الخاصة به، وسوف نعرض لهذه الرؤية في مطاوي هذا البحث، وسنكتفي في هذه المقدمة ببيان ردود الخيار الثاني على أدلّة الخيار الأول، وهي:

أولاً: ردّ الوجه الأول

يُردّ على الوجه الأول بالردود الآتية:

١ ـ إن التعاون والصداقة مفهومان يتقومان على أرض الواقع بإرادة جادة من طرفين، ولا معنًى للتعاون والصداقة على طرف قد أعلن الحرب مع الآخرين إلا أن يراد به إعانته

على الحرب ضد العالم الإسلامي!

٢ ـ إن علاقة الصداقة والتعاون لن تثني عزم الخصم عن مواصلة الحرب، ولا تقلّل من زخمه فيها، لأن الغرب لا يدار بأمزجة الحكام؛ وإنما بخطط المؤسسات وبرامجها التي تستقي فكرها من ثقافة مادية تمجد الصراع، وتعتبره الطريق الوحيد للتسلط على الآخرين، كما هو واضح من أفكار ميكافيلي، وهوبز، وهيجل، وماركس، وجوبينو.

٣ ـ إن الغرب ليس بحاجة إلى أصدقاء، فأكثر حكام العالم الإسلامي أصدقاؤه، ومع ذلك قرر الحرب على العالم الإسلامي، وهو يرى مشكلته مع الأمة الإسلامية والحضارة الإسلامية ومع الإسلام نفسه، وكم مرّة ألقى أصدقاءه في سلة المهملات بعدما انتهى دورهم في خدمته وجاوزهم الزمن، وليكونوا عبرة لأصدقاء جدد.

٤ ـ إنما صار المسلمون في ضعف وتشتت وتشرذم بسبب خضوعهم للهيمنة الغربية، فالضعف ليس ذاتياً فيهم، وإنما جاء من خضوع دام أكثر من قرن من الزمان للغرب، ومع ذلك فالجماهير والسواد الأعظم من الأمة ليس ضعيفاً وإنما هم قوة لا يستهان بها، ويمكن الرهان عليهم، وتجربة الإمام الخميني في إيران، وحزب الله في لبنان، وحماس في فلسطين تشهد لذلك، ولو كان المسلمون ضعفاء إلى هذا الحد الذي يرسمه أصحاب الخيار الأول فلماذا الغرب يتكاتف ويعد كل عديده عسكرياً، واقتصادياً، وسياسياً في حرب ضروس ضد هؤلاء الضعفاء؟! فالضعفاء لا يُخشى جانبهم إلى هذا الحد.

٥ ـ والقرآن الكريم لا يقول لنا: صادقوا الأقوياء إذا اعتدوا عليكم وإنما يقول: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾[1].

٦ ـ حينما تكون المسألة مسألة مصير الإسلام ومستقبل المسلمين فلا معنى للكلام عن أقوياء وضعفاء، ولابد من إعداد العدّة، واختيار طريق المواجهة، وتنفيذ قوله تعالى:

(١) آل عمران: ١٧٣.

﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم﴾[1]؛ وهو أمر يتضمن الوعد بوجود القوّة، وأن المؤمن سوف يحصل عليها إن أرادها وبحث عنها.

٧ ـ هل مسألة الصداقة والعداوة والولاء والبراءة تخضع للاستحسانات والأذواق والأمزجة؟ أو هي مسألة محسوسة في القرآن الكريم؟ وما على المؤمن إلا أن يبحث عن مصداق من وجبت موالاته في القرآن الكريم، ومن وجبت البراءة منه لينفذ تكاليفه الشرعية المرسومة له من الله سبحانه وتعالى؛ وهل القرآن الكريم ترك هذه المسألة تحسمها الأمزجة والاستحسانات؟ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾[2]، وبناءً على هذه السنة الثابتة في الرسالات السماوية والبعثات النبوية فإنه ما على المؤمنين في كل جيل وزمان إلا أن يبحثوا عن مصداق هذا الطاغوت، ويجتنبوه، ويعلنوا البراءة منه، وهو في زماننا يتجسد بالرأسمالية الحاكمة في الغرب ومن خلاله في عموم العالم، وهي التي تسلطت على العالم الإسلامي طوال القرن العشرين، وأعلنت الحرب عليه في القرن الحادي والعشرين.

٨ ـ قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ﴾[3]، ورسول الله ﷺ لم يتراجع عن مكافحة جاهلية قريش وزعاماتها الرأسمالية آنذاك، وإنما خاض بوجهها جهاداً لا هوادة فيه، جهاداً سرّياً استمر عشر سنوات، ثم حرباً علنية استمرت ثلاث عشرة سنة حتى قيّض له الله سبحان وتعالى النصر، ولكن المسلمين جعلوه ﷺ أسوة لهم في السواك، وتركوه وراء ظهورهم في الجهاد، والكفاح، وقيادة النضال من أجل الإنسانية.

٩ ـ صحيح أن التكنولوجيا بيد الغرب، ولكن إلى متى نستجديها من الخصوم بشروط

---

(١) الأنفال: ٦٠.

(٢) النحل: ٣٦.

(٣) الأحزاب: ٢١.

مذلة؟ إنها إنجاز إنساني لا علاقة له بالشرق والغرب، وهي الآن سلاح يستخدمه الخصم بوجه المسلمين لفرض حصار ظالم عليهم، وعلى المسلمين أن يفكروا في طرق الخلاص من هذا الحصار، وسبل إنتاجها ذاتياً، أو تحصيلها بلا شروط؛ وإذا كانت لهم إرادة في ذلك فسوف يحصلون على ما يريدون.

ثانياً: ردّ الوجه الثاني

ويرد على الوجه الثاني بالردود الآتية:

١ ـ إن هذه الأنظمة والجماعات ليست وليدة الإسلام، ولم تنبع من اختيار الأمة الإسلامية، وإنما هي صناعة غربيّة زرعت في جسد الأمة، والمفروض أن يحاسب الغرب عليها سياسياً وأيديولوجياً، يحاسب سياسياً بأن تقطع يده عن العالم الإسلامي، ويحاسب أيديولوجياً بأن يكذب بدعواه الحرية والديمقراطية وحقوق الإنسان، ومن الظلم المضاعف أن يأتي بها ثم يتخذها ذريعة لإعلان الحرب العالمية الرابعة.

٢ ـ على أن الدلائل القطعية تشير إلى أن المعركة الحقيقيّة ليست مع هذه الأنظمة والجماعات، وأن المعركة هي مع الإسلام نفسه كما هو الواضح من عنوان صِدام الحضارات، ومن مظاهر الإسلام فوبيا في الغرب، ومن تصريحات الزعماء الغربيين، ومنها التصريحات التي نقلناها قبل قليل عن الرئيس بوش، ومسؤولين أمريكيين آخرين، ومن كتاب المستشرق برنارد لويس بعنوان (الإسلام وأزمة العصر حرب مقدسة وإرهاب غير مقدس) الذي خصصه لتحميل الإسلام مسؤولية الإرهاب والإرهابيين، وتبرير الحرب الغربية على العالم الإسلامي.

٣ ـ إن التعاون، أو لنقل: التهاون معه يعني القبول بمسؤولية الإسلام والأمة الإسلامية عن الجماعات الإرهابية، وبأي دليل أثبت أنصار هذا الخيار ذلك؟ وفي أي بحث علمي موضوعي؟ ثم إن كان أنصار هذا الخيار علمانيين فسوف نطالبهم بالدليل على هذا المدّعى؟ وسوف نثبت مسؤولية الغرب العلمانيّ عنها؛ وإن كانوا إسلاميين فلنا أن نسألهم: هل ذلك

ينسجم مع إيمانهم بالإسلام، أو أنه يؤدي عملياً ويكشف نظرياً عن إيمان سطحيّ قشريّ؟ وأن الأيديولوجية التي يؤمنون بها بصفتها طريقاً في الحياة هي العلمانية والليبرالية؛ وأن الإسلام الذي يعتنقونه هو إسلام العبادات والأحوال الشخصية، وليس إسلام المنهج والنظام الشامل لمختلف أوجه الحياة؟ فإن قيل: إن عدم الدخول في صراع مع الغرب لا يعني مشاركته في المنهج، ولا التسليم له بالمسؤولية عن الإرهاب، فنحن نؤمن بالإسلام بوصفه منهجاً وحيداً في الحياة، وفي الوقت نفسه نرفض الدخول في صراع مع الغرب حول المنهج المطلوب لإدارة الحياة، ونكتفي في هذا المجال بالدعوة السلمية لإثبات صلاحيته لإدارة الحياة وبراءته من تهمة الإرهاب.

قلنا: ماهو المراد من الدعوة السلميّة؟ فإنها تحتمل معنيين، أحدهما مقبول، والآخر مرفوض، فإن كان المراد بها تسيير المظاهرات الشعبية والاعتصامات الجماهيرية حتى يتم إنهاء الهيمنة الغربية على العالم الإسلامي، وتحقيق الاستقلال، وتنفيذ الأهداف والبرامج الإسلامية، وردّ عادية الغربيين على الإسلام بوسائل سلمية فهذا هو المطلوب المقبول، والدعوة السلمية بهذا المعنى تصبح الوسيلة الفضلى للصراع مع الغرب، والمصداق الأفضل للجهاد في سبيل الله في هذا الزمان، وإن كان المراد بها هو الوعظ، والإرشاد، والاكتفاء بتأليف الكتب، وإصدار الصحف، من دون اتخاذ مواقف عملية وبرامج ميدانية تحوّل الأقوال إلى أفعال، وتترجم الأفكار إلى واقع إسلامي يعيشه المسلمون في بلدانهم بدلاً عن الهيمنة الغربية، والأفكار الليبرالية والعلمانيّة السائدة فيه الآن، والتدخلات المؤدية إلى ظهور جماعات إرهابية، أو أنظمة ديكتاتورية، أو احتلال عسكريّ مباشر، أو قواعد عسكرية، فمثل هذه الدعوة سوف يكون وجودها وعدمها سواء، أو سوف تعطي صورة ناقصة عن الإسلام بأنه لا يختلف عن المسيحية من جهة الاكتفاء بالمواعظ والإرشادات، ولا يمثل طريقاً جديداً في الحياة يختلف عن الليبرالية والعلمانية التي تتسع في مفهومها النظري والعملي لمثل هذه الدعوة ولا تتعارض معها، وكيف يعقل أن يكون هذا هو حال الإسلام مع إرادة أجنبية تحكم المسلمين وتعتدي عليهم، وأيديولوجية كافرة تدير شؤونهم السياسية والاجتماعية؟!

ثالثاً: ردّ الوجه الثالث

وهذا الوجه يرد في كلمات المثقفين كثيراً، ولكن فيه من الالتباس والخلط شيئاً كثيراً، فإن المشكلة ليست في الحضارة بما هي إنجاز إنساني إيجابي، ولا في الغرب بما هو بقعة جغرافية تحوي مجموعة من البشر، وإنما في الأيديولوجية التي تدير بها القيادة الغربية أمور العالم اليوم؛ أ هي أيديولوجية صحيحة تحقق للإنسان أهدافه المنشودة ويقبلها الإسلام أم أنها أيديولوجية فاسدة باطلة، وهي السبب وراء عدوانية القيادة الغربيّة تجاه العالم الإسلامي؟ وهي أمر وحداني لا يقبل التجزئة والقسمة على نصف، فيه محاسن فنأخذه، وآخر فيه مساوئ فنرده؛ فإما أن نأخذها بأجمعها أو نردها بأجمعها، لا نستطيع القول بأخذ ما في الغرب من حرية وديمقراطية، وحقوق إنسان، ونردّ عليه ما فيه من انحطاط أخلاقي وانتحار؛ فإن الجانبين متلازمان في نسيج واحد، والموافقة على الجانب الأول سطحية ساذجة لأنها نظرت إلى شعارات جذابة ولم تنظر إلى المفهوم الغربيّ عن تلك الشعارات.

فالجميع يطلبون الحرية وحقوق الإنسان والانتخابات، وإنما المشكلة في المفهوم الغربي المادي العلماني عن هذه الشعارات، وهو مفهوم يتجانس تماماً مع الانحطاط الأخلاقي، والانتحار، والحروب، والاستعمار، وبالنتيجة هذه الأيديولوجية إما أنها حسنة كلها، أو سيئة كلها، والغربي نفسه لا يقبل إلا التفسير العلمانيّ الليبراليّ لهذه الشعارات، وكل ما يقال عن التعدديّة في الغرب فالمراد به التعددية داخل هذا الإطار، وكل ما عداه فهو إرهاب، فهي تعددية صورية، ولذا لم يقبل الغربيون بالمعسكر الشرقي الشيوعي، وإن كانوا يجتمعون معه في القاعدة المادية، ولذا هم يعلنون الحرب على الإسلام ويتهمونه بالإرهاب؛ لأن طبيعة الحياة لا تقبل التعددية، فإما أن تدار بهذه الأيديولوجية أو بتلك، ولا يمكن أن تدار بهذه تارة وبتلك أخرى ضمن نظام سياسي واحد؛ لأن الكلام الذي سوف ينقل عن هذا النظام هل يقوم على قاعدة مستمدة من الأولى بما يفسر الثانية في ضوئها أو بالعكس؟ وهذا يعني أنه يقوم على أيديولوجية واحدة على الدوام بما ينفي التعددية المزعومة، والعالم اليوم مخير بين

العلمانية والليبرالية وبين الإسلام، ولا معنى ولا وجود لخيار ثالث مركب من الطرفين.

رابعاً: ردّ الوجه الرابع

وهو ما يتضح من رد الوجه الثالث؛ لأن الوجهين يرجعان لبّاً إلى وجه واحد، وما يردّ أحدهما يرد الآخر أيضاً.

وبعد هذه المقدمة ندخل في صلب البحث الذي سوف نخوضه بمحورين، نبحث في الأول منه عن احتمال مسؤولية الإسلام عن الإرهاب، ونبحث في الآخر عن احتمال مسؤولية الأيديولوجية الغربيّة عنه، وسوف يتضح من البحث بطلان الاحتمال الأول، وصحة الاحتمال الآخر.

ومعلوم أن البحث ينطلق من التسليم بوجود ظاهرة الإرهاب في العالم، وإنما يقع البحث في تشخيص من هو الطرف المسؤول عن هذه الظاهرة؟ التي هي موضوع الحرب العالمية الرابعة كما سمّاها الغربيون.

المحور الأول: هل الإرهاب ظاهرة إسلامية؟

يبدو الجواب على هذا السؤال بالايجاب بديهياً عند كثير من الغربيين والمسلمين؛ لأن الذين يمارسون ذلك هم من المسلمين، وينتمون إلى جماعات إسلامية، ويعتبرون قتل الكفار والمشركين ليس جائزاً فحسب، وإنما هو وظيفة شرعية يتقربون بها إلى الله سبحانه وتعالى، وينصرون بها الإسلام، ويقيمون بها حكم الله في الأرض، وأن ذلك كله يجري في إطار الجهاد في سبيل الله.

فالمسألة محسومة، ولاسيّما أنها تأتي في سياق الفكرة النمطيّة الشائعة في الغرب بأن الإسلام قد انتشر بالسيف، وحينئذٍ من حق الغربيين أن يستنتجوا: بأن الديكتاتورية والإرهاب صفتان تلازمان الإسلام، ومن هنا يأتي صدام الحضارات، لأن الحضارة الإسلامية تجعل التوحيد قاعدة لها فتنتهي إلى الديكتاتورية والإرهاب، فتصبح بذلك خطراً

على الحضارة الغربيّة التي تجعل الحرية قاعدة لها وتنتهي إلى الديمقراطيّة وحقوق الإنسان، ومن حق الثانية أن تدافع عن نفسها وتنشر منطقها في العالم، وتعلن الحرب على الأولى.

ورغم الظاهر الأنيق لهذا الكلام؛ ولكنه مع ذلك لا يستند إلى الحقيقة، والتحقيق يقتضي تفكيكه على ثلاثة عناصر أساسية، ثم النظر في كل منها لنرى في النهاية مدى صحّة الدعوى المذكورة فيه وهي:

١ ـ دعوى انتشار الإسلام بالسيف:

وهذه بمثابة الجذر الثقافي والتاريخي الذي يملأ النفس الغربيّة رؤية ظلامية عن الإسلام، ويهيّئها لاتهام المسلمين في كل الأزمان بالإرهاب والديكتاتوريّة، وقد كتب الإسلاميون كثيراً في تفنيدها، ومع ذلك يبقى الغربيّ يصر عليها لأغراض تعصبيّة تتصل إما بالعصور الوسطى وما كان يجري فيها من الصراع بين الغرب والإسلام، وظهور السيادة الإسلامية في العالم لمدة عشرة قرون، أو بالعصور الحديثة وما حصل فيها من ظهور النهضة الأوربية والثورة على الأديان والكنيسة وسيادة المنطق المادي القائل بأن الدين يلازم الديكتاتورية ونفي الآخر، فلا يريد الإنسان الغربيّ أن يتخلى عن تهمة انتشار الإسلام بالسيف إما بدافع صليبي، أو بدافع علماني مادي؛ لأنها تضع بيده سلاحاً يعتبره حاسماً في المعركة مع الإسلام، ونحن لا نستطيع بسط القول في ردّها، لأنها تحتاج إلى مجال واسع وفرصة خاصة بها، لذا نحيل القارئ المحترم إلى ما كتبه الإسلاميون في ردها.

ونقول هنا باختصار: إن من المعروف تاريخياً أن حروب النبي ﷺ كلها كانت دفاعية، وأن فتح مكة الذي دخل فيه العرب في الإسلام أفواجاً كان سلمياً ولم يكن قتالياً، وأما فتوحات ما بعد وفاة الرسول ﷺ فقد كانت تبدأ بمطالبة الحكام بفتح أبواب الدعوة إلى الإسلام في بلادهم، فإن امتنع كان الجهاد ضد الحاكم وليس ضد تلك البلدان ولا الشعوب القاطنة فيها، ولو كان هناك إكراه على اعتناق الإسلام فلماذا دافع الفرس عن الثقافة الإسلامية واللغة العربية أكثر من دفاعهم عن لغتهم وثقافتهم القومية؟.

ولماذا يندفع البربر في شمال أفريقيا لفتح الأندلس بزعامة طارق بن زياد؟ ولماذا يندفع الترك في فتوحات جديدة داخل أوربا وشمال آسيا؟ وهل كان دخول أندونيسيا ووسط أفريقيا في الإسلام بالسيف؟ أو بجهود الدعاة والتجار وأقطاب الطرق الصوفية؟ وهل دخل المغول والتتر في الإسلام وهم تحت الغزو أو السيف أو دخلوا الإسلام وهم غزاة في بلاده؟ كل هذه المؤشرات التاريخية تدلل على أن الإسلام يحمل في داخله قدرة انتشارية شديدة، وأن انتشار الإسلام في العالم يعود إلى هذه القدرة لا إلى السيف.

٢ ـ دعوى تلازم الإرهاب والديكتاتورية مع الدين، وأن الحضارة التي تنطلق من الدين ولا ترفع الحرية شعاراً لها تنتهي إلى الإرهاب والديكتاتورية، وأن الخلاص من ذلك لا يكون إلا بالليبرالية الغربية التي تجعل الحرية قاعدة للحضارة؛ وبالنتيجة الإسلام محكوم بالإرهاب شاء من شاء وأبى من أبى.

وهذه دعوى مردودة نقضاً وحلاً

أما ردّها نقضاً فهو أن الليبرالية الغربية، انتهت إلى الإرهاب والديكتاتورية ولم تسلم من هاتين الآفتين، والدليل على ذلك ظاهرة الاستعمار والحروب الاستعمارية التي مارستها الليبرالية الغربية في أفريقيا وأمريكا اللاتينية وآسيا، وهي التي اقترنت بنتائجها في داخل الغرب؛ لأنها ومن خلال الأمم المتحدة والنفوذ الغربي السياسي والثقافي الواسع في العالم صارت أيديولوجية عالمية، والمفروض أن تفرز نتائج إيجابية في العالم أجمع، ألم يخضع العالم العربي والإسلامي طوال القرن العشرين إلى هذه الأيديولوجية وأصحابها ثقافياً وسياسياً؟ ألم تكن إيران وتركيا ومصر أبرز الدول الإسلامية التي عاشت تجارب تغريبية مكثفة؟ فما بال الغرب يكر الكرة مرة أخرى بإعلان الحرب على العالم الإسلامي؟ وما باله يخير المسلمين بين أنظمة ديكتاتورية كدول الخليج، ونظام صدام حسين، وحسني مبارك، وبين الاحتلال والقواعد العسكرية؟ فإذا كان الدين مذموماً لأنه ينتهي إلى الإرهاب والانتشار بالسيف فلماذا الحرية تنتشر هي الأخرى بالسيف؟ المناسب لأصحاب الحرية أن ينشروها بالإعلام

والتثقيف، فإذا نشروها بالاحتلال والقواعد العسكرية وقوات الناتو فهذا يعني أنها ليست بحرية حتى داخل الغرب؛ لأن النور نور في كل مكان ولا يمكن أن يكون نوراً في مكان وظُلمة في آخر، فإذا كان كذلك فهذا دليل على أن ما نعتبره نوراً في المكان الأول ليس بنور أصلاً، وأن الليبرالية الغربية قد أخفقت في امتحان الحرية في داخل الغرب فضلاً عن خارجه؛ وإنما تظهر النتيجة في الخارج بنحو أوضح مما في الداخل لأسباب يحتاج بيانها إلى فرصة أوسع.

وكيف يستطيع أنصار الحرية أن يثبتوا أن الاستعمار الذي مارسوه في أفريقيا، وآسيا، وأمريكا اللاتينية كان وما يزال يهدف إلى نشر الحرية ودفع الأخطار المتوجهة إليها من هذه القارات؟ كيف يبررون إذاً عمليات نهب الثروات، والسيطرة على مصادر الطاقة، وإبقاء القارات الثلاث في حالة الأسواق الاستهلاكية للإنتاج الرأسمالي، وعدم السماح بارتفاع وتيرة النمو الإنتاجي هناك؟ هل هذا من التحرر أو من الاستعباد؟

لماذا ضربوا اليابان بقنابل نووية رغم أن الامبراطور الياباني آنذاك كان قد أعلن الاستسلام؟ لماذا يحتفظون بقنابل نووية لو انفجرت لافنت الكرة الأرضية برمتها، ويمنعون الدول الأخرى من الاستخدام السلمي للطاقة النووية؟.

لماذا يقتلون اليهود في أروبا، ويشردونهم إلى فلسطين، ويمنحونها لهم، ثم يقومون بتشريد الشعب الفلسطيني؟ لماذا يسلطون على الشعب العراقي ديكتاتوراً يسوقونه من خلف الستار نحو الحرب على إيران والكويت في الخارج، والحرب ضد الشيعة والأكراد في الداخل، ثم يحاصرون الشعب العراقي لمدة ثلاث عشرة سنة حتى يقبل بالاحتلال، ويتخذونه مبرراً لتنفيذ ما يساوي حرباً عالمية ضد هذا الشعب؟ أهذا كله كان من أجل الحرية أم من أجل الاستعباد؟ وسوف نأتي في المحور الآخر على ما يتم به الكلام هنا.

وأما ردّها حلاً فهو أن النزاع ليس في أصل الحرية، فالإسلام يؤمن بالحرية بوصفها حقاً من حقوق الإنسان، ولكنه يرفض أن تكون قاعدة للحضارة، بينما الغرب يفعل العكس بأن

يجعل الدين حقاً من حقوق الإنسان ويجعل الحرية قاعدة للحضارة، والحرية من وجهة النظر الإسلامية لا يمكن أن تكون قاعدة للحضارة؛ لأن الحياة البشرية لا تدار بالحرية وإنما بمنظومة علوم ومعارف يتفق العقلاء على صحتها، ثم يتخذونها لهم طريقاً في الحياة، وليس المراد من الدين والتوحيد بوصفه قاعدة للحضارة البشرية أكثر من هذا المعنى الذي عبر عنه الرسول الأعظم ﷺ رمزياً بقوله: «قولوا لا إله إلا الله تفلحوا»[1]، نعم الحرية مطلوبة بما هي مقدمة لتشخيص الطريق الصحيح، والأخذ به، وتمييزه عن الطريق الخاطئ مقدمة لتركه، والإسلام يؤمن بالحرية بهذا المقدار؛ بل الاعتقاد الصحيح عنده ما كان ناشئاً عن فحص وتحقيق، أمّا ما كان ناشئاً عن تقليد للآباء والأمهات والمجتمع، أي ما لم يكن ناشئاً عن تحقيق واختيار فهو اعتقاد مردود، وأن الاجتهاد في العقيدة واجب عيني على كل مكلّف، وما فعله الغرب حينما ألّه الحرية، وجعلها قاعدة للحضارة وجعل الدين حقّاً من حقوق الإنسان لم يكن ناشئاً من بحث فلسفي فقط بقدر ما كان ناشئاً من انفعال تاريخي، وذلك حينما قامت النهضة الأوروبية الحديثة ضد الدين ووجد الإنسان الأوروبي نفسه مطلق السراح في الأرض لا يملك منظومة علوم ومعارف جاهزة يدير حياته بها فتصور أن الحرية هي القاعدة التي ينطلق منها في تشييد منظومة العلوم والمعارف المنشودة لإدارة الحياة الغربية الجديدة بالتدريج، وأن المنظومة الصحيحة هي التي تتكون في هذا السياق فقط، مع أن عملية التشييد التدريجي سوف تأخذ ملامحها واتجاهاتها العامة من تلك اللحظة التاريخية الانفعالية، وسوف تكون منظومة العلوم المشيدة ضمن هذا السياق حاملة لبصمات تلك اللحظة وآثارها، وسوف يكون الاعتقاد بهذه المنظومة من قبل الإنسان الأوروبيّ اعتقاداً تعصبياً انفعالياً من قبيل قول المشركين، قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾[2]، نعم تاريخ النهضة الأوروبية الحديثة مليء بالمدارس الفكرية هذا أمر لا ينكره أحد، ولكن هذه المدارس تولدت في سياق الانفعال بتلك

---

(١) بحار الأنوار: ١٨، ٢٠٢.

(٢) البقرة: ١٧٠.

اللحظة التاريخية التي اعتبرت لحظة مقدّسة عند الجميع، وكان على فلاسفة النهضة الأوربية الحديثة إخضاع تلك اللحظة للتحقيق الفلسفي من جهة: هل فساد الكنيسة يعني بالضرورة فساد أصل مقولة الدين؟ وأنه لا يوجد دين آخر يشتمل على منظومة علوم ومعارف صحيحة لإدارة الحياة؟ وأن على الإنسان أن ينطلق في الحياة بعيداً عن كل دين، أي بعيداً عن كل منظومة علوم ومعارف جاهزة يأتي بها الوحي إلى الإنسان؟.

لقد أجاب الإنسان الأوروبيّ على هذه الأسئلة الثلاثة بالانفعال، وما عرف بعد ذلك بالمدرسة الإنسانية كانت أقرب إلى تبرير هذا الانفعال منه إلى التحقيق الفلسفي الجاد فيه، وهذا يعني بالنتيجة أن الحرية لم تكن قاعدة الحضارة وإنما كان بالانفعال باللحظة التاريخية المذكورة هو قاعدتها، وقد عبر القرآن الكريم عن هذا الانفعال باتباع الأهواء، قال تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾[1].

أما مقولة: إن الأخذ بالدين بما هو منظومة علوم ومعارف جاهزة بوصفه قاعدة للحضارة ينتهي إلى الإرهاب والديكتاتورية، فهذه الملازمة لا يدل عليها برهان عقلي، ولا وجود لها في الإسلام، صحيح أن الإسلام ينكر ما عداه، وأنه يتخذ من الجهاد وسيلة لإقامة الدين بوصفها قاعدة في الحضارة البشرية، ولكن هذا لا يلزم منه الانتهاء إلى الإرهاب والديكتاتوريّة.

الإسلام يكفر ما عداه، وهذا أمر طبيعيّ، لأنه يرى نفسه منظومة العلوم والمعارف الصحيحة القادرة على إدارة الحياة البشريّة، وهذا لا يقبل التعدد؛ لأن المنظومة الأخرى إما نفس الأولى وإما غيرها، فإذا كانت نفسها فصدورها من مشرعها عبث وتحصيل للحاصل، وإذا كانت مختلفة عنها فهذا الاختلاف يدل على بطلانها، إذ إن الحق لا يتعدد، والنور واحد، وإنما الظلمات متعددة، وتكفير الآخر هو بمعنى عدم قابلية ما عنده من الأفكار والمفاهيم؛

---

(١) البقرة: ١٢٠.

لأن تكون منظومة علوم ومعارف صالحة لإدارة الحياة البشرية، فالتكفير ناظر بالذات إلى الأفكار وبالعرض إلى الأشخاص، وكفر الأفكار يأتي بلحاظ هدفية المعرفة في القرآن، وأن الفكر والمعرفة المعترف بها فيه هي ما يصلح أن يكون هداية للإنسان، أي منظومة علوم ومعارف صالحة لإدارة الحياة البشرية.

ومنه يتضح أنه ليس المراد من تكفير الآخر تبرير القتال معه، وإنما المراد تنبيهه على خطإٍ تلبّس به، وإيقاضه من غفلة وقع فيها، مقدمة لحمل مشعل النور إليه؛ كما هو شأن الطبيب حينما يخبر المريض بخلل في بدنه فإنه إخبار مقرون بالرحمة والشفقة على المريض، وليس المراد به تحقيره، وتبرير القضاء عليه، وليس في القرآن الكريم آية ولا في السنة الشريفة حديث يقول: اقتلوا الكفار لأنّهم كفار، بل أمر القرآن الكريم بدعوة الكفار إلى الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة، نعم إذا أصبحوا جنوداً في جيش يجهزه الطاغوت ضد الإسلام، فالمسألة تصبح شيئاً آخر، تصبح مسألة دفاعيّة، والكافر يقاتل بما أنه جندي للطاغوت لا بما أنه كافر، والإسلام لا يرى مشروعية لصراع الأديان، ولا الحضارات، ولا الأمم، ولا القوميات، ولا القبائل، ولا الشعوب، وإنما الصراع المشروع عنده هو الصراع مع الطاغوت ، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾[1].

وهو صراع إنساني هادف ليس غرضه القضاء على الكفار، وإنما غرضه تحريرهم من سيطرة الطاغوت واستعباده لهم؛ قال تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا ﴾[2]، وهذه هي مسؤولية الجهاد في الإسلام، وهي المعنى الحقيقيّ للحرية؛ فالجهاد ينتهي إلى الحرية، أما من زعم جعل الحرية قاعدة للحاضرة فقد انتهى أمره إلى الإرهاب والاستعمار كما مضى وستأتي تتمّته عما قليل.

---

(١) النحل: ٣٦.

(٢) النساء: ٧٥.

٣ ـ دعوى انتساب الإرهاب الجاري في العالم اليوم - مما يقتصر الغرب على تسميته إرهاباً - إلى الإسلام، وهي النتيجة المترتبة على الدعوتين السابقتين، وقد اتضح سقوطها بسقوط ما بنيت عليه، ومع ذلك لا نكتفي بهذا المقدار وإنما نناقشها وكأنها مستقلّة عما قبلها.

إن هذه الدعوى باطلة للأدلة الآتية:

الدليل الأول: إن الجماعات المسلحة التي تمارس القتل والإرهاب باسم الإسلام هي جماعات تنتمي إلى أهل السنة والجماعة، وإلى الخط السلفيّ منهم، والمعروف في فقه أهل السنة وجوب طاعة الحاكم، وعدم جواز الخروج عليه وإن كان جائراً إلا إذا صدر منه كفر بَوَاح، بينما هذه الجماعات الآن ترفع شعار الجهاد والثورة بوجه حكام لم يثبت فيهم هذا الشرط، وتمارس منطقاً غريباً تماماً عن فقه المسلمين جميعاً.

فإن قيل: إن هؤلاء يصومون ويصلون ويرفعون شعار الجهاد والإسلام عالياً، قلنا: هذا كله صحيح، ولكنه لا يغير من الواقع شيئاً، لأنّ محل البحث ليس في عباداتهم وشعاراتهم وادعاءاتهم وإنما في سلوكهم السياسيّ؛ وهل المذاهب الإسلامية الموجودة حالياً بما فيها المدرسة السلفيّة مسؤولة عنه أو لا؟.

الدليل الثاني: إن هذه الجماعات اتخذت من تكفير المسلمين مبرراً لاستباحة دمائهم، وارتكاب أشنع الجرائم فيهم، مما لم يعدّ خافياً على أحد، أنهم ارتكبوا في ذلك مخالفتين شرعيّتين:

الأولى: إن الكفر وحده لا يبرّر استباحة الدماء والأموال، وإن الحرب لا تكون مع كل كافر، وإنما مع كافر كان جندياً للطاغوت في معركة تدور رحاها بين الإسلام وهذا الطاغوت، كما في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓاْ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾[1]، وعلى من يريد الجهاد في هذا الزمان أن يشخّص أولاً من هو الطاغوت؟ ثم يوجّه الجهاد ضده بالذات، ثم يقاتل جنود الطاغوت

(١) النساء: ٧٦.

وأولياء الشيطان، وأن يشخّص الطاغوت طبقاً لما بيّنه القرآن الكريم من أوصاف الذين حاربوا الأنبياء، وأبرزها صفة الترف التي نجدها الآن في الطبقة الرأسمالية الحاكمة في العالم، من دون الشعوب الغربيّة فضلاً عن المسلمين، مع أننا نجد الجماعات المسلّحة تستهدف المسلمين، ولا تقوم بأعمال مسلّحة بوجه الصهاينة والكيان الإسرائيلي، وحتى الأعمال المسلّحة التي ينفذونها في الغرب يستهدفون بها الأبرياء، أو تكون مما تريده الرأسماليّة لتبرير إعلان الحرب على الإسلام كحادثة ١١ سبتمبر.

الثانية: إن المسلم وإن ارتكب ما يوجب الكفر جهلاً أو باجتهاد خاطئ، فإنه مع ذلك لا يحكم عليه بالكفر، وهذا ما صرّح به ابن تيمية في مواضع عدة، نقلها عنه سليمان بن عبدالوهاب شقيق محمد بن عبدالوهاب في ردّه على أخيه برسالة أسماها (الصواعق الإلهية في الردّ على الوهابية) منها ما نقله عنه في كتاب الإيمان أنه يقول: «لم يكفّر الإمام أحمد الخوارج، ولا المرجئة، ولا القدريّة، وإنما المنقول عنه وعن أمثاله تكفير الجهميّة، مع أن أحمد لم يكفّر أعيان الجهمية ولا كل من قال أنا جهميّ كفّره؛ بل صلّى خلف الجهمية...، وينكر ما أحدثوا من القول الباطل الذي هو كفر عظيم»[1].

ويقول: «من قال: إن الاثنتين والسبعين فرقة كل واحد منهم يكفّر كفراً ينقل عن الملة فقد خالف الكتابة والسنة وإجماع الصحابة؛ بل وإجماع الأئمة فرقة»[2]، ويقول: «إنّي دائماً ومن جالسني يعلم مني أنّي من أعظم الناس نهياً من أن ينسب معيَّنٌ إلى تكفير أو إلى تفسيق أو معصية إلا إذا علم أنه قد قامت عليه الحجة الرسالية التي من خالفها كان كافراً تارة وفاسقاً أخرى وعاصياً أخرى... وما زال السلف يتنازعون في كثير من هذه المسائل ولم يشهد أحد منهم على أحد منهم لا بكفر، ولا بفسق، ولا بمعصية»[3] وأنه يقول: «وكنت أبيّن لهم أن ما نقل عن السلف والأئمة من إطلاق القول بتكفير من يقول كذا وكذا فهو أيضاً حق؛ لكن

---

(١) الصواعق الإلهية : ٧٣ نقلاً عن كتاب الإيمان لابن تيمية.
(٢) المصدر السابق: ٧٤ نقلاً عن كتاب الإيمان لابن التيمية.
(٣) المصدر السابق: ٨٢ ـ ٣٢ نقلاً عن مجموعة الرسائل والمسائل لابن تيمية.

يجب التفريق بين الإطلاق والتعيين»[١]. وقوله: «إن مذاهب الأئمة مبنية على هذا التفصيل بالفرق بين النوع والعين... وتكفير الجهمية مشهور عن السلف والأئمة؛ لكن ما كانوا يكفّرون أعيانهم»[٢].

والخلاصة: إن المسلم قد يتورّط بأمور من الكفر، ولك حينئذٍ أن تقول: من تورط بهذه الأمور فإنه كافر، وليس لك أن تقابل شخصاً معيناً ممن ابتُلي بها فتقول له : أنت كافر؛ وترتب عليه آثار الكفر؛ فهذا هو تكفير الأعيان المنهي عنه عند ابن تيمية، وأن تكفير الأعيان لا يتم إلا إذا أقيمت الحجة على كل فرد في محكمة شرعية صالحة للبتِّ في مثل هذه الأمور، وإذ لم تنعقد مثل هذه المحكمة ولم يُدعَ لها أي شخص فلا يجوز لأحد الحكم على أحد بعينه بكفر وارتداد، نعم، يجب الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والدعوة إلى الإسلام الصحيح، ودفع الشبهات بالحكمة والموعظة الحسنة، وقد تورّط كثير من المسلمين في زماننا بالشيوعية والعلمانية وغيرهما من التيارات الكافرة الهدّامة، ولم يقل أحد من فقهاء العصر بكفر أحد من هؤلاء أو ارتدادهم.

وحصيلة الكلام: إن ما فعلته الجماعات التكفيرية المسلحة من إجراء حكم الكفر على أشخاص بأعيانهم أمر لا يقره عليهم أحد من فقهاء المذاهب الإسلامية الموجودة بما فيهم رئيس المدرسة السلفية الشيخ ابن تيمية.

الدليل الثالث: إن أسباب التكفير التي يزعمها التكفيريون في المسلمين كانت موجودة في عقد السبعينيات من القرن الماضي وما قبله، والسلفية من أتباع ابن تيمية أيضاً كانوا موجودين؛ فلماذا ظهر التكفير والتكفيريون في تسعينات القرن الماضي وما بعدها، ولم يظهروا في الحقبة السابقة عليها؟ لماذا ظهر التكفير والتكفيريون بنحو موازٍ ومقارن للجهود الأمريكية الحثيثة إلى إشعال نيران الحرب المضادة للجمهورية الإسلامية بتحريك دول وجماعات من داخل منطقة الشرق الأوسط لتقوم بهذه الحرب بالوكالة عن أمريكا؟ فبعد ما

---

(١) الصواعق الإلهية : نقلاً عن كتاب الإيمان لابن تيمية: ٨٣.

(٢) المصدر السابق: ٨٨ ـ ٨٩ .

فشل صدام حسين في حرب الثماني سنوات في ثمانينيات القرن الماضي، ظهر التكفيريون ليلعبوا الدور نفسه في تسعينيات القرن الماضي وما بعدها»[1].

الدليل الرابع: على أن المشكلة ليست في التكفير بما هو هو حالة سلبيّة بين المسلمين، فلنقل أن تكفير الأنواع كان موجوداً بين المسلمين، إنما الكلام في من حوّل تكفير الأنواع إلى تكفير الأعيان، ثم حوّل تكفير الأعيان إلى جماعات مسلحة تُطوى لها الأرض من الشرق والغرب، والشمال والجنوب، فتجتمع في لحظة واحدة من أقطار الدنيا تتدرب على تفخيخ السيارات، والأحزمة الناسفة، وتنتظم في أفواج، وألوية، وكتائب، وتجند لها فضائيات ومكاتب، وتُهيأ لها فرص الدخول إلى مدن العراق وقصباته، والمحافظات السورية وقُراها، وهكذا الأمر في دول شمال أفريقيا ووسطها، ويتسنّى لها الحصول على المال الوافر، والسلاح الفتاك الكثير، وجوازات سفر، ونساء يأوي إليهنّ المجاهدون عند الاستراحة.

والسؤال المطروح: هل تمّ هذا بإمكانات ذاتية أو بإمكانات دولية وإقليمية؟ هل هناك عاقل يصدق فرضية الإمكانات الذاتية؟ هل يعقل أن حادثة ١١ سبتمبر التي غيرت مجرى التاريخ المعاصر كانت من تدبير هذه المجاميع المسلّحة وإمكانياتها؟

الجواب بالنفي قطعاً، ونحن في هذا المحور من البحث لا يهمنا إلا أن ننفي احتمال الإمكانيات الذاتية؛ لنقول في النتيجة النهائية: إن الإسلام والأمة الإسلامية لا يتحملان المسؤولية عن ظاهرة الإرهاب في العالم، وإنهما بريئان منها براءة الذئب من دم يوسف، وسيأتي الكلام عن الاحتمال الصحيح في المحور الآخر.

المحور الآخر: الإرهاب صناعة غربيّة علمانيّة

إذا لم يكن الإرهاب ظاهرة إسلامية، فلا يبقى مجال أمام الباحث عن الحقيقة إلا احتمال

---

(١) ذكر المؤرخ مجيد خدوري في كتابه العراق الجمهوري ما مفاده: أن الحزب الإسلامي قدّم في عام ١٩٦١م طلباً إلى وزارة الداخلية العراقية بترخيص إنشائه، وقد عرف السيد محسن الحكيم قدس سره بوصفه راعياً للحزب، وقد أدرجتُ هذه المعلومة في الهامش؛ لأن الكتاب الآن ليس بيدي، وقد طالعته قبل أكثر من ثلاثين عاماً ومازلت احتفظ بهذه المعلومة منه، ولا أتذكر رقم الصفحة، ولا نعرف حزباً شيعياً بهذا الاسم، وإنما هو اسم لحزب سنّي عراقي، وهذه الحادثة تدلل على أن الطائفية ظاهرة مفتعلة في العراق قامت قوى سلطوية معينة باصطناعها.

أن يكون صناعة غربية علمانية، وهو أمر يقبله العقلاء ويدل عليه القرآن الكريم، فالعقلاء الآن يعتبرون رئيس الجمهوريّة، وسائر أصحاب المناصب والمواقع المسؤولة مسؤولين عما يحصل في دائرة مسؤوليتهم عن أحداث وقضايا، فإذا سقطت طائرة في البحر اعتبر وزير المواصلات مسؤولاً عنها، وإذا تفشّت الجريمة في البلد اعتبر وزير الداخلية مسؤولاً عن هذه الحالة، وهكذا الأمر في ما نحن فيه، فالإرهاب ظاهرة وقعت في زمن حاكمية الغرب سياسياً وفكرياً وفي دائرة نفوذه وسلطانِه، ومنها الشرق الأوسط، وشمال أفريقيا، وباكستان، والقرآن الكريم يقول: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾[1]، بوصف الطاغوت بالخط السياسي والفكري الحاكم الذي يتحمل المسؤولية عما يحصل من مساوئ وقبائح في المجتمع؛ ولا ينبغي الإشكال على هذه الكلية بأنه يلزم منها مسؤولية الإمام علي عليه السلام عن حروب الجمل، وصفين، والنهروان، فالكلام ليس في من عارض النظام الحاكم وتحدّاه، وإنما في حالات وظواهر تبرز في ظل سيادة النظام وتتبلور في أجوائه؛ ولكننا مع ذلك لن نقتصر على سيرة العقلاء، ولا على القرآن الكريم ولا على دليل الحصر القائل بأن الإرهاب لا يخلو أمره من أن يكون وليد الإسلام، أو وليد الغرب، فإذا انتفى الأول ثبت الآخر، وإنما سوف نعتمد فضلاً عن ذلك على أدلة حسيّة صدرت عن محافل غربية دلّلت على أن الإرهاب صناعة غربية، لذا ستناول البحث في المحور الآخر على وفق ما قُدّم له في ثلاث فقرات هي:

الفقرة الأولى: في بيان الأدلة الحسية على مسؤولية الغرب عن الإرهاب.

الفقرة الثانية: في بيان مسؤولية المنظومة الفكرية الغربية عن هذا السلوك.

الفقرة الثالثة: في بيان دوافع هذا السلوك في ضوء هذه المنظومة.

الفقرة الأولى: في بيان الأدلّة الحسية على مسؤولية الغرب عن الإرهاب.

وهذه الأدلة تنقسم على قسمين، أدلة حسيّة مباشرة، وأخرى غير مباشرة، أما الأدلة

---

(١) النحل: ٣٦.

المباشرة فهي:

١ ـ نقلت صحيفة كيهان الصادرة في طهران بالفارسية في عددها الصادر يوم الخميس ٢٤- تموز- ٢٠١٤م عن وكالة الأنباء الفرنسية، أنها نقلت عن ناظرين في حقوق الإنسان أن نتائج التحقيق تفيد أن الشرطة الفيدرالية الأمريكية قامت بعد ١١ سبتمبر ٢٠٠١م بإجبار التكفيريين على الإقدام على أعمال إرهابية، وقدمت لهم الأموال في ذلك، يذكر أن هذا التقرير أعد بالتعاون مع مؤسسة حقوق الإنسان في جامعة كولومبيا الأمريكية.

٢ ـ نقلت صحيفة كيهان أيضاً بتاريخ الأحد ١٤ كانون الأول ٢٠١٤م عن صحيفة الغارديان البريطانية بأن داعش تكونت تحت حماية أمريكية في سجن بوكا في جنوب العراق، وأوردت شبكة العالم في التاريخ نفسه خبراً مفاده أن داعش بُذرت بذرتها الأولى في أيام صدام حسين في العراق.

٣ ـ ونقلت جريد[illegible]سالت) الصادرة في طهران في عددها بتاريخ ٢٥ آب ٢٠١٤م أن جان نكرو بوتي المدير السابق للمخابرات الأمريكية (CIA) أعلن أن أمريكا هي المسؤولة عن ظهور المجموعة الإرهابية المسماة بداعش، وذلك في مقابلة له مع صحيفة (ديلي بست)، واعترف أيضاً بأن أبا بكر البغدادي كان في السجون الأمريكية، وأنهم قد أطلقوا سراحه.

٤ ـ نقلت صحيفة كيهان في عددها الصادر في ٢٥ آب ٢٠١٤م عن صحيفة واشنطن بوست أنها انتقدت في تقرير لها السياسات الغربية الداعمة لداعش، وإن ما كان يقوله بوتين عن الإرهابيين ودعم الغرب لهم في سوريا، بأنه سوف ينقلب على حماتهم أصبح قلقاً علنياً للغربيين، ونقلت كيهان في العدد نفسه عن صحيفة ديلي تلكراف أن إنكلترا هي المصدر الرئيس للإرهاب في العالم، واشارت بأن ٢٨٠٠ غربياً، التحقوا بالإرهابيين في سوريا والعراق؛ ٥٠٠ نفر منهم بريطانيون، وأن ٤٠٠٠ مواطن بريطاني آخر في طريقه إلى الالتحاق، ونقلت كيهان في العدد نفسه أيضاً عن نيويورك تايمز أن العربية السعودية كانت في العقود الخمسة الأخيرة هي الحامي الرسمي للمجموعات السلفية في العالم، وهي التي

أوجدت ظاهرة الإرهاب السلفي.

٥ ـ نقلت صحيفة كيهان في عددها الصادر في ٨ تموز ٢٠١٤م عن تقرير لوكالة الأنباء الإيرانية أن أدوارد سنودن الوكيل السابق في (CIA) أفاد بأن أجهزة المخابرات الأمريكية والإسرائيلية أشتركت في خطة باسم (وكر الزنبور) هدفها تجميع المتطرفين من مختلف نقاط العالم في مكان واحد، وطبقاً لهذه الخطة يجب طرح دين ومذهب جديد في الشرق الأوسط تحت شعارات إسلامية، وأفاد سنودن بأن الأمريكيين وصلوا إلى هذه النتيجة؛ وهي أن الطريق الوحيد لحفظ أمن إسرائيل يكمن في إيجاد جماعات قرب حدود إسرائيل يتجه سلاحها نحو الدول الإسلامية، وليس إسرائيل، وقال سنودن: إن أبا بكر البغدادي كان سنة كاملة في تعليم مكثّف من قبل الموساد، وأخذ دورة في الإلهيات والخطابة، وفي هذه الأثناء كشف عيسى الغيث عضو مجلس الشورى السعودي في لقاء مع الصحفيين أن القاعدة وداعش من صنع العربية السعودية، وأن هذه الجماعات قد تولّدت في حضن المملكة، وما زالت هناك محافل سعودية تقوم بدور التربية لهذه الجماعات، وأن بعض الدعاة الفتنويين يذهبون إلى الإدارات، والجامعات، والمؤسسات الخيرية، ويبذرون بذور التطرف والفتنة هناك، ونقلت الصحيفة كذلك عن مستشار الرئيس الأفغاني في موقع له على الإنترنيت أن داعش آلة واشنطن لتجزئة العراق.

٦ ـ نقلت وكالة أنباء النخيل العراقية في موقعها على الأنترنيت عن إذاعة صوت روسيا بتاريخ الاثنين ٨ تموز ٢٠١٤م تقريراً أعده المحلل الروسي في شؤون الشرق الأوسط أندريه أونتيسكوف نقلاً عن تقارير رسمية للإدارة الأمريكية: أن أمير تنظيم داعش أبا بكر البغدادي كان قد اعتُقل في وقت سابق من عام ٢٠٠٤م في سجن بوكا، وتم الإفراج عنه في وقت لاحق من عام ٢٠٠٩م في ظل إدارة الرئيس أوباما، وأن البغدادي متعاون مع وكالة المخابرات المركزية الأمريكيّة، ونقل هذا المحلل الروسي عن المستشرق الروسي ماتوزوف أن المعلومات بشأن البغدادي تشبه المعلومات بشأن إرهابي آخر ليبي وهو عبد الحكيم بلحاج؛ اعتقله الأمريكيون، ومكث في السجون الأمريكية مدة طويلة، ثم تم تسليمه لمعمر القذافي

الذي أصدر عفواً عنه، وفي نهاية المطاف تبيّن أن بلحاج هو القائد العسكري للثوار الليبيين الذين أطاحوا بالقذافي، وأن بلحاج هذا قد شارك في القتال ضد بشار الأسد أيضاً.

٧ ـ تناقلت وكالات الأنباء أخبار رقود جرحى المسلحين الإرهابيين في سوريا في مستشفيات الكيان الإسرائيلي، وتلقيهم العلاج هناك، وزيارة رئيس وزراء الكيان التفقديّة لهم، حتى أصبح الأمر أشهر من أن يحتاج إلى توثيق.

٨ ـ صرح رئيس الوزراء الفرنسي السابق في يوم الأحد المصادف ١٢كانون الثاني ٢٠١٥م أن داعش وليدة سياسات الغرب الداعمة للإرهاب.

٩ ـ من المعروف أن طالبان تشكلت من قبل المخابرات الباكستانية، وبالتنسيق مع المخابرات الأمريكية والسعودية.

١٠ ـ نشرت جريدة النهار البيروتية على موقعها في الأنترنيت مقالاً لـ(سمير منصور) بتاريخ ٦ آب ٢٠١٤م ذكر فيه أن وزيرة الخارجية الأمريكية هيلاري كلنتون ذكرت في مذكرات لها نشرت باسم (خيارات صعبة) بأن الإدارة الأمريكية هي التي أسست ما سمي بتنظيم الدولة الإسلامية في العراق والشام؛ بهدف تقسيم الدول العربية ومنطقة الشرق الأوسط عموماً، وأن أمريكا وأوروبا كانتا تنتظران الإعلان في ٥-٧-٢٠١٤م عن ذلك لكي يتم الاعتراف بتلك الدولة، وأنها ـ أي كلنتون ـ كانت قد زارت ١١٢ دولة في العالم من أجل ذلك، ولكن حصل فجأة ما غيّر الأمور، وتذكر مصر، والسعودية، والإمارات، والبحرين، وعمان، ودول المغرب العربي من جملة الدول التي تطمح الإدارة الأمريكية لتقسيمها عن طريق داعش، ثم يذكر المقال شريط فيديو يعود تاريخ إلى عام ٢٠٠٦م، أعلن فيه رئيس وكالة الاستخبارات الأمريكية السابق جيميس ولسي ما نصّه: إننا سنضع لهم إسلاماً يلائمنا، ثم نجعلهم يقومون بالثورات بنحوٍ يتم انقسامهم على بعضهم من خلال تحريك النعرات التعصبية الطائفية والمذهبية، ومن بعدها قادمون للزحف وسننتصر.

هذا غيض من فيض جمعناه على نحو عفو الخاطر وليس على نحو الاستقصاء، وظننا أن

القارئ الكريم قد أتخم بمثل هذه الشواهد والأخبار التي دلّلت على أن الإرهاب تولد في أحضان الغرب، فلا يحوجنا إلى التطويل بإيراد شواهد أخرى، وما زالت بأيدينا شواهد أخرى لم نوردها دفعاً للإطالة.

أما الأدلة غير المباشرة فكثيرة أيضاً، منها:

١ ـ مقولة الفوضى الخلاقة التي أطلقتها وزيرة الخارجية الأمريكية السابقة كونداليزا رايس، وهي تدل على التبني الأمريكيّ لما يجري في الشرق الأوسط من فتنٍ، وأعمال إرهابية، وصراعات دينية.

٢ ـ مقولة صِدام الحضارات والحرب على الإرهاب والضربة الاستباقية والحرب العالمية الرابعة، فإنها تأتي في سياق التبني والتبرير لما يحصل في الشرق الأوسط من الأعمال الإرهابية، وأن منفذيها يقومون في الشرق الأوسط بحرب بالوكالة عن الغرب، وأنهم ينفذون أهدافاً غربيّة باسم الإسلام، وبوساطة الحروب المذهبية.

٣ ـ مشروع بايدن المعروف بتجزئة المجزّأ، وتقسيم المقسّم، ورسم خارطة جديدة للمنطقة يتم فيها تجزئة كل من العراق، وسوريا، والسعودية، والأردن إلى دويلات مجهرية صغيرة؛ ومعلوم أن هذا المشروع لا يمكن أن يتم إلا بمقدمات من قبيل حرب المذاهب والأقاليم بما يتمخض عنه تقسيم المقسَّم.

٤ ـ لقد أعلنت أمريكا في عام ٢٠٠١م الحرب على الإرهاب بدءاً من أفغانستان، ولكن هذه الحرب وبعد مرور خمسة عشر عاماً عليها لم تسفر عن القضاء على الإرهاب، ولا عن تحجيمه؛ بل الذي حصل اتساعه وانتشاره في مناطق جديدة من شمال أفريقيا، والشام، والعراق وفي ظل هذه الحرب ظهرت طالبان في باكستان، مما يكشف عن أن أمريكا بصدد تنمية الإرهاب ورعايته؛ لتحارب به الإسلام والأمة الإسلامية.

٥ ـ يلحظ أن السياسة الأمريكية تعتمد الازدواجية في عملها، فهي على علاقة بالحكومة الأفغانية في كابل، وفي الوقت نفسه هناك علاقات ومفاوضات مع طالبان، نراها تحتفظ

بعلاقة مع أقطاب العملية السياسية في العراق، وفي الوقت نفسه تدعم (داعش) من خلال قنوات إقليمية معروفة تحتفظ بقواعد عسكرية في قطر والسعودية، وفي الوقت نفسه تظهر شبكة الجزيرة والعربية هناك كمنابر إعلامية للقاعدة والنصرة والظواهري، والمعروف أن الإمارات الدولة الوحيدة في العالم التي اعترفت بحكومة طالبان، تُسقط صدام حسين، وترعى أيتامه في السعودية، واليمن، والخليج، وتركيا، وهذه الازدواجية تدل على أنها بصدد إدارة الحرب الأهلية الجارية في المنطقة وتنميتها، وأنها ليست مع هذا الطرف ولا مع ذاك، وإنما هي مع الحرب التي تستنزف المنطقة بما يلتئم مع مقولة صِدام الحضارات.

٦ ـ يلاحظ أن الإرهابيين يختلفون عن كل الحركات السياسية في العالم بأنهم لا يريدون إلا القتل والدمار والتخريب، لا يريدون إنشاء دولة مستقرة ومستقلة ينفذون من خلالها شعاراتهم وأيديولوجيتهم، كما هو شأن سائر الحركات في العالم، وإنما يريدون الاضطرابات المستمرة، وينشرون القلاقل والفتن، وهذا ما ينسجم تماماً مع مقولة الفوضى الخلاقة.

٧ ـ ويلاحظ على أعمال الإرهابيين أنهم يستهدفون المسلمين بالأساس ولا يستهدفون القوى الاستعمارية والصهيونية في المنطقة، لا يتكلمون عن فلسطين، ولا يؤيدون غزة، ولا يضربون القواعد العسكرية في الخليج والعراق والجزيرة العربية، وهذا ما يشهد لحرب ينفذها الإرهابيون في البلاد الإسلامية بالنيابة عن الصهيونية والقوى الاستعمارية.

٨ ـ لقد بات واضحاً ومعلوماً أن الإرهابيين يحظون بدعم مباشر من تركيا، وقطر، والسعودية، والأردن، فهل هذه الدول تفعل ذلك بنحو مستقل عن أمريكا؟ أو هل هي متمردة عليها؟ أو تقوم بذلك بإدارةٍ وتوجيهٍ مباشر من أمريكا نفسها؟ فالمسألة لا تخرج عن هذه الاحتمالات الثلاثة.

والاحتمال الثالث هو المتعين، فإن أمريكا لا تفوض لأحد أن يفعل ما يشاء في الشرق الأوسط، ولا تهب هذه المنطقة لأحد، ولم تأتِ بالجيوش والقواعد العسكرية ثم تسمح

لحكومات الدول المذكورة أن تفعل فيها ما يخالف أمريكا، كما أن هذه الحكومات لا تملك لياقات الاستقلال فضلاً عن التمرد على أمريكا، فينحصر الأمر في الاحتمال الثالث.

الفقرة الثانية: في بيان مسؤولية المنظومة الفكرية الغربية عن هذا السلوك

لماذا يمارس الغربيون هذا السلوك مع العالم الإسلامي؟ لماذا يخيرون المسلمين بين خيارات كلها سوداء مظلمة؟ أنظمة ديكتاتورية، احتلال، قواعد عسكرية، إرهاب وحروب مذاهب؟ الجواب واضح وهو أنهم يفهمون مصالحهم بهذا النحو، ولكن السؤال لا ينقطع، فيعود السائل ليقول مرة أخرى: لماذا فَهِم الغربيون مصالحهم هكذا؟ .

الجواب: إن وراء هذا الفهم تكمن العلمانية، والليبرالية، ومدارس فكرية، وفلسفات اجتماعية نبعت جميعاً من الاتجاهات الماديّة في النهضة الأوروبية الحديثة، وهنا تكمن مشكلة الإنسان المعاصر التي تظهر في شرق الأرض بنحوٍ، وفي غربها بنحوٍ آخر، ولكن السر في الجميع واحد.

ونحن في هذه الفقرة من البحث نركّز على ضرورة الربط بين السياسة والفكر، وإرجاع السياسة الغربية إلى جذورها الفكرية، وفهمها في ضوء هذه الجذور من أجل تحقيق الأهداف الآتية:

١ ـ حتى نعرف الواقع كما هو، وحتى نكون في الصور الكاملة للقضية، لا الصورة المبتورة لها، فإن الساسة الغربيين يمارسون السياسة انطلاقاً من استراتيجيات مدونة ومن دساتير؛ وهذه الاستراتيجيات والدساتير على ارتباط وثيق بفلسفة السياسة، وفلسفة الأخلاق، وفلسفة التاريخ في الغرب، وتبرعمت في ضوء جذور ترتبط بالعلمانية، والليبرالية، والأومانية، ونظرية المعرفة هناك، ألا ترى السياسة الأمريكية قد بُنيت على نظرية صِدام الحضارات، وهذه نظرية تنتمي إلى فلسفة التاريخ وفلسفة الصراع، إذ تجد الفكر الغربيّ يمجد الصراع، ويعتبره الأصل الذي يفسر به الكون والحياة والمجتمع والتاريخ، فقال هيجل بصراع الأضداد، وماركس بصراع الطبقات، وجوبينو بصراع العروق الرفيعة مع المنحطة،

وتويبني بالتحدي والاستجابة، وأخيراً جاء هنتغتون بصِدام الحضارات، فما قاله الأخير ليس منفصلاً عن مقولات أسلافه، وليس منفصلاً عن تمجيد هوبز للحروب والصراعات، ولا عن تمجيد نيتشه للأقوياء، ولا عن تمجيد ميكافيلي للمكر والخديعة والظلم والعدوان؛ وهذه كلها ليست منفصلة عن الشعار الغربي المعروف بـ (صناعة الرأي)، وشعار صناعة الرأي غير منفصل عن نظرية بافلوف في المنعكس الشرطي، وهذا كله يرجع إلى الاتجاه المادي في تفسير المعرفة والعقل؛ ولولا هذا الاتجاه في المعرفة لما استطاع السياسي الغربي أن يستهين بمعارف البشر وعقولهم، ويتصورهم أحجار يحركها على رقعة الشطرنج كيفما شاء فحسب؛ إذ يستطيع أن يصطنع العلوم والمعارف ويزرقها في أذهان البشر داخل الغرب وخارجه من خلال آليات إعلامية، وسياسية، وعسكرية متقنة، يستطيع أن يفوز بالانتخابات داخل الغرب بالمال والإعلام، وأن يفوز بالسلطة على المسلمين بصناعة دين جديد يجعل المسلم يتحرك بحماس لا نظير له يخدم المصالح الأمريكية، وهو يتصور أنه ينصر بذلك الفرقة الناجية بوجه سائر الفرق الإسلامية، فيحول الإسلام إلى طوائف كل منها يطلب الزلفى عند أمريكا لعلها تمنحه فرصة الانتصار على الطوائف الأخرى قربة إلى الله تعالى؛ وهم لا يعلمون أن أمريكا هي التي زرقت في أذهانهم هذا النوع من الحسابات عبر آليات معينة، وظهر بذلك الإسلام الأمريكي الذي أشار إليه سيد قطب في خمسينيات القرن الماضي، والإمام الخميني في ثمانينياته، الإسلام الذي يهمه مكافحة الشيوعية ولا يهمه مكافحة الاستعمار والصهيونية، الإسلام الذي يُستفتى في وسائل منع الحمل ولا يُستفتى في حكم الاستعمار في العالم الإسلامي"[1]، فالإسلام الذي يهمه أن ينتصر فيه السنيّ على الشيعيّ، أو بالعكس ولو على حساب الإسلام نفسه، ولا يهمه أن ينتصر الإسلام على الاستكبار العالمي، وأن يجري تطبيقه في الأرض في نهضة إنسانية شاملة تكافح الاتجاهات المادية في النهضة الأوربية الحديثة.

تُرى لماذا يصر الأمريكان على إلقاء قنبلتين نوويتين في اليابان رغم أن الإمبراطور الياباني كان قد أعلن الاستسلام أمام الحلفاء؟ أليس ذلك من أجل صناعة رأي عام عالمي جديد

(١) دراسات إسلامية: ١١٩ ـ ١٢٠.

يقف إلى جانب أمريكا، ويمجدها، ويسير في فلكها لا لشيء إلا بسبب الذعر الذي أحدثته في النفوس من تلك الحادثة؟ فعاشت أمريكا بعدها بمجد وسؤدد مرهوبة الجانب حتى إذا سقط الاتحاد السوفيتي قالوا: إننا أسقطناه من دون حرب، مع أنهم أسقطوه بحرب قذرة.

لماذا تحاصر أمريكا الشعب العراقي حتى في حليب رضعانه ١٣ عاماً؟ أليس ذلك من أجل صناعة رأي عام عند الشيعة يسكت على الاحتلال في عام ٢٠٠٣م[1]؟.

ولماذا قامت أمريكا بتدبير حادثة ١١ سبتمبر ونسبتها إلى جماعات إسلامية سلفية؟.

أليس ذلك من أجل صناعة رأي عام يساعد على الطائفية والصراع بين السنة والشيعة؛ أملاً في أن يتزلف السنيّ لديها بإعطائه الفرصة للانتصار على الشيعيّ، وأن يتزلف الشيعيّ لديها بإعطائه الفرصة المقابلة للانتصار على السنيّ؟ وفي سياق هذه الصناعة تنبّأ كسينجر بأن المنطقة مقبلة على حرب مذاهب تستمر ١٠٠ عام.

٢ ـ وحتى ندرك أن المشكلة مع الغرب ليست مشكلة تقابل جغرافي أو قومي، وصِدام حضارات، فالإنسان في الشرق هو نفسه في الغرب، إنما المشكلة في الاتجاهات المادية التي تبرعمت من النهضة الأوروبية ثم تحولت إلى منظومة علوم ومعارف تدار بها الحياة الإنسانية، وما دامت هذه المنظومة وهذه الاتجاهات هي الحاكم في حياة البشر فلا استقرار، ولا سلام، ولا عدالة، بل حروب عالمية مستمرة بدأت بالأولى، ولن تنتهي بالرابعة.

٣ ـ وحتى ندرك أيضاً أن المسألة ليست مسألة أخطاء وقع فيها الرئيس الأمريكيّ ومسألة تدابير سياسية يستطيع ولاة الأمور في العالم الإسلامي اتخاذها لحل المشكلة في اجتماع، أو اجتماعات متكررة لجامعة الدول العربية، أو منظمة التعاون الإسلامي.

٤ ـ وحتى ندرك الدور الإنساني الواسع والأساسي الذي يستطيع الإسلام أن يمارسه على الساحة العالمية، وسر الظاهرة الدينية بصورة عامة والصحوة الإسلامية بصورة خاصة في

---

(١) وإن كان هذا السكوت لم يحصل فعلاً، فقد لعبت القيادة الدينية الشيعية في العراق دورها في مكافحة الاحتلال وما زالت تفعل ذلك، وإنما نتحدث على مستوى الخطط والبرامج الأمريكية.

عالم اليوم، فقد غدا الإنسان المعاصر يشعر بعطش شديد إلى الدين، وليس في الأديان الموجودة على وجه الكرة الأرضية ما يستطيع أن يروي هذا الظمأ غير الإسلام، وقد ظهرت بذلك الرسالة الإنسانية التي يحملها هذا الدين إلى الإنسان، وتوجد الآن في العالم الإسلامي ثلاث أطروحات بشأن الإسلام، لابد لنا أن ننظر فيها ونختار ما هو الصحيح القادر منها على حمل رسالة الإسلام إلى الإنسان وإرواء ظمئه، وإنهاء الحرب الرابعة لصالح الإنسان والإسلام، وهي:

الأولى: وهي الأطروحة التقليديّة التي تقتصر على بيان جانب العبادات والمعاملات.

الثانية: ما صار يعرف بالإسلام السياسي الخالي من مشروع نهضوي شامل.

الثالث: أطروحة الصحوة الإسلامية بزعامة الإمام الخميني والسيد الشهيد محمد باقر الصدر خلّد الله ذكرهما الشريف.

واتضح من البيان السابق قصور الأطروحة الأولى؛ لأنها تأخذ بجانب من الحياة البشرية ولا تغطي الجوانب الأخرى، واتضح قصور الثانية أيضاً؛ لأن أصحابها يريدون الوصول إلى السلطة بلا مشروع نهضوي جذري شامل يحل مشكلة التصادم مع الغرب من أساسها؛ بل يريدون الوصول إليها ولو من قناة العلاقة مع الغرب، والخضوع لهيمنته الفكرية والسياسية والعسكرية على العالم الإسلامي؛ بل واتضح أن هاتين الأطروحتين ليستا قاصرتين عن تحقيق الأهداف الإسلامية المنشودة، ومكافحة المادية الحاكمة في العالم فقط؛ بل إنهما لا تمنعان الغرب السياسي والفكري من الركوب على ظهرهما للاستمرار في الحرب الرابعة بوجه الإسلام والإنسان المعاصر أيضاً، ولو من خلال إخضاعهما لعمليات صناعة رأي مساعدة على ذلك، وحينما نوجه هذا النقد لهما، فإنما نريد بذلك النقد البنّاء الرّصين الذي يساعدهما على التطوير، وقد نسب إلى أرسطو أنه كان يقول: إنني أحب أفلاطون ولكنّ الحقيقة أحب إليّ منه، فانحصر الأمر بالأطروحة الثالثة؛ لشموليتها وجذريتها وقدرتها على التجاوب مع التحديات الراهنة، فهي الإسلام الأصيل الذي كافح به الرسول الأعظم ﷺ الجاهلية الأولى وأصلح به أول هذه الأمة، والذي يمكن به مكافحة الجاهليّة الجديدة وإصلاح آخر

هذه الأمة، والشروع بنهضة جديدة تخلف النهضة الأوروبية في قيادة الحياة الجديدة للإنسان المعاصر، وهذا كله متوقف على تجنيد الطاقات الفكرية في العالم الإسلامي لتصب في خدمتها، وإعادة تأسيس العلوم الشرعية في إطارها، وبالانطلاق من مبانيها، وتعاضد جهود أصحاب الأطروحتين السابقتين معها لينصهر الجميع في بوتقة الأهداف الإسلامية الرفيعة من أجل إقرار حاكمية الله وسيادة شرعه في الأرض.

الفقرة الثالثة: في بيان دوافع هذا السلوك في ضوء هذه المنظومة

قد يسأل سائل: إذا لم يكن الإرهاب ظاهرة إسلامية، وكانت الدعوى الغربية بنشر الحرية والديمقراطية في العالم الإسلامي غير صادقة، ولا تصلح لتبرير الحرب على الإرهاب، وأن الإرهاب ظاهرة غربية ناشئة من عمق الفكر المادي العلماني الذي يدير به الغربيون الحياة البشرية، فكيف يعبر هذا الفكر عن نفسه في صورة دوافع محفّزة باتجاه إعلان الحرب الرابعة؟ أو بتعبير آخر ماهي الدوافع الحقيقية لهذه الحرب من وجهة النظر الإسلامية؟ كيف يفسر الإسلاميون السلوك العدواني الغربي على العالم الإسلامي؟.

لقد وجدنا الغربي يفسر الجهاد في الإسلام بالإرهاب، والاستبداد، ونشر العقيدة بالسيف انطلاقاً من رؤيته العلمانية للدين التي تفرض حتمية التضاد بين الدين والحرية؛ أي: إنه يرجع السياسة إلى جذورها الفكرية، وقد اتضح بطلان ذلك التحليل، وانتفاء وجود تصادم بين الدين والحرية، ولكن من اللازم على الإسلامي أن يفعل الشيء نفسه فيرجع السياسة الغربية إلى جذورها الفكرية ليكافحها من الجذور، وقد قمنا بذلك في الفقرة السابقة، ولكن هذه الوظيفة لا تتم بالرجوع إلى الجذور فقط؛ بل لابد لنا من أن نتصور كيف تفعل هذه الجذور فعلها بإنتاج دوافع معينة في الذهنية الغربية بما يجعلها تسلك سلوكاً عدوانياً تجاه العالم الإسلامي؟ وهذا الأمر لا نقوم به؛ لأن العالم الإسلامي هو الطرف المعتدى عليه في هذه الحرب، وإنما نقوم به في كل موارد الصراع التي يحدثها الفكر المادي في الساحة البشرية؛ لأن القاعدة القرآنية تقول: ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ

﴿فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾(١)، الإسلام يرفض الصراع، والقتل، وسفك الدماء، ويعتبره إفساداً للكون الذي أعدّه الله سبحانه وتعالى لحياة سعيدة للإنسان، إنه يرفض الحرب العالمية الأولى كرفضه للثانية، وكرفضه للثالثة، وكرفضه للرابعة الحالية، والرؤية القرآنية لها واحدة، ولكن كلامنا الآن في دوافع الحرب الرابعة.

لقد أفرزت النهضة الأوروبية الحديثة مجموعة من المدارس الفكرية، ومنظومة من العلوم والمعارف لإدارة الحياة البشرية، ولقد كان الطابع العام لهذه المجموعة والمنظومة هو الاتجاه المادي بفعل العامل التاريخي المتمثل بتقابل النهضة الأوروبية مع الكنيسة، هذا التقابل الذي عمم على سائر الأديان، وبالتدريج حلّت هذه النهضة محل الدين في إدارة الحياة البشرية مستفيدة من عوامل جانبية اقترنت بها؛ كظهور الثورة الصناعية، وتقدم العلوم التجريبية والطبيعية مما عزّز ثقة إنسان العصر الحديث بهذه النهضة، وفي العقود المتأخرة من القرن التاسع عشر انشعبت النهضة الأوروبية على معسكرين: رأسمالي ليبرالي وآخر ماركسي، إثر المظالم التي أحدثتها الرأسمالية داخل أوروبا وخارجها، وكان ذلك الانشقاق البادرة الأولى لتزعزع الثقة بقدرة النهضة الأوروبية الحديثة على مواصلة إدارة الحياة البشرية، وقد عرضت الماركسية نفسها على أنها الامتداد الصحيح لهذه النهضة، والمعبر الفلسفي عن تطلعاتها، وأن الرأسمالية مرحلة آذنت بالرحيل، وإبّان العقد الثاني من القرن العشرين قامت الحرب العالمية الأولى، وبدأ القلق يساور مفكري الغرب بشأن مصير حضارتهم، وقامت الثورة البلشفية مستفيدة من موجة الغضب والاستنكار الشديدين التي عمّت أوروبا بسبب الحروب والمظالم التي أحدثتها الرأسمالية، مما حدا بالرأسمالية إلى أن تقنع مواطنيها بها من خلال موجات الاستعمار المتتالية، في آسيا، وأفريقيا، وأمريكا اللاتينية، مستعينة في ذلك بحالة التخلف الشامل التي كانت هذه القارات تعيشها، فاستطاعت بريطانيا وفرنسا أن تصطنع أنظمة حكم في هذه المستعمرات، وكان فقدان المنافس الجدي لهما يساعدهما على استقرار هذه الأنظمة، ولكن ظهور المعسكر الشرقي بوصفه منافساً جدياً للمعسكر الرأسمالي في مدة ما

(١) المائدة: ٣٢.

بعد الحرب العالمية الثانية أدى بالاستعمار الرأسمالي إلى تغيير الأنظمة الحاكمة في المستعمرات؛ بحيث تستطيع مقاومة المد الشيوعي الذي اكتسح القارات الخمس آنذاك، وأصبحت قدرة الاستعمار على حفظ الاستقرار في مستعمراته في تناقص مستمر، وبمرور الزمن بدأت تظهر عيوب الماركسية في الداخل، وبدأ المد الشيوعي في العالم الإسلامي ينحسر بسبب قوة العامل الديني، وبدأ هذا العامل يتحوّل تدريجياً إلى صحوة إسلامية تصاعدت حتى وصلت ذروتها في الثورة الإسلامية بقيادة الإمام الخميني تَدَّسَ سِرُّه، هذه الثورة التي حددت مسارها بأنها لا شرقية، ولا غربية، ولا تقبل الهيمنة بكل أشكالها على المسلمين عامة وفي إيران خاصة، وهنا بدأ المعسكر الرأسمالي يعد العدّة للقضاء على الصحوة الإسلامية ومعاملتها بصفة منافس جاد حلّ محلّ المعسكر الشرقي الذي تلاشى في نهاية الثمانينيات من القرن الماضي، وقد حاول فوكوياما أن يحتفل بهذا الانتصار معلناً نهاية التاريخ بغلبة الرأسمالية في العالم على خصومها، ولكن هنتغتون ردّ عليه بصِدام الحضارات، وإن الحرب الجدية قد بدأت؛ لماذا؟ لأن الدين عاد يطرق أبواب الرأسمالية من جديد ليس في الشرق الأوسط فقط، وإنما في داخل أوروبا أيضاً، وهذا الدين ليس هو الكنيسة الفاشلة التي ثارت النهضة الأوروبية عليها، وإنما هو الإسلام الذي جرّب الرأسماليون دوره الفعّال في القضاء على الشيوعيّة في العالم الإسلامي.

وها هو الإنسان المعاصر يفتح صدره لسماع صوت الإسلام بكل شغف ولهفة، وها هي موجات انتشار الإسلام في داخل أوروبا تُقلق أرباب السياسة الغربية وها هي الصحف والمجلات ومحطات التلفزة تتحدث عن إسلام يتحرك، ومساجد تنتشر، ونساء محجبات من الجنسيات الأوروبية، وشعائر إسلامية تقام بكل حفاوة واستقبال في بلاد الغرب، ومعلوم أن صعود الإسلام في الغرب يعني في الوقت نفسه انزواء العلمانية والقيم المادية، وأن الماركسية لم تسقط؛ لأنها ماركسية فقط، وإنما سقطت لأن الإنسان المعاصر قد تجاوز القاعدة المادية المشتركة بين الماركسية والعلمانية، وهذا ما جعل هنتغتون ينتقد فوكوياما على نظريته في نهاية التاريخ، وجعل الساسة الغربيين يجمعون على العمل بصِدام الحضارات وتُرك فوكاياما يغرد وحده خارج السرب.

وربما لا يوافق كثير على هذا الخطر الذي تمثله الصحوة الإسلامية فيما يخصّ السياسة الغربية، ويعتبرون هذا الكلام نوعاً من التهويل، ولكن الإنسان الحاذق يعتبر ذلك منهم سذاجةً وسطحية؛ لأن السياسي الغربي لا ينظر إلى السنة التي هو فيها، وإنما ينظر إلى القرن الحادي والعشرين بأكمله، ولأن السياسي الغربي يدرك ضعفه الداخلي أكثر من غيره، هذا الضعف المتمثل بخواء الإنسان الغربي عقائدياً، وتزعزع ثقته بايديولوجيته، وعطشه الشديد لأيديولوجية جديدة تدير الحياة البشرية بالقيم المعنوية لا المادية، ألا ترى السياسي الغربي يرفض دخول تركيا العلمانية حيز الاتحاد الأوروبي؟ أنه يستفيد منها بصفة عضو في الناتو ولكنه لا يقبلها عضواً في الاتحاد الأوروبي! لماذا؟ لئلا يكون الإسلام ولو بحالته التركية الضعيفة عضواً في هذا الاتحاد، فكيف لو انتشر الإسلام في دولة أوروبية وصار الدين الثاني فيها يوماً ما؟ وتبقى نقطة الخطر الأساسية تتمثل في أن الظاهرة الدينية في أوروبا تأتي امتداداً للصحوة الإسلامية التي تنطلق من عاصمة التحدي والاستقلال والدعوة إلى تغيير الحياة البشرية من المادية إلى الإسلام.

الصحوة الإسلامية إذن تتحرك بصفة معسكر شرقي جديد ضد السياسة الغربية، والظاهرة الدينية في أوروبا تعني تزلزل القاعدة التحتية التي تقوم عليها السياسة الغربية فكرياً وشعبياً.

وعند هذه المشكلة يواجه الرأسمالي خيارين لا ثالث لهما: فإما أن يمنع دخول الغربيين في الإسلام، وهذا خيار لا يتناسب مع شعار الحرية ويزيد من تزلزل القاعدة التحتية للسياسة الغربية، فينحصر الأمر في الخيار الآخر وهو إعلان الحرب على الإسلام والعالم الإسلامي؛ لغرض إجهاض الصحوة الإسلامية، وهي في الأيام الأولى من حياتها، ولكن كيف يتم الإعلان عن حرب على دول ومجتمعات لم يظهر منها العدوان على دولة غربية؟ وكيف تكون هذه الحرب مؤثرة في القضاء على الصحوة الإسلامية؟ ولاسيّما أن الأعم الأغلب من دول العالم الإسلامي يخضع للسيطرة الغربية فكرياً وسياسياً؛ وعليه لابد إذاً من حرب بكيفيّة خاصة تختلف عن الحروب التقليديّة المتعارفة في الماضي، حرب تعتمد على خلق جماعات

مسلحة كبيرة من المسلمين تتميز عن الصحوة الإسلامية بشعار التهديد للمصالح الغربية داخل الغرب بنحوٍ محدود وإعلامي، وبالقدر الكافي لتبرير إعلان الحرب على العالم الإسلاميّ وإلصاق تهمة الإرهاب بالإسلام، لكن جهدها الأساس ينصبّ على ضرب الصحوة الإسلامية من الداخل وإشعال الفتنة الطائفية بين المسلمين، واستنزاف بلاد الإسلام اقتصادياً، وعسكرياً، وسياسياً، وتهيئتها لمزيد من الانقسام والتشرذم بحيث تتحول الدولة الواحدة إلى دول عدة، ويظهر في الشرق الأوسط سايكس بيكو جديد أسوأ من السابق، وهذا ما جرى تنفيذه بدءاً من تسعينات القرن الماضي عندما ظهرت القاعدة وطالبان في أفغانستان، ثم جاء الإعلان الرسمي عن الحرب الرابعة بعد تدبير حادثة ١١ سبتمبر ٢٠٠١م ، ومازالت هذه الحرب قائمة بسياقاتها الخاصة بها من هذه اللحظة.

لقد كانت ومازالت وستبقى السياسة الغربية إلى الأمد المنظور بحاجة إلى الإرهاب والجماعات الإرهابية، وبحاجة إليها بوصفها جماعات تنتمي إلى مذهب معين من مذاهب المسلمين، حتى تحقق الأغراض المصيرية الآتية:

١ ـ تبرير الحرب على العالم الإسلامي واحتلاله من قبل الناتو متى شاء.

٢ ـ تبرير وصف الإسلام بالإرهاب، وأن مشكلة العالم الإسلامي تأتي من الداخل وليست من الخارج.

٣ ـ القضاء على الظاهرة الدينية في أوروبا، وإقناع الإنسان الأوروبيّ بضرورة العودة إلى العلمانية، والعزوف عن دين هذه زعامته وأفعاله.

٤ ـ تعزيز الخطاب العلمانيّ في العالم الإسلامي.

٥ ـ إفراغ العالم الإسلامي من المشاعر الإسلامية المعادية للآيديولوجية الغربية التي تشكل القاعدة التحتية للصحوة الإسلامية، وتفجير هذه المشاعر بين المسلمين بدلاً من أن تستفيد منها الصحوة الإسلامية في أغراضها الرسالية السلمية.

٦ ـ تبرير ظاهرة الإسلام فوبيا في الغرب.

٧ ـ تبرير السيطرة الغربية على العالم الإسلامي أمام الرأي العام الغربي والإسلامي معاً، وإظهار الغرب على أنه يحمل رسالة إنسانية إلى الآخرين هي رسالة الحرية والديمقراطية وحقوق الإنسان.

٨ ـ ضمان أمن إسرائيل.

٩ ـ لأن الحرب مع المسلمين بالفتنة الطائفية سوف تكون أرباحها قياسية وخسائرها الغربية قليلة جداً، فالغرب لا يخسر فيها مالاً ولا رجالاً إلا بنحوٍ محدود جداً؛ لأن المسلمين سوف يطحن بعضهم بعضاً، والمال سوف يأتي من السعودية، وقطر، والإمارات؛ بل إن الغرب سوف يربح فيها اقتصادياً من خلال تشغيل معامل الأسلحة وتصديرها إلى الدول المذكورة بكميات كبيرة جداً.

وتعتمد السياسة الغربية بقيادة أمريكا في الجانب التعبوي على عوامل عدّة:

١ ـ الجيوش والمخابرات المنحلة في العراق، ومصر، وليبيا، وتونس .

٢ ـ ظاهرة البطالة في الشارع العربي والإسلامي.

٣ ـ التجييش الطائفي من خلال فضائيات فتنوية.

٤ ـ مشاعر الإحباط تجاه الأوضاع القائمة.

وهذا كله يبين أن موقف الصحوة الإسلامية في هذه الحرب يعتمد على الوحدة الإسلامية، ورفض نسبة الإرهابيين إلى أي مذهب من مذاهب المسلمين بما في ذلك السلفيّة.

لأن هذه النسبة لا واقع لها، كما اتضح من البحث، ولأن من شأنها أن توفر للإرهابي مذهباً يحتمي به وبيئة اجتماعية تؤيده، ولأن العلمانية الغربية هي المسؤولة عن هذا السلوك، فإذا قبلنا بنسبة الإرهابي إلى السلفية فهذا يعني تبرئة المجرم الأول وإعانته على الفتنة الطائفية التي يريدها، وهذا لا يعني تبرئة الإرهابي من الإرهاب، فإنه المجرم الثالث بعد حكومات المنطقة الداعمة له، وإنما يعني تشخيص الجهة التي ينتسب إليها سياسياً وفكرياً تشخيصاً صحيحاً مقدمة لتشخيص الموقف الصحيح في قضية مصيرية في ما يخصّ الإسلام

والمسلمين، وقد عرفت أن هذه القضية ليس فيها أكثر من خيارين أحدهما ينصر الإسلام، والثاني ينصر الغرب في حربه على الإسلام، ومن أخطأ التشخيص وقع في الثاني لا محالة، لأن من لم يعرف زمانه هجمت عليه اللوابس.

النّظام السياسيّ
بين الحكومة الإسلاميّة والجماعات التكفيريّة

النّظام السياسيّ بين الحكومة الإسلامية والجماعات التكفيريّة

الشيخ معتصم سيّد أحمد*

إشكاليّة البحث:

الكشف عن الجذور الفكريّة، والعقائديّة، والثقافيّة، والنفسيّة، التي تقف خلف الرؤية المشوهة لطبيعة العمل السياسيّ في الإسلام، وما نتج عنها من تباينات حادّة حول ماهيّة النظام السياسي الذي يستحق شرعية الانتماء للإسلام، فالبحث يحاول الكشف عن الأسباب التي منعت العقل المسلم من إيجاد تصوّر مشترك حول الرؤية السياسية في الإسلام، وكيف أصبحت الحركات المتطرفة هي البديل عن التيارات المعتدلة التي بدأت العمل الإسلامي الحركي؟ كما يحاول هذا البحث تعرّف البعد النفسي لبعض المجتمعات المعاصرة التي شكلت حواضن مؤيدة لدولة الخلافة الإسلامية المتطرفة؛ إذ يمثل هذا البعد النفسي إشكالية حقيقية إلا أنه مهمل أثناء عملية الرصد والتحليل للظاهرة عند كثير من المتابعين، وأخيراً الإشارة إلى إشكالية كبرى تمثل معضلة أمام الفكر الإسلامي وهي شكل النظام السياسي الذي يجوز نسبته إلى الإسلام، ومن ثم ما هي المحددات الجوهريّة للحكومة الإسلاميّة؟

أسئلة البحث:

١- هل أزمة الحكم في الإسلام ولدت وتطورت بعد انتقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى الرفيق الأعلى

---

* باحث إسلامي من السودان.

أو هل هي أزمة استحدثت بعد انهيار الخلافة الإسلامية وما تلاها من استعمار وتقسيم للدول؟

٢- هل التباين بين أبناء الأمة حول شكل النظام السياسي الإسلامي نابع من تباين في فهم النصوص، أم هل هي خيارات سياسية فرضتها ظروف مختلفة؟

٣- هل تملك الحركات الإسلامية خطاباً ناضجاً ومقنعاً يحقّق التوازن بين الأصالة التي تنبعث من النص الديني، والانفتاح الذي يضمن التفاعل الإيجابي مع متغيرات الواقع؟

٤- هل الحكومة الإسلامية ودولة الخلافة تعبر عن ضرورة دينية عقائدية؟ أم هل هو شعار سياسي لكسب ثقة الأمة ، واستغلال للبعد النفسيّ للمجتمع الإسلامي فقط ؟

٥- هل الإنجازات الحضارية الكبرى للتشيع ولّدت حالة من الغيرة والكراهية في نفوس الجماعات السنية التي فشلت في تقديم نموذج حضاري؟

٦- ثقافة التكفير واستراتيجية التوحش فكر مشوه أم هي نفسية المنهزم؟

٧- ما هي المحددات الجوهريّة للحكومة الإسلاميّة؟

فرضيات البحث:

١- يفترض البحث وجود غموض في مجمل الخطاب الديني، وقد تمظهر هذا الغموض في اختلاف أبناء الأمة الإسلامية في كل حقول المعرفة الدينية؛ ولاسيّما الرؤية الإنسانية في الإسلام، وقد تسبب في هذا الأمر تداخل مجموعة من المؤثرات كان أبرزها العامل السياسي بوصفه المحرك الأساسي والجوهري لهذا التباين.

٢- يفترض البحث خطأً الرؤية العلمانية التي تبعد الإسلام عن المشهد السياسي، وفي الوقت ذاته يستبعد وجود شكل محدد، أو هيكلية، سياسية أو نمط للحكم يحتفظ بشروط تفصيلية للنظام الإسلامي، ويفترض البحث وجود رؤية ثالثة يحاول الانتصار لها؛ وهي

وجود هيكلية قيمية ومحددات عامة للحكم الإسلامي، وما دونها هي المساحة المتاحة للعقل الإنساني لكي يبدع بحسب ما تمليه ظروف المرحلة.

٣- يتسالم البحث على كون ظاهرة الحركات التكفيرية الجهادية ظهارة مهدِّدة لوجود الإنسان؛ ولكن يقوم بتحليلها ضمن الواقع النفسي للمجتمع الإسلامي وهو الجانب المهمل في قبال التحليل العقائدي والسياسي الغالب عند تناول هذه الظاهرة.

منهج البحث:

يستخدم البحث المنهج التاريخي لتتبع المسار السياسي للأمة الإسلامية، فضلاً عن المنهج التحليلي الوصفي للكشف عن المتغيرات المؤثرة في المشهد العام، ولا أجد غنًى عن المنهج التركيبي البنائي الذي يعمل على تشكيل رؤية واضحة لنظام الحكم في الإسلام، وتجاوز كل التصورات المتطرفة التي تحاول فرض نمط تاريخي محدد للحكم الإسلامي.

لمحة عن الواقع السياسيّ المعاصر:

إذا بدأنا من تحليل عام للمشهد السياسي في البلدان الإسلامية وحاولنا الاقتراب من الخلفية السياسية للمجتمعات الإسلامية، سيبدو لنا المشهد وقد استبعد الإسلام بصفته نظاماً سياسيّاً من إدارة الدولة، وحينها يصح لنا أن نصف الحالة العامة بأنها تبتعد عن أي دور يُفعَّل فيه الإسلام على مستوى الساحة السياسيّة، وقد يقال: إن الأمة اكتفت بجعل الإسلام ضمن حدود الشعار الذي لا يتجاوز الهوية المجتمعية، وهذا الوصف يقرّ بالإسلام بصفته إطاراً عاماً للانتماء دون الاقتراب من المحتوى والجوهر، وكل ما يحتاج إليه تشكيل هذا الإطار هو التركيز على المبادئ العامة المتمثلة في الإقرار بالعقائد الإسلامية، والالتزام بالأحكام الشرعية في حدود العبادات، وبعض المعاملات فقط، أما المحتوى الذي يمثل العمق الفلسفي لهذه العقائد، ومدى انعكاسها على الواقع الثقافي والسياسي للأمة فإنه الجانب المهمل، أو المغيب، أو المشوه أحياناً، وكذلك الحال في ما يخص الأحكام الشرعية التي تحولت إلى طقوس لا تتفاعل مع أهدافها العامة وقيمها التشريعية فقط، ومن هنا افتقدت

الأمة الإسلامية إلى صفة تصور يمكنه التفاعل مع تطلعات الناس وحاجاته الحياتية، وبكلمة مختصرة: إن المشهد المهيمن على الواقع الثقافي والاجتماعي والسياسي لا يرتقي أن يكون تعبيراً صادقاً عن نظام الإسلام في الحكم والإدارة.

فمنذ انهيار الصورة الكلاسيكية للإسلام السياسي أو ما يسمى بالخلافة الإسلامية، ولاسيّما بعد تفكيك الإمبراطورية العثمانية ١٩٢٤م، وتقسيم الدول الإسلامية، فقد تشكّلت كل دويلات العالم الإسلامي على أساس نظم سياسية لا توصف بكونها إسلامية، ومازالت تلك الحالة حتى أصبح النمط السائد في الحكم هو الحالة العلمانيّة التي تفصل الدين عن الدولة، ولا يمكن تفسير هذه الظاهرة ضمن أبعاد خارجية، بعيداً عن حقيقة الوعي الذي تختزنه عقلية الأمة حول الإسلام، فلو كان الإسلام في عمق الأمة ووعيها يمثل خياراً للحكم والعمل السياسي، ومن ثم يمثل مشروعاً حضارياً متكاملاً، حينها يصح لنا القول: إن الأمة أصبحت تعيش حالة من الرّدّة الحقيقية عن الإسلام إذا تمسكت بخيارات سياسية تستبعد الإسلام.

فلم نجد في نفسية الأمة أي حالة من التناقض بين طبيعتها الإسلامية وتبنيها لتصورات سياسية يسارية أو يمينية، فكل الأفكار السياسية والإنسانية وجدت طريقها إلى واقع الأمة الإسلامية، وتفاعلت معها من غير أن تشعر بأي تناقض بين هذه التيارات وما تؤمن به من مبادئ إسلامية، حتى الحركات ذات الأبعاد الإلحادية وجدت من يتبناها مع الحفاظ على هويته الإسلامية، فالحزب الشيوعي أمتد إلى كل الأقطار الإسلامية، وتفاعلت معه الأجيال مع تمسكها بإسلامها في إطار النمط المعهود وهو الصلاة، والصيام، وبقية أحكام العبادات، مما يقودنا إلى طبيعة الوعي الذي جعل الاهتمام بالإسلام ضمن حدود الهوية والإطار فقط، وبالنتيجة كل التيارات السياسية والثقافية مقبولة، طالما لا تخدش في الهوية العامة، الأمر الذي يجعل الأمة في حالة من التوافق الدائم مع كل تصور سياسي.

فنحن أمام وعي سياسي استطاع أن يستوعب كل الخيارات السياسية، في الوقت الذي لم

يحقق التفاعل المطلوب مع الخيار الإسلامي، مع أن الحالة الطبيعية للمسلمين تستوجب بروز التيار الإسلامي بوصفه عنواناً سياسياً يعبّر عن مدى الانتماء لهذا الدين، ذلك هو الأمر الذي يقودنا من جديد إلى النظر في طبيعة الانتماء الذي يقبل بالآخر، وإن كان ذا مرجعية معرفية بعيدة عن الإسلام، ولا يتفاعل بالمستوى المطلوب مع الخيار الذي يجب أن ينعكس من طبيعته الذاتية.

بهذا الوصف يمكننا الكشف عن الدوافع التي حركت بعض تيارات الأمة لتبنّي مشروع الإسلام السياسي، ويمكن تلخيصها في رفض الواقع بما فيه من تخلّف ورجعية وحرمان فضلاً عن الكفر بإسلام الأمة التي تبنّت كل الخيارات ما عدا خيار الإسلام في الحكم، ومن هذه الزاوية يمكننا تتبّع نشوء التفكير المتطرف الذي حاول تبرئة الإسلام في الوقت الذي اتهم فيه فهم الأمة محملاً إياه جزءاً من المسؤولية، ولكي تبرئ هذه التيارات الإسلام بوصفه ديناً من ساحة الاتهام لجأت إلى التاريخ بوصفه عمقاً وجدانياً، وتجربةً ناجحة للحكم الإسلامي في الأقل في مخيلة الأمة، ولذا شحنت كل أدبياتها بأمجاد الماضي واستعارت حتى مسميات التاريخ؛ من أمثال: أبي قتادة، وأبي البراء، وغيرها، ومن المؤكد أن الأيمان بإسلام الماضي والتركيز عليه لا يتحقق إلا بعد الكفر بإسلام الحاضر، ومن أجل ذلك تم التركيز على نظام الخلافة بوصفه حلاً لأزمة الحكم في المجتمعات الإسلامية، والكفر بالديمقراطية بوصفها شكلاً معاصراً للحكم، ومن هنا لا يمكننا استبعاد الحالة النفسية عند تحليل هذه الظاهرة في الوقت الذي لا نستبعد تأثير الجو الثقافي الذي عزّز هذه الحالة النفسية، كما لا يجوز استبعاد العامل السياسي الذي وظّف هذه الحالة.

وفي مقابل هذه التيارات التي تشكلت ضمن التصور السنّيّ للإسلام كان هناك التشيع الذي يحتفظ بقراءة خاصة، وفهم يتجاوز الإسلام بوصفه تصوراً تاريخياً يراد إعادة إنتاجه من جديد، لأنه يرتكز على مفهوم الإمامة بوصفه ضماناً إلهياً لسلامة المسيرة، وبوصفه امتداداً حقيقياً للسلطة الإلهية، فالإسلام بوصفه ديناً له حق الولاية على الناس، وحينئذٍ لا يرتقي أحد لهذه الزعامة ما لم يكن ممثلاً فعلياً لهذه الرسالة سواء كان في صورة الولاية الخاصة التي

يحددها النص أم الولاية العامة التي يشترط محدداتها النص نفسه، ومن هنا يجوز لنا أن نقدم التشيّع المعاصر بوصفه قراءة تجعل الإسلام في حيوية دائمة بين النص والواقع الموضوعي، طالما أنه لم يعترف بالتجربة التاريخية بصفتها تصوراً نهائياً للنظام الإسلامي، وعدم اعتراف الشيعة بالنماذج التاريخية في الحكم إما لكونها انحرافاً عن المسار الرسالي للرسالة المتمثل في إمامة أهل البيت ﷺ، وإما بوصفها تجربة محكومة بظروفها التاريخية لا يمكن تكرارها، ومن هنا يصعب علينا إيجاد مشتركات فكرية تقرب بين الإسلامي السياسي الشيعي وبين التيارات السلفية.

هذه المفارقة تكشف عن بعد نفسي آخر، ضاعف نسبة الكراهة التي تحملها السلفية السياسية على الشيعة، فهذه التيارات التي ترى نفسها الممثل الحقيقي للسنة هي بدورها تُقدّم على أنها الامتداد الأصيل للإسلام، ولا يمكنها والحال هذه أن تستوعب وجود منافس ينطلق من نفس الهموم، ويسعى لنفس الأهداف، ولاسيّما بعدما حققه الشيعة من إنجازات ضخمة في هذا المجال بعد الثورة الإسلامية في إيران، وتأسيس نظام للحكم ليس ناجحاً ومقنعاً فحسب بل منافساً حقيقياً لكل الأنظمة العصرية، ومن هنا نتفهّم تصاعد العداء على شيعة أهل البيت عليهم السلام عندما تصدروا المشهد السياسي الإسلامي، وتزداد هذه الحملة ضراوة كلما تتقدم الشيعة في هذا الميدان؛ ولذلك لم تجد دول المنطقة وشعوبها أي مشكلة مع الشيعة ضمن النظام الملكي الشاهنشاهي، أو الدكتاتوري الصدّامي، فعندما تراجع الإسلام السياسي السنّي صاحب السلطة التاريخية، وتقدم في قباله الشيعة الذين تصدروا المشهد - بعد أن كانوا يمثلون الطائفة المحكومة والمستبعدة والمضطهدة - استثار هذا الأمر حفيظة المخالف، وخلق استفزازاً حرّك كل بواعث العداء.

المفهوم الإسلاميّ للنظام السياسيّ وتباين الرؤى:

التقييم العام للمسار السياسي الإسلامي يقودنا إلى وجود تصورين؛ الأول: يمثل الرؤية السياسية داخل المدرسة السنية، والآخر: يمثل المدرسة الشيعية، وليس من اهتمامنا هنا

الترجيح بين الرؤيتين بقدر اهتمامنا باستيضاح الرؤية على مستوى الفعل السياسي، ومن ثم الوقوف على الأثر الفعلي للرؤيتين كلتيهما على مسار الحركات الإسلامية المعاصرة.

يعتقد السنة أن ما أنجز ووقع بالفعل من خيار سياسي بعد وفاة رسول الله ﷺ يمثل الرؤية السياسية في الإسلام، ولذلك تموضع الفكر السني، وبنى تفكيره العقدي والسياسي بما يتماشى مع واقع الخلافة تاريخياً، وأصبح الحاكم يتمتع بقداسة خاصّة يكتسبها من كونه خليفة رسول الله، أو أمير المؤمنين، وتم ربط ذلك بالإسلام بحيث يُتّهم بالرِّدة كلّ من يعترض عليه، ومازالت الأمة تتوارث هذه القداسة إلى درجة أصبح هو خط الدفاع الأول عند السنة، ولا يحق للمسلم بحث، هذه التجربة أو تقييمها فحسب، ومن هنا نفهم التهاون الملحوظ من قبل بعض تيارات الأمة أمام التيارات الإلحادية والعلمانية، أو حتى اليهود والنصارى، مع ما تمثله هذه التيارات من تشكيك حقيقيّ في الإسلام، وفي مقابل ذلك نشهد تلك الحملة المستعرة على شيعة أهل البيت سواء كانت من بعض الأنظمة أم بعض الأحزاب والتيارات الإسلامية، والسبب الحقيقي وراء هذه المفارقة هو كون الشيعة هم الجهة التي تشكك في شرعية التجربة التاريخية للحكم، مما يعني تلخيصاً حقيقياً للإسلام ضمن البعد التاريخي وتجربة الرعيل الأول؛ ولذا لم يتساهل هذا التيار مع كل من حاول التشكيك في تلك التجربة، حتى وإن كان من داخل المدرسة السنية، ولقد دفع فرج فودة حياته عندما كتب كتاب (الحقيقة الغائبة)، وحينئذٍ رسم هذا الخط خياره وفقاً لما حدث وأنجز بالفعل، من خلافة الخلفاء الأربعة مروراً بالتجربة الأموية، والعباسية، وختاماً بالخلافة العثمانية، وسيتضح لنا مدى هيمنة هذه التجربة على عقلية الإسلام الحركيّ المعاصر، الذي لم يتمكن من تقديم تصور إسلامي خارج عن حدود ما أُنجز سابقاً، الأمر الذي سوف يكشف لنا آليات التفكير عند هذه الجماعات.

أما الرؤية السياسية الشيعية فكانت تسير عكس الواقع المفروض على المجتمع الإسلامي تاريخياً، وقد قدمت تصورها الخاص الذي ينطلق من فكرة الإمامة القائمة على النص والتعيين، والبعد العقدي لهذه الفكرة هو أنه لا يمكن صناعة نظام للحكم، ومن ثم يتمّ

فرضه على المسلم بوصفه تعبيراً عن إرادة الله؛ لأن نسبة نظام إلى الإسلام هو في الواقع نسبة لله تعالى، ومن هنا يعتقد الشيعة أن إمامة أهل البيت ﷺ التي نصّ عليها القرآن، وأكد عليها الرسول هي الامتداد الحقيقي لرسول الله ﷺ؛ وحينئذٍ يمكننا القول: إن الرؤية السياسية عند الشيعة كانت سابقة لما حدث وأنجز في الواقع التاريخي من نظام سياسي؛ بل انطلقت من النص لفهم المسار السياسي للرسالة، فضمن حدود هذه الرؤية انفتحت على الواقع التاريخي ببصيرة نقدية حاكمت كل التجارب التي قد تتصادم مع هذه الرؤية، ومن أجل ذلك لم يتساهل التشيّع مع سقيفة بني ساعدة بوصفها خياراً يتحكّم في مسير الرسالة، وجاهر أئمة الشيعة برفضهم لتلك الخلافة، فأمير المؤمنين عليه السلام، امتنع عن بيعة الخليفة الأول أبي بكر نحو ستة أشهر، وعندما جاءته الفرصة الأولى، وعرض عليه عبد الرحمن بن عوف الخلافة، بشرط أن يسير بسيرة الشيخين أبي بكر وعمر، لم يقبل ولو ظاهرياً ومجاملة، وأعلن رفضه المدوّي بقوله: «كتاب الله وسنة الرسول نعم، أما سيرة الشيخين فلا»[1].

كما لم يستسلم شيعة أهل البيت لهذا الواقع التاريخي، وخاضوا من أجل ذلك الحروب، وقدموا الأضاحي والقرابين في سبيل تصحيح مسار الرسالة، وقد وصل هذا الصراع إلى قمته في حادثة كربلاء، التي كشفت عن حجم الانحراف الذي حدث، فقد تجرأت هذه الأُمّة على رسول الله ﷺ في حفيده الحسين عليه السلام، مما يكشف عن حجم المفارقة بين واقع الإسلام التاريخي بوصفه خياراً متحكماً، وبين الإسلام المتجسد في الحسين عليه السلام، فشهادة الحسين وجميع أهل بيته وأصحابه في كربلاء، أسقطت آخر الأقنعة التي كان يتستر بها الإسلام المتسلّط.

ومن هنا نكتشف، أنه قد كان هناك خياران لمسيرة الرسالة بعد وفاة الرسول الأكرم ﷺ، الخيار الأول: هو الذي تحكم في الواقع السياسي للأمة، وقد ولّد هذا الخيار وعياً إسلامياً يمكنه التأقلم مع أي نظام سياسي ويمكنه التبرير لكل حاكم؛ بل تتكيّف فعلاً مع

(١) - شرح ابن أبي الحديد قصة الشورى، ج ١ ص ١٤٤.

كل المتناقضات التي حدثت في التاريخ، ومبرراً ما حدث بين الصحابة من اختلافات وحروب، حتى أنه ساوى بين علي ومعاوية، والحسين ويزيد، ولم يستشعر بوجود أي فوارق بين الإسلام الذي يتبناه الإمام علي والحسين عليهما السلام، وبين الإسلام الذي يتبناه معاوية ويزيد؛ والنصوص كثيرة عند هذا الخط التي تركّز على قداسة الحاكم الذي يصل إلى مقاليد الحكم؛ إذ تعتبر من خرج عليه خرج عن الإسلام.

والخيار الآخر: هو الخيار المنطلق في فهمه للإسلام من واقع النص الدينيّ، القرآن وأحاديث النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، فلم يستمدّ وعيه من واقع التجربة، وبالنتيجة كان معارضاً لما هو موجود، فتمسك هذا الخيار بالقيادات التي دلت عليها النصوص، بوصفهم النخبة المسؤولة عن الرسالة وهمومها المستقبلية، وقد أعدهم الرسول صلى الله عليه وآله، وأشرف على تأهيلهم للقيام بهذا الدور، وبين فضلهم ومكانتهم للأُمّة، فطهرهم الله من الرجس دون غيرهم، وأوجب على الأُمّة مودّتهم.

هذه الخلفية العامة تقربنا من إيجاد فهم للاختلاف المعاصر حول الفكر السياسي الإسلامي، فالحركات الإسلامية التي انطلقت من خلفية سنية لا يمكنها طرح خيار للحكم الإسلامي خارج عن إطار إعادة مشروع الخلافة، وهذا ما تؤكده شعارات هذه الحركات وأدبياتها؛ وما تمّ إعلانه مؤخراً من دولة الخلافة في العراق والشام بإمرة البغدادي دليل صارخ على هذه الحقيقة.

أما التصور الشيعي المعاصر لا بد من أن يفهم ضمن ما يكون امتداداً للإمامة والولاية، ولذلك نجد حتى التركيبة الاجتماعية للشيعة تشكلت ضمن قاعدة الولاية، إذ يدين عامة الشيعة بالولاء للمرجعيات الدينيّة، ولا يعترفون بسلطة خارجة عن هذا الإطار، وقد حافظ الشيعة على هذا النظام حتى وهم محكومون بأنظمة مخالفة، فمن البديهي حينها أن يكون النظام السياسي المفترض على رأسه الفقهاء، وقد تم الاصطلاح على هذا النظام بـ(الولي الفقيه).

الحركات الإسلامية وهيمنة الرؤية السلفيّة:

أولاً لا بد من الإشارة إلى أن خيار الحكم الإسلامي وهو خيار لبعض تيارات الأمة، تعارفت باسم الحركات الإسلامية أو الإسلام السياسي، ونقصد هنا الحركات الأكثر اعتدالاً والأقرب إلى روح العصر، والتي كانت بدورها مقدمة للحركات المتطرفة التي خرجت من رحم هذه الحركات بعد أن رأت فيها حالة من النفاق والبراغماتية، وسنشير لها لاحقاً.

بدأ التنظير الحقيقي لهذا المشروع منذ جمال الدين الأفغاني، ومحمد عبده، وحسن البنا، وما أسفرت عنه تلك الجهود من تشكيل حركات إسلامية، تمثلت في الإخوان المسلمين وما شاكلها من حركات سياسية، وبرغم الحضور الواضح لهذه الحركات إلا أنها لا ترتقي إلى مستوى تمثل فيه الخيار السياسي لكل الأمة الإسلامية؛ لأن الغالب الأعم بعيد عن هذا الخيار الحركي، وحينئذٍ لم تتمكن هذه الحركات من إقناع الأمة بعد بضرورة هذا الخيار.

وما يؤكد على أن خيار الأمة كان بعيداً عن أي مشروع سياسي يسعى إلى تحقيق نظام إسلامي أن كل الحركات الإسلاميّة التي حظيت بفرصة ترشيح حرّ وديمقراطيّ، لم تتمكن من الوصول إلى السلطة عبر ترشيح الأمة، فالحركة الإسلامية في السودان عندما لم تتمكن من الاستفراد بالسلطة في انتخابات (١٩٨٦م)، عادت واستلمت السلطة بانقلاب عسكري (١٩٨٩م)، وما زالت مهيمنة على الوضع في السودان، وهكذا كل التجارب الديمقراطية في العالم الإسلامي مع قلة تلك التجارب إلا أنها لم تسفر عن وصول تيار إسلامي إلى السلطة واستمراره فيها، وما حققته حماس من فوز في انتخابات غزة لم يكن السبب وراءه هو اقتناع الفلسطينيين بسلطة إسلامية، وإنما كانت قناعتهم راجعة إلى مشروع حماس المقاوم للاحتلال الإسرائيليّ، والدليل على ذلك أن التنافس الانتخابيّ بين حماس وحركة التحرير لم يكن حول شكل الدولة ونظامها السياسي، وإنما كانت خيارات الشعب الفلسطيني بين حركة مقاومة وحركة يمكن أن تقود الشعب إلى حالة من التطبيع والتبعية الكاملة للكيان الإسرائيلي، أما الإسلاميون في تركيا فوصولهم إلى السلطة وإن كان عبر صناديق الاقتراع إلا أن المشروع لم

يكن مشروعاً إسلامياً للحكم والإدارة؛ ولذا لم يستطع النظام السياسي في تركيا تغيير النمط العلماني للدولة، وما حدث مؤخراً في مصر من وصول الإخوان إلى الحكم بنسبة لم تتجاوز ٥١٪ تمثل ثمار ثمانين سنة من الجهد المتواصل في الساحة المصرية، وبرغم ذلك لم تدم هذه التجربة طويلاً؛ إذ قامت عليهم ثورة كبرى استدعت تدخل الجيش.

وقد عجزت الحركات الإسلامية عن أقناع الساحة بخيار إسلامي في الحكم بحيث يصبح النظام الإسلامي خيار أمة كاملة؛ كالذي حدث في الثورة الإيرانية عندما طالب كل الشعب بنظام إسلامي تحت قيادة الإمام الخميني قدس سره، وقد نرجع هذا العجز إما لقصور في طرح هذه الحركات، وإما بسبب تفضيل الأمة للخيارات العلمانية، وحينئذٍ يحتاج الأمر إلى مراجعة شاملة تحاول التعرف على عقلية هذه الحركات ومن ثم مقارنتها مع عقلية الأمة.

والقصور الذي نصف به الحركة الإسلامية هو عدم قدرتها على تقديم تصور إسلامي يصح نسبته للإسلام، وفي الوقت ذاته يكون متناسباً مع روح العصر، والأمران كلاهما ضروري لإقناع الأمة بالخيار الإسلامي، فإذا تمكنت الحركات من تقديم تصور إسلامي أصيل حينها لا تجد الأمة خياراً للتمرد عليه بوصفها أمة مسلمة، كما أن الرؤية الحضارية المتناسبة مع روح العصر مقبولة من الأمة أيضاً؛ لأنها تحقق التفاعل المطلوب مع تطلعات وحاجات الناس الحياتية وهمومهم، أما أن تُطرح الحركات الإسلامية نفسها ممثلة عن النظام الإسلامي وهي فاقدة لهذه الرؤية حينها لا يمكن أن تكون في نظر الأمة إلا توجهات سياسية تستغل التعاطف الإسلامي؛ لتحقيق مكاسب خاصة فقط، وقد أصبح هذا التشكيك في نيات الحركات الإسلامية هو العامل الذي يهدد وجود هذه الحركات من الأساس.

وعجز المشروع الإسلامي السياسي عن تقديم وعي جديد للإسلام يتناسب مع الواقع الراهن، ليس من باب عجز العقلية المنظرة، أو التشكيك في المقدرة العلمية للقيادات الحركيّة، وإنما قصور تفرضه طبيعة الإسلام الموروث، فطالما أن الحركات تنظر إلى الإسلام من الزاوية التاريخية بوصفه رؤية مقدسة تم إنجازها في الماضي، لا يمكنها أن تتعاطى مع الواقع الراهن

بموضوعية تستوعب اشتراطاته الظرفية، فالنقطة الجوهرية التي يمكن أن تؤسس لقراءة جديدة هي تجاوز النظرة التقليدية التي تجعل الإسلام رهيناً لما أنتجه سلف الأمة، فالتصور الموجود والمتاح حتى أمام العقلية الحركية هو الإسلام الذي فهمه السلف الصالح، وهذا ما يصعب على الحركات أن تتجاوزه لأنه يشكل رِّدة حقيقية عن الإسلام الذي لا يتحقق له وجود بعيداً عن فهم السلف، ومن الواضح أن هذه الحركات لم تعمل على قراءة يمكن أن تخالف بها السلف، بل أسست كل مبانيها الثقافية على فهم السلف بحثاً عن الشرعية الدينية، وهنا تكمن المفارقة الجوهرية بين الإسلام الذي يؤسس له النص الديني وبين الإسلام الذي ينحصر التصور فيه على التجربة التاريخية.

فإذا كان الإسلام هو القرآن والسنة على فهم السلف الصالح، فلا يمكن حينها تحقيق أي فهم جديد يتجاوز هذا السقف المعرفي، وتحديد الفهم بـ(فهم السلف الصالح) ليس شرطاً معرفياً فرضته ظروف نقل الرسالة، وإنما مكون أساسي لحقيقة الإسلام ضمن هذا الفهم، فعدم الاعتراف به كفر بالدين من الأساس، وهنا تكمن الخطورة التي تحجب العقل المعاصر من القيام بأي دور إبداعي؛ بل يصبح الاتباع والتقليد هو السبيل الوحيد لتحقيق أي فهم للإسلام.

فطالما تجربة السلف هي المكون للفهم الديني، فالنتيجة هي الأساس لتحقيق الشرعية لأي عمل إسلامي، فليس هناك سبيل لتقديم تصور سياسي يتجاوز ما أنجز سابقاً، وهنا تكمن العقدة في المفارقة بين الإسلام بوصفه منجزاً تاريخياً وبين متغيرات الواقع وهموم العصر، وقد يُعتبر ذلك سبباً في استبعاد الخيار الإسلامي؛ بوصفه رجوعاً إلى الوراء، والتفاتة دائمة إلى الماضي، فكيف يمكن تكوين فهم يتناسب مع الواقع وقد هُمّش لصالح واقع تاريخي آخر، مما يؤدي إلى إهمال إنسان اليوم بكل خصوصياته الظرفية لصالح إنسان الماضي، ومن هنا يمكننا التأكيد على أن الحركات التكفيرية كانت أصدق في تمثيلها للإسلام السلفي من حركة الأخوان، فالتعامل مع الواقع بنظرة ماضوية ينتج مولوداً مشوّهاً، وهذا ما وقعت فيه الحركات المعتدلة عندما أرادت أن تكسب شرعيتها من السلف في الوقت الذي أرادت أن

تنفتح على العصر، فتحولت بذلك إلى حركة براغماتيّة بامتياز عندما احتفظت بالشعار فقط، ثم أوغلت في لعبة السياسية بكل ما يفرضه الواقع من ألاعيب، الأمر الذي قد يفسر لنا الأسباب التي أدّت إلى انشقاق بعض الجماعات عنهم؛ لأنها أرادت أن تتصالح مع الماضي فكفرت بالواقع.

وهذه الجدلية الفكرية التي تحاول إيجاد موازنة بين الماضي والحاضر هي التي تسبب إحراجاً كبيراً للحركات الإسلامية المعتدلة، فمن الواضح أن الإنسان يتحرك في إطار الظرف الزمني الذي يعيش فيه، الأمر الذي يجعله دوماً عرضة للتغير الدائم بسبب تبدل الظروف ومقتضيات الواقع؛ وبما أن المعرفة هي جزء من مكتسبات الإنسان، فهي حينئذ قابلة للتغير أو التشكّل ضمن أُطر جديدة تراعي المرحلة، وهذا ما لا يمكن تحقيقه ضمن الإسلام الذي جُمّد معرفياً على فهم السلف الصالح.

والمسلم في إبداعه المعرفي لا يستطيع أن يتجاوز الواقع الذي ساهم في تكوين ثقافته، فكيف يُطالب بالارتكاز على منجز تاريخي وُلِد في أجواء ثقافية لها مكتسباتها الظرفية الخاصة، فهناك فاصل معرفي بين الإنسان الحاضر والإنسان الأوّل ناتج عن اختلاف البنية الثقافية للزمنين، وإهمال هذه الخصوصيات شبيه بإعدام الواقع الراهن وتجاوز كل مكوناته، مما يؤدي إلى بروز تناقض حقيقي بين الإسلام التاريخي الذي أُريد له أن يتدخل في الشأن الحياتي وبين المسلم الذي لا يمكنه الانفكاك عن واقعه، وبذلك يمكننا تفسير البعد النفسي للأمة الذي يستبعد الإسلام السياسي عن واقع الحياة.

وبناءً على ما قدمنا من وصف فإن الإسلام الذي يمكن أن يجد موضع قدم في الساحة السنية هو الإسلام الذي يهتم بالجانب الفردي على مستوى العبادات، أو السلوك الأخلاقي والعلاقات الاجتماعية، وهو ذاته الإسلام الذي يحقق حضوراً واضحاً في الساحة اليوم، فالمساجد العامرة بالجمع والجماعات، ومظاهر شهر رمضان الكريم، وغيرها من الشعائر هو الإطار الذي تحافظ فيه الأمة على إسلامها، ولا يتجاوز الوعي الديني أكثر من هذه الحدود

ليس على مستوى العامة فحسب، وإنما حتى على مستوى الفقهاء والعلماء، وقد ساهمت المؤسسات العلمية والجامعات الإسلامية في تكريس هذا الفهم وتعميقه، والمتابع لعناوين المؤلفات التي أنتجها علماء الأمة منذ القدم وإلى الآن يجدها لا تتجاوز تحديد الإسلام ضمن هذا الفهم، إلا الشاذ النادر، فكيف والحال هذا أن نتفهم بروز حركات إسلامية معتدلة تنادي بالدولة الإسلامية؛ لأنها سرعان ما تصطدم بالواقع فتعمل على تكفيره وهجرانه.

لا بد إذاً من أن نعترف بوجود أزمة على مستوى الخطاب الإسلامي بنحوٍ عام وعلى مستوى الخطاب الحركي بنحوٍ خاص، وإذا لم يتمكن الخطاب من تفكيك مقولة (فهم السلف الصالح) لا يمكن تحقيق بناء جديد يُعاد فيه حضور الإسلام على مستوى الساحة السياسية، وكل ما نحتاجه في هذه المرحلة تعزيز ثقة الأمة بإمكانية فهم النص بعيداً عن هيمنة التراث، والبحث عن آليات منهجية جديدة تستنطق النص بما يتناسب مع المرحلة، الأمر الذي قد يقود إلى عدم الوقوف أمام التراث بوصفه حقيقة مقدّسة، وبالنتيجة زعزعة المفاهيم التقليدية التي تكلّست في نفسية الأمة، وهو ما يشكّل صعوبة حقيقة أمام هذا المشروع، الذي يسعى للنقد والتأسيس العقلائي وتكريس كل مفاهيم النهضة.

وغياب الحركة الإسلامية المعتدلة عن هذه الساحة المعرفية وهروبها عن نقد التجربة التاريخية فتح الطريق أمام نوعين من القراءة السياسية، الأولى القراءة التي تحاول التأسيس لأسلمة الخطاب العلمانيّ والليبراليّ، والأخرى هي القراءة التي تعتمد على الماضي ولا تعترف بالواقع الراهن.

وقد حاولت القراءة الأولى تقديم الإسلام بوصفه خطاباً علمانيًا حداثوياً من الأساس، وقد وظفت لهذه الغاية المناهج المعرفية الحديثة؛ ولاسيّما ما وصلت إليه المدارس الفلسفية الحداثوية من بنيوية، وتفكيكية، وهرمنيوطيقا، وغيرها للاستفادة منها لتقديم قراءة حديثة للإسلام تقوم على الاعتراف بالفهم الذي يحققه الأفق الثقافي الراهن، من دون الاعتراف بمعاني خاصة يحتفظ بها النص، فالمعالجة المقترحة للإسلام الذي يهمين عليه التراث من قبل

هذا المشروع لا تتم من خلال إنشاء نظام معرفي يقوم بعملية فرز التراث الإسلامي بين ما هو عقلائي وغير عقلائي، فلا تكتفي بإعادة ترتيب التراث وغربلته؛ لأنها لا تعترف بوجود معانٍ يمكن أن يحتفظ بها النص، حتى يمكن البحث عنها في تراث المسلمين، وإنما المعني هو الذي يتشكّل بناءً على الأفق الثقافي الذي تتحكم فيه المرحلة، وبالنتيجة غياب أي مفهوم خاص يمكن أن يحتفظ به الإسلام بوصفه ديناً، كما يقول أركون: «نجد ضمن هذا المنظور أن الإسلام لا يكتمل أبداً، بل ينبغي إعادة تحديده وتعريفه داخل كل سياق (اجتماعي - ثقافي) وفي كل مرحلة تاريخية معينة»(١)؛ ولا يتحقق التأسيس لهذه القراءة المنفتحة إلا بالارتكاز على النسبية التي لا تعترف بحقيقة مطلقة؛ لأن المعنى المطلق يتحول إلى حقيقة يجب أن يتوقف عندها العقل المسلم ولا يسمح له بتجاوزها، وهو ما يشكّل عائقاً أمام هذه القراءة، ومعالجة التراث بهذا المعنى لا يتوقف عند حدود التراث بوصفه الفهم الأول للنص، وإنما يتعدى تجربة تفسير النص إلى النص ذاته؛ إذ يغدو التراث المقصود هو الوحي سواء أكان نصاً قرآنياً، أم حديثاً نبوياً، أو كما يقول علي حرب: «نتخطى نقد التفاسير والشروحات إلى نقد الوحي نفسه»(٢).

وهذا ما يستبعد هذه المحاولة عن المشروع الإسلامي التجديدي؛ لأنها لا تسعى لإظهار حقيقة الإسلام، وإنما زعزعة تلك الحقيقة والقضاء نهائياً على وجودها، فأي معنى يبقى للإسلام عندما يجرد من أي معانٍ مطلقة يحتفظ بها، فمن الممكن القبول بكل هذه التصورات المتباينة عن حقيقة الإسلام بين المذاهب، ففي أقل تقدير يحتفظ كل مذهب بمعنًى محدد للإسلام يدّعي كونه حقاً، ولكن لا يمكن أبداً القول بأن ليس هناك تصور محدود للإسلام، إذ لا يختلف هذا القول عن القول: أن ليس هناك إسلام.

ولذلك نجد أن هذا المشروع لم يعترف حتى بالقراءة اليسارية للإسلام؛ لكونها تسعى لتحقيق فهم يتصف بالموضوعية والمعاصرة، فأي عمل تجديدي يصل إلى حقيقة محددة

(١) أركون محمد: الفكر الإسلامي قراءة علمية، المصدر السابق ص ٢٠.
(٢) حرب علي: نقد النص، ط١، بيروت لبنان، المركز الثقافي العربي، ١٩٩٣م، ص ٢٠٢.

للإسلام مرفوض، أو في الأقل يمثل تقييداً للعقلية المعاصرة، وبذلك يمكننا أن نفهم النقد الذي وجهه أبو زيد لمشروع اليسار الإسلامي، الذي يقوم على إيجاد حالة توافقية بين السلفية والعلمانية من خلال قراءة جديدة للتراث؛ «إذ يصبح تجديد التراث هو المعّبر عن اللحظة الحضارية الراهنة بوصفه طريقاً وسطاً بين السلفية بتوجهها الماضوي، وبين العلمانيّة بتوجهها المستقبلي»[1] ولكنّ أبا زيد يرى ذلك كله محاولات توفيقية أقرب إلى التلفيقية، تعالج أزمة الواقع بصورة نفعيّة بحتة بعيداً عن كل الشروط التي يفرضها المنهج المعرفي، أو كما يصفها «تضحية بالإبستمولوجي لحساب الإيديولوجي»[2].

ومناقشة هذا المشروع في هذا البحث يخرجنا عن الإطار المرسوم له، وهو الإشارة إلى حالة الضبابية في المشروع الإسلامي المعاصر.

أما القراءة الأخرى التي يصطلح عليها بالسلفية الجهادية والتي تنتمي لها مجموعة من الحركات المعاصرة؛ مثل: القاعدة وداعش وغيرها، فإن هذه التنظيمات تمثل الامتداد الطبيعي للحركات التكفيرية التي خرجت من عباءة الاخوان المسلمين؛ ولاسيما بعد الملاحقة السياسية التي طالت قيادات الحركة بالسجن والإعدام، فما تعرضوا له من تعذيب وعدم اهتمام الشارع الإسلامي بهم ولّد حالة نفسية حاقدة على المجتمع؛ ولذا بدأ يتشكّل وعي جديد لا يكتفي بتحميل الحكومات المسؤولية وإنما تحميلها لكل المجتمع، وهكذا نستطيع أن نتفهم التغيرات التي حصلت لفكر سيد قطب من تفكير معتدل إلى تفكير يكفّر المجتمع، كما ظهر ذلك في كتاباته مثل (معالم في الطريق)، وتفسيره (في ظلال القرآن) الذي أجرى عليه تعديلات في طبعته الثانية، وهنا أشير إلى نموذج يكشف عن نزعة (سيد قطب) إلى التكفير يقول: «لقد استدار الزمان كهيئته يوم جاء هذا الدين إلى البشرية؛ وعادت البشرية إلى مثل الموقف الذي كانت فيه يوم تنزل هذا القرآن على رسول الله - صلى الله عليه [وآله] وسلم- فقد ارتدّت البشرية إلى عبادة العباد، وإلى جور الأديان، ونكصت عن لا إله إلا الله؛ وإن ظلّ

(١) أبو زيد نصر حامد: نقد الخطاب الديني، ط ١، القاهرة، سيناء للنشر، ١٩٩٢م، ص ١٣٠.
(٢) المصدر السابق: ص ١٣٥.

فريق منها يردد على المآذن: لا إله إلا الله»[1]؛ وقد بدأ بعض الشباب في السجون بالتأثر بهذا النمط الجديد من التفكير فولّد حركات أكثر تطرفاً، وما يهمنا في هذا البحث هو التأكيد على أن هذه الحركات لا تحمل تصوراً لحكم الإسلام خارج عن إطار الخلافة الإسلامية بوصفه منجزاً تاريخياً؛ ومن هنا نتفهّم تكفيرهم لكل أشكال السياسة الحديثة؛ لأنها لا تنسجم مع الموروث التاريخي.

والمعالجة المطلوبة هنا لهذه الظاهرة ضمن ما تقدّم من وصف هي معالجة عقائدية ثقافية، والطريق الأقرب لتحقيقها ليس إقناعهم بعدم قداسة تلك التجربة التاريخية، أو بكون الإسلام يحترم العقل الذي لا يمكن فصله عن فهم الإسلام، كل هذا مطلوب؛ ولكن الطريق الأقرب هو الرجوع بهم إلى الوعي القشري للإسلام كما هو حال عامة الأمة، والتركيز على فهم الإسلام في الإطار الشخصي الذي لا يتجاوز العبادات وبعض السلوكيات، والاستعانة في ذلك بكل النصوص التي تحرم الخروج على الحاكم حتى وإن كان ظالماً، هذا الفهم هو الذي حقق تفاهماً بين المؤسسة الدينية في الجزيرة العربية والنظام الحاكم، فالإنسان السلفي إذا تحدّث عن السياسة فمشروعه الوحيد الذي ينسجم مع قناعاته التاريخية هو دولة الخلافة وتكفير ما هو موجود من أنظمة، وقد عملت أجهزة الدولة في الجزيرة العربية بهذه السياسة مع الجماعات الإرهابية التي وقعت تحت قبضتها، فابتكروا مشروع المراجعات الديني، وفتحوا نقاشاً واسعاً مع الشباب الجهادي في السجون حتى يتم إرجاعهم للفهم السائد المتصالح مع الأنظمة.

الحركة الإسلامية والتصور السياسي للحكم:

لا يمكن الجزم بوجود تصور واضح المعالم لنظام الحكم الإسلامي الذي تنادي به الحركات الإسلامية خارج حدود الشعار والدعوة إلى حكم الله، فالحركات الأكثر واقعية لم تتميز في الشكل السياسي عن الأحزاب الأخرى إلا في إطار تبنيها لشعار الإسلام، أما في ما

(١) سيد قطب في ظلال القرآن: ج ٢ ص ١٠٥٧.

يخص نظام الحكم، والهيكلية الإدارية، وكيفية الوصول إلى السلطة وشرعية الحاكم فهي تمارس السياسة كما يمارسها الآخرون، وهناك نوع آخر من الحركات التي توصف بكونها خارجة عن إطار الواقع؛ مثل: حزب التحرير الذي يعمل على إعادة الخلافة الإسلامية في إطار دولة واحدة تشمل كل العالم الإسلامي، فلا يؤمن هذا الحزب بالدولة القطرية حتى ولو كان على سبيل الخطوة التكتيكية كما يؤمن الإخوان، والرؤية السياسية للحكم الإسلامي؛ إذ يعمل هذا الحزب للترويج لها، وتقوم هذه الرؤية على وجود خليفة واحد لكل العالم الإسلامي، يسمى بالأمير، ويتم انتخابه بالشورى من بين قيادات الحزب، أما بقية المناصب في الدولة فهي مستمدة من تجربة الخلافة التاريخية، ويرفض هذا الحزب كل الأدوات السياسية الحديثة التي تعتمد على الديمقراطية، وقد أصدر كتاب بعنوان (الديمقراطية نظام كفر، يحرم أخذها، أو تطبيقها، أو الدعوة إليها)، أما الحركات الجهادية من أمثال (داعش)، والقاعدة، فإنها لم تقدّم أي تصور للحكومة الإسلامية، وخير شاهد على فشل هذه الحركات هو عدم تمكنها من تقديم نموذج للحكم الإسلامي برغم الفرص التي أُتيحت لها كما هو الحال في تجربة طالبان أفغانستان، وتجربة الحكم الإسلامي في السودان، ومؤخرًا تجربة الإخوان في مصر.

أما داخل الدائرة الإسلامية الشيعية، فسوف نقوم بتناولها ضمن زاوية خاصة نشير فيها إلى تجربة الدولة الإسلامية في إيران؛ بوصفها تجربة إسلامية في الحكم ما زالت معاصرة، فقد تتمكن الحركات الإسلامية الشيعية من تجاوز كثير من إشكالات الحركة السنية؛ ولكن قد تبتلى بإشكالات خاصة نتطرق إليها في حينها.

المهم إن حركة الإخوان المسلمين بوصفها أصلاً للحركات الإسلامية السنية، وبوصفها حركة راسخة في الواقع الإسلامي، وصاحبة السبق في التنظير للدولة الإسلامية، لم تنجز لنا تصوراً لنظام الحكم في الإسلام، يتصف بالأصالة ويتناسب مع الواقع؛ لأنها حركة في النهاية سلفية بامتياز تتحرك في دائرة ما أنجزه السلف، وبرغم أنها تعيش في الحاضر بكل تعقيداته ومتطلباته إلا أنها تفكر بعقلية الماضي.

وفي تجربة السودان عندما حاول الدكتور الترابي الخروج من دائرة تلك الهيمنة التاريخية، بطرح مفاهيم جديدة تخالف السلف كُفّر من بعض الجماعات، وأُبعد، وفُصل من حركة الإخوان الأم، مع أن حركة الترابي تعد خطوة جريئة من وسط الإخوان لعصرنة الخطاب الحركي، إلا أن العقلية السلفية للإخوان لم تستطع أن تستوعب تلك النقلة؛ لأن الإسلام في نظرها تواصل دائم مع الماضي والانفتاح على الحاضر يتسبب في إضعاف تلك الصلة، وبرغم محاولة الترابي لإعطاء منظور جديد للحركة الإسلامية إلا أنها تظل تجربة قاصرة في بعدها المنهجي الذي تجاوز حتى النصّ أحياناً، وفي بعدها المعرفي الذي حوّل كل الثوابت إلى متغيرات، مضافاً إلى بعدها التطبيقيّ كما أثبتت التجربة في السودان، عندما تحولت إلى حركة نفعيّة بامتياز.

ولا يمكن أن نتوقع من حركة ترتكز على منهج سلفي أن تتفاعل بالمستوى المطلوب مع الواقع، إلا في الدائرة النفعية التي تستغل العواطف الدينية، وقد تنجح تلك الحركات على مستوى المعارضة، لما يحتويه الإسلام من عناصر تعبوية تفتقدها الحركات السياسية الأخرى، وقد صارع الإخوان المسلمين كثيراً من الحكومات في المنطقة، وقد شكّلوا قلقاً حقيقياً لتلك الأنظمة، كما خرجت من بينهم؛ ولاسيّما من كتابات سيد قطب جماعات تكفيرية جهادية استخدمت العنف في كثير من البلاد الإسلامية، وتحولت الحركة الإسلامية بذلك إلى مشكلة عالمية تهدد الأمن العالمي، وفي أقل تقدير في نظر النظام السياسي العالمي، ومن هنا يمكننا القول: إن الحركات السلفية لم تساهم في علاج أزمة الواقع؛ بل قد أضافت تعقيدات الماضي للحاضر.

والنظام السياسي ضمن السقف السلفي، يقطع الطريق أمام أي حالة إبداعية تحاول استنطاق النصوص، وتقديم تصور سياسي يتناسب مع المرحلة؛ لأن تجربة الخلفاء، أو حتى الدولة الأموية والعباسية تشكل خيارات محدودة لا يمكن إعادة إنتاجها من جديد، ولما كانت تلك التجربة تمثل صورة مقدسة للحركات فلا يمكن أن تتوقع منها أي جديد؛ لأن الدين الذي تتبناه الأمة هو الدين الذي أنتجته تلك التجربة، وحينئذٍ غير مسموح لأي إنسان

أن يتناول تلك التجربة بالنقد والتجريح، وهنا تكمن أزمة هذه الحركات، التي تحاول أن تنتقد الواقع الراهن، ولا تسمح لنفسها أن تنتقد النظم السياسية التي حكمت بعد الرسول.

وقد حدث لي في أثناء دارستي في الجامعة بعض المواقف الطريفة عندما يشتد الصراع السياسي داخل الجامعة بين أنصار الحركة الإسلامية وبقية التيارات، فكان من جملة الاعتراضات التي قدمت في أحد النقاشات على جماعة الترابي، في محاولة لإثبات أنها جماعة لا تمثل الإسلام بالقول أنها تستخدم العنف وتحمل العصي والحديد على بقية التيارات المنافسة، وهذا ليس من الإسلام، فضلاً عن أنها احتكرت كل موارد الدولة لصالح التنظيم، فتدخلت في الحوار بالقول: إن كان حمل العصي مخالفة شرعية، فقد حمل الصحابة على بعضهم السيوف في معارك دموية راح ضحيتها الألوف من حرب الجمل، وصفين، والنهروان، وغيرها من الحروب، وإن كان احتكار المال لجماعة التنظيم مخالفة إسلامية فقد أحتكر الخليفة الثالث كل مقدرات الدولة الإسلامية لصالح بني أمية، فإذا كان ما تقوم به الحركة الإسلامية لا يمثّل الإسلام، فكذلك ما قام به بعض الصحابة والخلفاء لا يمثل الإسلام، هذه الملاحظة تكشف عن عمق المفارقة بين حركة تريد استبدال واقع بواقع آخر أكثر تناقضاً منه، وأكبر إحراجاً يمكن أن تواجه به الحركة الإسلامية ذات الغطاء السلفيّ هو إخراجها من طور المعارضة وفتح الطريق أمامها لتحكم.

فلم يشهد التاريخ الإسلامي أزمة حقيقية أكثر من أزمة الحكم، وما سُلّ سيف في الإسلام كما سُلّ في الإمامة، مما يعني أن مفهوم الدولة الإسلامية وشخصية الحاكم من المفاهيم الغامضة جداً في الإسلام السلفي، وهنا يمكن أن نشير إلى مفارقة جوهرية بين الإسلام السلفي والإسلام الشيعي، فمفهوم القيادة السياسية عند الشيعة أكثر وضوحاً من بقية المدارس الإسلامية، فقد حسموا أمرهم بالقول: إن تأسيس حكومة دينية تحكم باسم الله، لا تكون إلا بمن يتدخل الله في تعيينه وتنصيبه، وأصبحت الإمامة بهذا المفهوم عقيدة دينية تضاف إلى بقية العقائد، وبعيداً عن صحة هذه الفكرة إلا أنها تمثل وضوحاً في الرؤية لهذا التيار، وعلى أساسها بنى كل تصوراته المعرفية والسياسية، التي تنتهي في العصر الحاضر

بزعامة الحوزة ومراجع الدين، وهو الإطار الطبيعي الذي يمكن أن نصنف فيه الإنسان بأن كل خياراته إسلامية، ولا تتوقف الرؤية عندهم عند هذا الحد، وإنما خياراتهم الاستراتيجية في تأسيس حكومة إسلامية تمثل إرادة الله، هي بظهور الإمام المهدي ﷺ، وهو الإمام الثاني عشر الذي سوف يملأ الأرض قسطاً وعدلاً.

الدولة الإسلامية في التصور الشيعي:

أهم ما يمتاز به النظام المعرفي عند الشيعة هو استمرار باب الاجتهاد مما يعني الاعتراف بالواقع المتجدد في كل الصعد والمجالات، وأكثر العناوين التي تخلق استفزازاً معرفياً أمام العقل الإسلامي هو الوضع السياسي، وكيفية إدارة المجتمعات وفقاً لرؤية الشرع، ومن هنا كان هذا هو التحدي الذي يقف خلف المشروع التجديدي للفكر الشيعي الذي عمل على إيجاد قراءة ناضجة ومتجددة تستوعب آفاق الحاضر، وقد يجد المتابع للوسط الثقافي الشيعي ملامح ذلك الحراك الحضاري سواءً على مستوى الواقع النظري أم العملي، فالتجربة السياسية الناجحة في إيران على المستوى التخطيط الاستراتيجي العام كانت نتاجاً طبيعياً لفكر إسلامي أصيل ومنفتح على تعقيدات الواقع، وأنا هنا لا أقصد ملامح الصمود الذي أبداه القادة السياسيون في إيران تجاه التحديات الصعبة والمعقدة منذ ولادة الجمهورية الإسلامية، برغم أن ذلك الصمود يكشف عن خلفية عقائدية صلبة مؤمنة وواعية بخياراتها، ولكنني أتجاوز ذلك لأتحدث عن التجربة الحضارية للفكر الشيعي، فنظرياً قد تجاوزت المؤسسة الشيعية حالة الجمود المهيمن على الفكر الإسلامي، والتخلف الذي يعيشه الخطاب الديني عند الآخر، وأقصد بالآخر هنا الفكر الذي تهيمن عليه الرؤية التاريخية ضمن التصور السلفي الذي حدد الوعي وفقاً للظرف الذي عاش فيه الرعيل الأول، وقد تجاهل هذا الخطاب كل معطيات الواقع الراهن الذي يفرض شروطاً معرفية ذات مكتسبات خاصة، فالمسلم في إبداعه المعرفي لا يستطيع أن يتجاوز الواقع الذي ساهم في تكوين ثقافته.

وفي الوقت نفسه هو مطالب بالارتكاز على نص تاريخي وُلد في أجواء ثقافية لها مكتسباتها الظرفية الخاصة؛ فهناك فاصل معرفي بين الإنسان الحاضر والإنسان الأول الذي راعى في النص خصوصياته الثقافية، ممّا يجعل العلاقة بينهما علاقة ذات طابع جدلي، لا يمكن الاستغناء عن أحدهما أو ترجيحه، خشية أن يؤدي ذلك إلى تجاهل حقيقة (تاريخية الإنسان) سواءً كان في زمن نزول الوحي أم بعده؛ ومن هنا نجد أن الفكر الشيعي التزم بقراءة للنص الديني تحافظ على المحتوى المعرفي الخاص بالنص، وفي الوقت نفسه تراعي الظرف البشري في إبداعه الفكري.

ومن هنا يمكننا أن نقول:

إن البعد الحضاري في الفكر الشيعي يتجلى في تحقيق قراءة جديدة تستوعب قيم الدين وثوابته، وفي الوقت ذاته تنفتح على الواقع بكل تعقيداته؛ من أجل خلق موازنة بين النص الديني المستوعب لتلك القيم وبين الواقع المتغير؛ ولذا نجد أن هذا الفكر قد فرّق بين ما هو ثابت وما هو متغير في الفكر الديني، وأن المتغير هو المساحة التي نتقاطع فيها مع الآخرين ونتكامل بهم، فضلاً عن أنه الحقل الذي ينشط فيه العقل بكل مكوناته، أما الثوابت فهي تلك القيم القابلة للانطباق على كل متغيرات الواقع، وبهذا نتجاوز مشكلتنا مع الآخر مما يقلل من سلبيات المنافسة، ففي الوقت الذي نفتح فيه الفرصة للجميع نطالبهم بالالتزام بتلك القيم، ومن هنا لا يمكننا القول بوجود نظام حكم إسلامي خاص ورثته الأمة من الماضي، وإنما هناك محددات قيمية ترسم الإطار العام لحركة المسلم، ومن ثم يفتح الباب امام العقل لكي يبدع بحسب الظرف الذي يعيشه، فأي نظام أو شكل إداري يكون هو الأنسب لفتح الطريق أمام هذه القيم؛ لتصبح واقعاً ملموساً فهو خيار إسلامي يجب التمسك به.

يتضح من ذلك أن التأسيس النظري للحكم الإسلامي عند الشيعة يقوم على إيجاد رقابة مشتركة بين الأمة وقيادة الفقيه على منظومة القيم الإسلامية، فإذا حادت الأمة عن هذه القيم أرجعها الفقيه إليها من جديد، وإذا حاد الفقيه عنها أرجعته الأمة عبر مجلس الخبراء، أما على المستوى العملي فهناك تجربتان يمكن للباحث دراستهما، التجربة الأولى على مستوى الدولة،

والأخرى على مستوى العمل الحركي المنظم، أما الأولى فهي تجربة الحكم المتمثلة في الجمهورية الإسلامية الإيرانية؛ تلك التجربة التي ولدت ونمت في وقت بلغ قمة التعقيدات السياسية، والاقتصادية، والحضارية بنحوٍ عام، والمتابع لظروف تشكل تلك التجربة لا يمكن أن يكون متفائلاً بنجاح تلك التجربة واستمراريتها؛ نتيجةً للمؤامرات التي حيكت، والحرب التي فرضت، والحصار الذي مازال يلاحقها، ففي الوقت الذي تصور فيه العالم على أن أصحاب العمائم (الملالي) لا يمكنهم أن يصنعوا دولة، كان أصحاب التجربة يعملون بجد على تثبيت معالم تلك التجربة حتى أصبحت إيران الحالية تلك القوة الإقليمية، وأصبحت تلك العمائم تجوب الأرض شرقاً وغرباً؛ ليتفاوض العالم معها في إنجازاتها التكنلوجية، ناهيك عن موقعها السياسي المؤثر والفعال في الساحة الدولية، مع احتفاظها بمبادئ الدولة الإسلامية، وأنا هنا لا أحاول أن أعرض تلك الإنجازات السياسية، والاقتصادية، والعلمية بقدر ما أحاول الإشارة إلى أن الفكر الشيعي له خصوصيته الحضارية القادرة على تقديم الإسلام بصفة خيار حضاري يمكن أن ينافس كل الأنظمة البديلة، وليس على المستوى الإداري أو الشكلي فحسب؛ وإنما على مستوى المحتوى الذي يعبر عن قيم الإسلام من نصرة المستضعفين والمحرومين، ونجدتهم، والوقوف مع المظلوم أينما كان، ولو تخلت إيران عن القضايا المصيرية للأمة لكان بإمكانها أن تصبح في مصاف الدول الأوربية في المستوى المدني والاقتصادي.

أما النموذج الآخر الذي يختص بنظام العمل الحركي عند الشيعة فيمكن تقييم تجربة حزب الله بوصفه حزباً أصبح له واقع مهم في الساحة الدولية، فقد تمكنت هذه الحركة من إدارة أعقد الملفات في تاريخ الأمة الإسلامية بكفاءة عالية، وحكمة متناهية، ومهنية عالية، وهو ملف الصراع مع إسرائيل، ولا أقصد هنا الانتصارات التي جلجلت العالم فحسب، وإنما أشير إلى الخلفية الدينية والثقافية التي بنت ذلك الكيان بصفته نموذجاً للوعي الناضج الذي يختزن بصائر الوحي ومسؤوليات الواقع، فقوة حزب الله ليست في الجانب العسكري فحسب؛ بل في مقدراته الحضارية التي تنعكس في سياساته ومواقفه التي تعبر عن قيم الدين

من الصدق والوفاء والعطاء والتضحية والمسؤولية والأمانة، ولكل قيمة من هذه القيم وغيرها مصاديق من واقع حزب الله تعزز وتركز على الخطاب الإسلامي الناضج في الفكر الشيعي.

أسس البنية التربويّة للجماعات التكفيريّة

أسس البنية التربويّة للجماعات التكفيريّة

السيد عبد المطلب رضا الموسوي*

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ (٢٠٤) وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾[1].

لا نبالغ إذا قلنا: إن الخطر الأكبر الذي تعاني منه البشرية منذ حطّت أقدامها على ظهر هذا الكوكب إلى يومها هذا هو خطر الخداع والتلبيس...، وذلك بأن يعرض عليها الباطل بلباس الحق...، فتُخدع وتَضِل طريقها، فتقع في الباطل باسم الحق...؛ ولذلك إن درْس الحذر من هذا التضليل أهم درس كان على آدم أن يتّقنه في جنته التعليمية قبل أن يهبط إلى الأرض...، وذلك عندما جاءه عدوُّ الإنسانية بهيئة الناصح المشفق، وأغراه بالأكل من شجرة الشقاء والهبوط واصفاً إياها بشجرة الخلود والملك قائلاً: ﴿يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾[2]

وبعد الهبوط إلى الأرض جاء التحذير إلهاماً إلى بني آدم أن لا يكرروا ما حصل لأبيهم من الوقوع في فخ التدليس، وأن يأخذوا الدروس والعبر مما تعلمه أبوهم في مدرسته التي

* باحث إسلامي حوزة النجف الأشرف.

(١) البقرة: ٢٠٤-٢٠٥ .

(٢) سورة طه: ١٢٠.

دخلها قبل الهبوط إلى الأرض؛ كي يتعرفوا فيها أساليب الشياطين في إضلال الإنسان، وخداعه، وحرمانه من النعيم الحقيقي، ودفعه نحو الشقاء...؛ قال تعالى: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ ﴾(١).

الإنسان كائن مفكّر:

والسبب في ضلال الإنسان ووقوعه في الباطل باسم الحق... أن الإنسان يتحرك في أفعاله ومواقفه تبعاً لفكره الشخصي وإدراكه...، وبهذا يتميز عن سائر المخلوقات التي تتحرك بالإلهام الغريزي الثابت، والفكر والإدراك يتبع كيفية استثمار الإنسان نعمة العقل التي وهبها الله سبحانه له...، فإذا سارت عملية التعقل والتفكر في الاتجاه الصحيح فإنها تنتج علماً، وإدراكاً مطابقاً للواقع والحق، وإذا انحرفت عن الطريق السليم فإنها تجعل الإنسان يدرك شيئاً يتصوره حقاً نافعاً، وهو ليس كذلك، فيبقى عمره راكضاً خلف السراب، وهو يظن أنه الماء الزلال.

وهناك عوامل عديدة تؤثر في إنتاج الإدراك الصحيح أو العلم النافع...؛ ولكن العامل الأساسي هو النظام التعليمي والتربوي الذي يخضع له الإنسان في حياته...، فللإنسان حاجات ونزعات متعددة مغروسة في فطرته ...، ولديه استعدادات وقابليات كامنة تنتظر التفعيل والظهور...، والتعليم والتربية هما العاملان الأساسيان في تحقيق الإشباع الحقيقي للإنسان وتطوير استعداداته...

وحول هذا يقول المفكر الشهيد مرتضى مطهري قدس سره: إن هناك خمسة أنواع من الاستعدادات الروحية عند الإنسان وهي:

١- الاستعداد العقلي (العلم والبحث عن الحقيقة).

٢- الاستعداد الأخلاقي (الوجدان الأخلاقي) وأن الإنسان قد أودع في فطرته حب

---

(١) سورة الأعراف: ٢٧.

الآخرين، والشعور بالألم الوجداني، ووخزة الضمير إذا صدر منه ما يؤذي الآخرين.

٣- الاستعداد الديني ويعبر عنه بحسي التقديس والتعبد.

٤- حب الفن والجمال.

٥- استعداد الإبداع، وحب الاختراع والتجديد[1].

الدور التعليمي والتربوي للأنبياء:

ومهمة الأنبياء والرسل هي تعليم الإنسان المنهج الإلهي لسعادة الإنسان والرؤية الكونية الإلهية، وكذلك تربية الإنسان على تفعيل استعداداته وتنميتها، وإشباع حاجاته الحقيقة بنحو متعادل وكامل بتطبيق المنهج الإلهي وفقاً للرؤية الإلهية للكون، والإنسان، والحياة...، وقد بين القرآن الكريم هذين الدورين للرسول الأكرم ﷺ في آيات متعددة منها:

﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾[2].

﴿ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾[3].

﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾[4].

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾[5].

---

(١) عن كتاب التربية والتعليم في الإسلام باللغة الفارسية، المفكر الشهيد مرتضى مطهريّ: ص٤٩-٥١
(٢) آل عمران: أية ١٦٤.
(٣) الأعراف: ١٥٧ .
(٤) الأحزاب: ٢١.
(٥) آل عمران: ١٥٩.

﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾[١].

وإذا عرفنا التعليم بأنه عملية إلقاء المعلومات، وتجميعها، وتخزينها في ذهن المتعلم، والتربية بمعنى ترقية الاستعدادات المختلفة للمتربي وتنميتها وتفعيلها، فإننا إذا نظرنا إلى هذه الآيات الكريمة نرى أن القرآن أولى جانب التربية أهمية أكبر من جانب التعليم .

فأدوار التزكية، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتحليل الطيبات، وتحريم الخبائث، ووضع الأصر والأغلال عن الأمة، ودور الأسوة، والتطهير، والصلاة على الأمة كلها أدوار تربوية يقوم بها النبي للأمة...

وعملية التعليم ضرورية وأساسية؛ ولكنها تبقى عديمة الفائدة إن لم تقترن وتكتمل بعملية التربية، وإذا أردنا أن نشبه المعقول بالمحسوس؛ فإن مثل التعليم كتجميع مواد البناء لأجل تشييد عمارة، ومثل التربية مثل عملية البناء، وترتيب مواد البناء بنحو معتدل، ومتوازن، ومنسجم حتى تصبح عمارة أو داراً صالحة وآمنة...

وكما أن بناء العمارة الصالحة والمطابقة للمعايير الهندسية يحتاج إلى موادّ بناء صالحة، وإلى مهندس صالح، وخارطة، وطريقة بناء صالحة... كذلك يحتاج بناء المجتمع الإنساني وفقاً للمنهج الإلهي إلى نظام تعليمي وتربوي صالح ...

يقول المفكر الشهيد مرتضى مطهري:

«كمال الإنسان في الاعتدال والتوازن، وذلك بأن تنمو استعداداته، وقابلياته الروحية والعقلية بنحو متوازنٍ ومنسجم، وذلك بأن لا يغلّب واحدة أو مجموعة من القيم الروحية والعبادية وينميها على الحساب القيم الأخرى»[٢].

---

(١) التوبة: ١٠٣.

(٢) الإنسان الكامل مطهريّ: ص٤١ .

ظاهرة التكفير ثمرة الفكر الديني المنحرف:

ومن هنا تستطيع كشف جذور ظواهر التخلف والانحطاط التي مُنيت بها الأمة الإسلامية في كثير من الصعد ... ولاسيّما ظاهرة التكفير الديني الذي تحول أخيراً من اللعن، والتفسيق إلى التوحش والضراوة الدينية، وإلى التلذذ بقتل المخالف وإبادته؛ بل وحتى غير الموافق أيضاً...

فهذه الظاهرة ماهي إلا سرطان ثقافي نشأ من طعام فكري، ملوث، مسموم، ونظام تعليمي، وتربوي منحرف تعود جذوره إلى تيارات سياسية وفكرية سيطرت على المسيرة الثقافية للأمة منذ أن قامت بتنحية قادتها الحقيقيين.

وفي هذه المقالة نحاول أن نضع الأنامل على معالم الانحراف في الأنظمة التعليمية والتربوية للجماعات التكفيرية؛ ليتضح للقارئ الكريم البعد الهائل بين الدين التكفيري لهؤلاء الظلاميين الشذّاذ، والإسلام الحقيقي الذي يرتوي علمه وتربيته من المنهل العذب الزلال للثقلين كتاب الله والنبي ﷺ وعترته الأطهار عليهم السلام.

الأول: إلغاء التنمية العقلية

إن المتابع لأفكار المذهب السلفي الذي ظهر أخيراً وتبلور على شكل مجموعات تقدّس رأيها وعقيدتها إلى حدٍّ تكفير من يخالفه، واستباحة دمه...؛ إن هؤلاء يبعدون الدليل العقلي ويعتمدون على النصوص وسيرة السلف والصحابة لا في الأحكام فحسب بل حتى في العقائد الإلهية ...

وقد ألّف ابن تيمية - الذي يعتبر القائد المؤسس والأب الأكبر للمذهب السلفي الوهابي- كتاباً سماه (نقض المنطق) هاجم فيه المتكلمين، والفلاسفة، والمناطقة، ويقول فيه: «إن الفلاسفة والمتكلمين من أعظم بني آدم قولاً للباطل، وتكذيباً للحق في مسائلهم ودلائلهم لا تكاد - والله اعلم - تخلو مسألة واحدة من ذلك»[1].

---

(١) نقض المنطق ابن تيمية: ص٢٤ .

وفي مقدمة هذا الكتاب يمتدح الصحابة والتابعين؛ لأنهم يؤمنون بما ورد في النصوص الدينية حتى ولو لم يفهموها، ولقوة إيمانهم فإنهم لا يسألون عنها فيقول في مدحهم: «وعلموا أن المتكلم بها صادق لاشك في صدقه فصدقوه، ولم يعلموا حقيقة معناها فسكتوا عما لم يعلموا، وأخذ بذلك الآخر عن الأول، ووصى بعضهم بعضاً بحسن الاتباع والوقوف حيث وقف أولهم، وحذروا من التجاوز لهم، والعدول عن طريقهم» إلى أن يقول: «وبلغ من مبالغتهم في السكوت عن هذا أنهم كانوا إذا رأوا من يسأل عن المتشابه بالغوا في كفّه تارة بالقول العنيف، وتارة بالضرب، وتارة بالإعراض الدال على شدة الكراهة لمسألته».

ويستدل ابن تيمية على مقولته هذه بموقف ينسبه إلى الخليفة الثاني عمر بن الخطاب فيقول: «ولذلك لمّا بلغ عمر أن صبياً يسأل عن المتشابه أعدّ له عراجين النخل فبينا عمر يخطب قام فسأله عن (الذاريات ذرواً فالحاملات وقراً) وما بعدها فنزل عمر؛ فقال: لو وجدتك محلوقاً لضربت الذي فيه عيناك بالسيف، ثم أمر به فضُرب ضرباً شديداً، وبعث به إلى البصرة، وأمرهم أن لا يجالسوه فكان بها كالبعير الأجرب».

ويستدل أيضاً بموقف يذكره للإمام مالك فيقول: «ولما سُئل مالك عن قول الله: ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾ كيف استوى فأطرق مالك وعلاه العرق وانتظر القوم جوابه فرفع رأسه الى السائل وقال: الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال بدعة، وأحسبك رجل سوء، وأمر به فأُخرج»![1].

كما ألف ابن تيمية كتاباً حول عدم تعارض العقل مع النقل، ولو كان سماه (تبعية العقل للنقل) لكان أصدق، وفيه اعتمد على ظواهر النصوص، واعتبرها أدلّة قطعية على معرفة الدين، وهاجم كل من يرى تأويل بعض الظواهر التي تخالف الأدلة العقلية كي تنسجم مع العقل...، واعتبر ذلك بدعة، فهو مثلاً يهاجم الذين يستدلون بالأدلة العقلية على صفات الله

(١) نقض المنطق ابن تيمية: ص٢-٣.

ويقول: «وهذه الطريقة هي التي سلكها من وافق المعتزلة في ذلك كصاحب الإرشاد وأتباعه، وهؤلاء يردّون دلالة الكتاب والسنة، تارة يصرحون بأننا وإن علمنا مراد الرسول ولكن دلالة كلام الرسول متوقف على ثبوت صدقه المتوقف على مسائل الصفات، وتارة يقولون: إنما لم يدل لأنا لا نعلم مراده، لتطرق الاحتمالات إلى الأدلة السمعية، وتارة يطعنون في الأخبار، فهذه الطرق الثلاث وافقوا فيها الجهمية ونحوهم من المبتدعة، واسقطوا حرمة الكتاب والرسول عندهم، وحرمة الصحابة، والتابعين لهم بإحسان، ولهم كلام يوافقون به الرافضة ونحوهم من أهل البدع، ويخالفون به الكتاب والسنة والإجماع» إلى أن يقول: «وكلامهم فيه من التناقض والفساد ما ضارعوا به أهل الإلحاد، فهم من جنس الرافضة لاعقل صريح، ولا نقل صحيح»[1].

ويقول مؤيداً رأي الأشعرية وأصحابهم: «إن الشرع هو الذي يعتمد عليه في أصول الدين، والعقل عاضد له معاون»[2].

وهذه الطريقة تؤدي إلى توقف التنمية العقلية، وتحول دون تحصيل المعرفة الدينية الصحيحة، وهي مخالفة تماماً لمنهج القرآن الكريم في الإيمان بالأصول والمعارف الدينية... إذ إن آيات القرآن الكريم تدعو إلى التعقل، والتدبر، والتفكر، وإن أهل الإيمان هم أولو الألباب؛ أي أصحاب العقول، وأن القرآن قد نزل لأجل التدبر في آياته، واستعمال العقول لفهمه، وإلا فهي مقفلة لا تدرك القرآن ...،﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[3]، ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾[4].

والآيات القرآنية التي تصرح بأن الإيمان لا يحصل بقراءة النص الديني فحسب، وإنما يحصل لأولى الألباب، أو لقوم يتفكرون، أو لقوم يعقلون، كل هذه الآيات التي تزيد على

---

(١) درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية: ج٢ ص١٤-١٥ .
(٢) المصدر السابق: ص١٣ .
(٣) سورة ص: آية ٢٩ .
(٤) سورة محمد: آية ٢٤ .

المئات تدل على أن النص جاء لتنمية القابلية العقلية الموجودة عند الإنسان، وأن الآيات القرآنية في مجال الأصول والعقائد إرشاد لحكم العقل، وعون للعقل في عملية التفكير، وجعله يتحرك في الاتجاه الصحيح؛ لتنتج المعرفة الدينية الصحيحة، والعلم النافع ...، وهذا هو الدور الأساسي للأنبياء كما أوضح أمير المؤمنين علي عليه السلام وهو باب مدينة علم النبي الأكرم صلى الله عليه وآله عندما قال «فبعث فيهم رسله، وواتر إليهم أنبياءه ليستأدوهم ميثاق فطرته، ويذكروهم منسي نعمته، ويحتجوا عليهم بالتبليغ عليهم، ويثيروا لهم دفائن العقول»[1].

فدور الأنبياء هو إثارة العقول واستنهاضها، فالنقل عون للعقل كي ينهض ويتحرك؛ ليقود الإنسان في طريق الله وطاعة رسله لا أن العقل عون للنقل، في مجال الأصول والعقائد، نعم لابد من النقل في جزئيات المعارف، والأصول، والأحكام الشرعية، والإشراف على عملية التفكر، وحفظ العقل من الإفراط والتفريط .

فالنص الديني مع النبي والإمام ضرورة في بناء صرح الدين، وبيان معالم المنهج الإلهي في الأرض وقيادة البشرية، ولكن العقل هو الأساس الذي ينطلق منه الإنسان للاعتقاد بالخالق سبحانه وصفاته، وكذلك الاعتقاد بالنبوة وامتدادها المتمثل بالقيادة الصالحة للأمة، والمعاد، والهدفية لهذا الكون...؛ ولذلك نجد أن مدرسة أهل البيت قد ركّزت على هذا المنهج لتربية عقل المسلم وتنميته، وذلك بالتركيز على التفكر، وتثقيف الأمة عليه بأنه أهم العبادات، فقد روي عن النبي صلى الله عليه وآله قوله: «لا عبادة كالتفكر»[2].

وعن الإمام الرضا عليه السلام: «ليست العبادة كثرة الصلاة والصوم، وإنما العبادة التفكر في أمر الله»[3].

وعن النبي صلى الله عليه وآله: «تفكر ساعة خير من قيام ليلة»، وفي رواية «عبادة سنة» وفي أخرى «ستين سنة» [4].

---

(١) نهج البلاغة الخطبة الأولى.

(٢) زبدة البيان المحقق الأردبيلي: ص١٤٠ .

(٣) ميزان الحكمة المحمدي الري شهري: ص ٢٤٦٤ .

(٤) تفسير كنز الدقائق، الميرزا محمد المشهدي: ج٣، ص٣٥٧ .

وفي رواية أن النبي ﷺ سمع صحابته يمتدحون رجلاً بكثرة عبادته فقال لهم النبي ﷺ: «كيف عقله؟»، فقالوا يا رسول الله نخبرك باجتهاده في العبادة، وضروب الخير، وتسألنا عن عقله، فقال ﷺ: «إن الأحمق ليصيب بحمقه أعظم مما يصيبه الفاجر بفجوره، وإنما ترتفع العباد غداً في درجاتهم، وينالون من الزلفى من ربهم على قدر عقولهم»(١).

وعلى العكس تماماً من مدرسة ابن تيمية التي تربّي أتباعها على الإيمان الأعمى بظواهر النصوص، وعدم السؤال عنها فإن مدرسة أهل البيت تربي الأمة على السؤال، وعلى التعمق في الدين ...، فهذا باب علم النبي، علي عليه السلام يطلب من الأمة أن تسأله عن كل شيء حتى إن أحد أصحابه سأله عن مسالة تعد من أعقد المسائل الإلهية وهي مسالة رؤية الله سبحانه، إذ قال: فهل رأيت ربك يا أمير المؤمنين ؟ فقال عليه السلام: «أ فأعبد ما لا أرى؟» فقال: وكيف تراه؟ فقال عليه السلام: «لا تدركه العيون بمشاهدة العيان؛ ولكن تدركه القلوب بحقائق الإيمان»، ثم أخذ الإمام في ذكر تفاصيل الصفات الإلهية التي يدركها الإنسان بقلبه... (٢).

كما أنه كان يأمر أصحابه أن يفصحوا له بكل ماتكن قلوبهم، وأن لا يتحفظوا منه، ولا يتهيبوا من طرح أي طرح، من السؤال، أو النقد، أو المشورة...، فقد كان يقول لهم: «فلا تكلموني بما تكلم به الجبابرة، ولا تتحفظوا مني بما يتحفظ به عند أهل البادرة، ولا تخالطوني بالمصانعة، ولا تظنوا بي استثقالاً في حق؛ قيل لي: ولا التماس إعظام لنفسي؛ فإنه من استثقل الحق أن يقال له، أو العدل أن يعرض عليه كان العمل بهما أثقل عليه؛ فلا تكفوا عن مقالة بحق، أو مشورة بعدل، فإني لست في نفسي بفوق أن أخطئ، ولا آمن ذلك من فعلي إلا أن يكفي الله من نفسي ما هو أملك به مني...»(٣).

وهكذا نرى أن النظام التربوي النبوي العلوي يريد أن يبني لنا إنساناً، عاقلاً، واعياً، يبحث عن الحق حتى يصل إليه، ويعتقد به في أجواء علمية موضوعية حرة، لا أن يقدِّس

---

(١) شرح نهج البلاغة ابن أبي الحديد: ج٢٠ ص٤١، دار إحياء التراث بيروت.
(٢) نهج البلاغة: خ ١٧٩.
(٣) نهج البلاغة: خ ٢١٦.

ظواهر النصوص والأشخاص تحت سياط التخويف، والوعيد، أو الترغيب - دنيوياً كان أم أخروياً- لأن مثل هذا الاعتقاد غير الواعي يجعل الإنسان يقدس الوسائل والوسائط، فيتوقف عليها، وتحول ما بينه وبين المعبود الحق سبحانه...؛ وبعبارة أخرى: إن مدرسة أهل البيت تريد أن تخرج بمنهجها التربوي عاقلاً وعابداً، ولا تسمح له أن يدخل إلى المسجد والمعبد إلا عبر بوابة التفكر والدليل والبرهان .

لكن مدرسة ابن تيمية تريد أن تخرج عابداً جاء نحو العبادة بالتقديس المطلق للنصوص، والأحاديث، وما يرتبط بها.

وهذا لا يعني أن مدرسة أهل البيت لا تؤمن بالقدسية، والعصمة والمعصوم، فهي بلا شك تؤمن بذلك لمن ثبت بالدليل القطعي أنه معصوم ويستحق القدسية؛ لكنها تدعو كل إنسان - في مجال الأصول، والعقائد، وكليات المعارف الدينية - أن ينظر ويفكر وتوفر له العون والإرشاد كي يصل بالبرهان والدليل إلى ما هو الحق فيقدسه ويطيعه...، فيصل إلى الإله الحق، والنبي الحق، والكتاب الحق، والعقائد والإمام الحق...، وحينئذ يعبد ويطيع طاعة مطلقة، ويقدس ويحترم؛ ولكن عن وعيٍ تام، وقناعة كاملة، وبصيرة تامة.

لكن مدرسة الحديث والسلف الصالح تقول للإنسان إذا ما طرق سمعك، أو لمحت عيناك ظاهر آيةٍ أو حديثٍ، أو سمعت قولاً، أو فعلاً لصحابي، فهذ هو الحق المقدس المطلق، وعليك أن تؤمن، وإذا لم تدرك معناه فلا تسأل، وإذا رأيته مخالفاً لعقلك فاتهم عقلك، ولا تتهم ظاهر النص، ولا الصحابي، ولا التابع له بإحسان، وقل لعقلك أن يتوقف ويسكت، ولا يفكر بتغيير ظواهر النصوص، ودلالات فعل الصحابة.

عودة الصنمية

وهذا النحو من التربية والتعليم بإلقاء المقدسات الجاهزة أدى إلى نشوء ثقافة إسلامية ابتعدت بالدين عن كونه منهجاً للحركة نحو المثل الأعلى، والهدف المقدس الحقيقي إلى دين يقدس الظواهر، والمظاهر، والأشخاص، ويجعل الإنسان المسلم يتوقف عليها بحركة

انطوائية دائرية ترمي بالأهداف العليا للدين خارج ميدان الحياة، وبهذه الطريقة عادت الصنمية - التي جاء الإسلام لإنقاذ البشرية منها مرة أخرى لقيادة حياة الأمة بنحو لا يختلف في جوهره وحقيقته، وإن اختلف في أسمائه ومظاهره، فالجاهلية كانت تعتقد بالله خالقاً؛ ولكنها كانت تهب الربوبية، والعبودية، والأُلوهية لأصنامها بدلاً عن الله، زعماً منها بأن الأصنام هي التي تقربهم إلى الله، في حين أن الأصنام لا تملك شيئاً من مواصفات التقريب إلى الله، ومؤهلات الوصول إليه؛ ولذلك فقد حجبْنَهم عن الله، وصددْنهم عن سبيله، والسبب في ذلك كما يوضح القرآن الكريم هو غياب العقل والتفكر الصحيح والتبعية العمياء للآباء، ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾[1]، ﴿ أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾[2].

كذلك إن أسلوب تجميد العقل أو تحجيم دوره في معرفة الدين، وتحويل الدين والإيمان من عقائد ومعارف يتم طبخها، وتنضيجها، وصناعتها في معامل التفكر والإدراك التي أودعها الله في الإنسان، وبأشراف النبي والإمام- إلى مجموعة مقدسات جاهزة ومعلبة، ولا يجوز لأحد أن يسأل عنها كي يفهمها، ناهيك عن الاعتراض عليها، هذا الأسلوب أدى إلى تقديس ما لا يستحق التقديس، واتباع قدسية مصطنعة صنعتها بعض ظواهر النصوص - صحيحة كانت أو موضوعة - فأخذت الأمة تتبع أرباباً من دون الله باتباع من لا يملك مؤهلات الإمامة والقيادة فراحت الأمة تبتعد عن الله سبحانه وأهدافه الحقيقية، وعادت الصنمية بعين حقيقتها، وإن اختلفت في ظاهرها عندما تحولت من الحجر والتمر والكواكب إلى البشر والطقوس.

وهذا هو نتيجة الخطأ في نظام التعليم والتربية، أو الخلل في بناء الوجود الذهني للفرد، أو الأمة الذي هو أساس حركة التاريخ كما يقول المفكر الشهيد محمد باقر الصدر قدس سره:

---

(١) سورة البقرة: آية ١٧٠.

(٢) الأنبياء: آية ٦٧.

«إن المحتوى الداخلي للإنسان هو الأساس لحركة التاريخ التي تتميز بأنها حركة غائية... تتحرك نحو المستقبل من خلال الوجود الذهني الذي هو مزيج من الفكر والإرادة»[١].

وهذا الخطأ في التربية والتعليم أنتج خطأً في إشباع حس البحث عن المطلق والمقدس الموجود في الإنسان فتحرك الإنسان المتدين نحو المقدَّس الوهمي، إذ توقف فيه، وترك المقدس والمطلق الحقيقي، وفي هذا المعنى يقول المفكر الشهيد محمد باقر الصدر قدس سره:

«إن مشكلة الإنسان إما في إلغاء هذه الحاجة الأصيلة وإنكارها وهو الكفر والإلحاد، أو الغلو في الانتماء والخطأ في طريقة إشباع هذه الحاجة، وهو نحو من الشرك والصنمية، ولا يختلف من الناحية العملية عن الانحراف الأول لأن الطريقين يلتقيان في نقطة واحدة أساسية وهي إعاقة حركة الإنسان في تطوره عن الاستمرار الخلاق المبدع الذي لا يتم إلا في الحركة المستمرة نحو المطلق الحقيقي، فالحركة نحو المطلق كما تنعدم بإنكار المطلق رأساً والوقوع في الضلال والضياع، كذلك تنعدم بالتوقف في مراحل الطريق وتحويل النسبي إلى مطلق والوسائط والوسائل إلى أهداف ومن ثم تقديسها وعبادتها بدلاً من المقدس والمعبود الحقيقي»[٢].

وهذا المطلق الوهمي كما قد يكون رغبة أو نزوة أو تعصباً قبلياً أو سياسياً، كذلك يمكن أن يكون رأياً، أو عقيدة، أو منسكاً عبادياً معيناً، أو شخصاً يتعلق الإنسان به إلى حد التقديس المطلق.

يقول المفكر الشهيد مرتضى مطهريّ: «إن الإنسان يمكن أن يضحي بنفسه لأجل عقيدة ما، وأن كانت هذه العقيدة من نسج الخيال، أو يضحي بنفسه من أجل أمر لا قدسية له؛ لكنه بسبب النزعة الدينية وحس التقديس يراه مقدساً»[٣].

---

(١) السنن التاريخية: ص١١١، الشهيد محمد باقر الصدر، دار إحياء التراث العربي بيروت.
(٢) انظر: إلى نظرة عامة في العبادات للشيد محمد باقر الصدر.
(٣) معرفة الإنسان في القرآن الشهيد مطهري: ص١٤٠ .

المجموعات التكفيرية نتاج التقديس الخاطئ:

فلو نظرنا إلى المجموعات التكفيرية لرأينا أنها ثمرة طبيعية لمدرسة التربية على التقديس الخاطئ، وإبعاد العقل عن فهم الدين؛ فهم يقدسون ما يسمونه الجهاد تقديساً مطلقاً. وجهادهم هو قتال كل من خالف رأيهم، والسبب في ذلك أنهم يرون فهمهم للدين مقدساً ومطلقاً يستحق من خالفه القتل دون شك .

في حين أن الجهاد في الإسلام وطبقاً لما أمر به القرآن وترجمه الرسول الأعظم ﷺ في سيرته ليس هو قتال المخالف في الرأي، كما أن الجهاد ليس أمراً مقدساً في ذاته، وإنما هو أمر اضطراري يضطر إليه إذا لم تنفع كل السبل السلميّة، والمعاهدات، والمواثيق من أجل تحقيق الأهداف الإسلامية، فحينئذ يحصل الجهاد الذي هو عملية إزالة الموانع عن طريق تحقيق إهداف الإسلام الإنسانية، وهذه العملية تحصل بمقدار الضرورة والاضطرار مع مراعاة جميع القيم الإنسانية.

يقول المرجع المصلح الكبير الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء قدس سره: «فالإسلام لا يقاتل عبطة واختياراً، وإنما يحرجه الأعداء فيلجأ إليه اضطراراً ولا يأخذ منه إلا بالوسائل الشريفة، فيحرم في الحرب والسلم التخريب، والإحراق، والسم، وقطع الماء عن الأعداء، كما يحرم قتل النساء والأطفال، وقتل الأسرى، ويوصي بالرفق بهم والإحسان إليهم، مهما كانوا من العداء والبغضاء للمسلمين، ويحرم الاغتيال في الحرب والسلم، ويحرم قتل الشيوخ والعجزة ومن لم يبدأ بالحرب، ويحرم الهجوم على العدو ليلاً، ويحرم القتل على الظنة والتهمة، والعقاب قبل ارتكاب الجريمة إلى أمثال ذلك من الأعمال التي يأباها الشرف والمروءة والتي تنبعث من الخسّة والقسوة والدناءة والوحشية»[1].

هذا هو المجاهد الذي يتخرج من مدرسة الإسلام المحمدي الأصيل، والمتربي على يد معلمها وبوابة حكمتها أمير المؤمنين عليه السلام، مجاهد لا يقاتل إلا لأجل القيم الإنسانية، ولا يقاتل

---

(١) المثل العليا في الإسلام ص٧٢-٧٣، الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء.

إلا إذا اضطر للقتال، وإذا قاتل لا يخرج في قتاله عن القيم الإنسانية.

ثم هاك انظر إلى المتخرج من مدرسة ابن تيمية وأمثاله، وهو أحد المنظرين والمخططين لحركة القاعدة ماذا يقول في كتابه (إدارة التوحش) الذي يريد به أن يربي أتباع هذه الحركة.

يقول أبو بكر ناجي: «من مارس الجهاد من قبل علم أن الجهاد ما هو إلا شدة، وغلظة، وإرهاب، وتشريد، وإثخان، أتحدث عن الجهاد والقتال لا عن الإسلام فلا تخلط، إن لم نكن أشداء في جهادنا وتملكنا الرخاوة كان ذلك عاملاً رئيسياً في فقدان عنصر البأس الذي هو من أعمدة أمة الرسالة، ومما يلتحق بقضية الشدة سياسة دفع الثمن، فلا يوجد إيذاء يقع على الأمة بدون دفع الثمن، ففي مرحلة شوكة النكاية والإنهاك علينا اتباع استراتيجية دفع الثمن، ودفع الثمن يبث اليأس في نفوس العدو فأي عمل إجهاضي لمجموعات النكاية من أي نوع ينبغي أن يقابل برد فعل يجعل العدو يدفع ثمن إجرامه كاملاً حتى يرتدع عن العودة لمثله ويفكر ألف مرة قبل القيام بعمل هجومي اتجاهنا».

إلى أن يقول: «وهذا التوحش وعدم الإيمان بسبب بعض العصابات أفضل شرعاً وواقعاً من سيطرة سلطات على الأوضاع، ووضع الناس تحت المهانة، وإجبار الناس على قبول الكفر، والتحاكم بالقوانين الوضعية فإن الشرك أكبر مظاهر عدم الأمن وكفى بعدم الأمن من النار فتنة»[1].

فهنا نرى أن هذا الكاتب أخذ مقالته من مجموعة من ظواهر الآيات والأحاديث؛ لكنه قام بتطبيقها دون تعقل وتفكر ودراية.

ولذلك إنه يدعو إلى الشدة، والغلظة، والإرهاب، والتشريد، ويدعو إلى عدم الخلط بين الجهاد والإسلام وهنا يكمن الخطأ، والخطر الثقافي الكبير؛ لأن الجهاد فرع من فروع الإسلام والغصن لا يمكن أن يفصل عن الشجرة، والشدة والغلظة وإرهاب أعداء الله والإنسانية

---

(١) إدارة التوحش، أبو بكر ناجي.

مطلوبة في الجهاد؛ ولكن أي جهاد؟!... الجهاد الذي ينطلق من الإسلام ولأجل أهداف الإسلام، والإسلام لا يريد مقاتلاً لا يعرف سوى القتل والإرهاب لكل من يخالفه...، الإسلام يريد عاقلاً مقاتلاً، يعرف لماذا يقاتل؟ ومن يقاتل؟ ومتى يقاتل؟ وكيف يقاتل؟ ويميز مواضع الشدة والغلظة عن موضع اللين والرحمة، حتى ينصر الإسلام بقتاله، ويكون قتاله في سبيل الله؛ إذ إن المطلوب في الإسلام هو القتال في سبيل الله لا مطلق القتال.

وسبيل الله لا يمكن أن يجتمع مع التوحش وسحق الأخلاق والموازين الإنسانية مهما كانت الظروف، وأيّ نصر للإسلام، وأي جهاد في سبيل الله ذلك الذي يخرج الناس من سلطة الكفر ويدخلهم في سلطة التوحّش، وعدم الأمن باسم دولة الخلافة الإسلامية؟!...

الثاني: إلغاء الموضوعية والاعتدال

كما أن التعليم والتربية في المجال البدني يجب أن يكون متدرجاً ومتوازناً، كذلك إن التربية الدينية، وإنشاء المؤمن الصالح يجب أن تتمّ باتباع المنهج التعليمي التربوي الموضوعي، والمعتدل، والبعيد عن التعامل الانتقائي والتجزيئي مع الدين.

وهذا يتم باستلهام الخطاب التعليمي والتربوي من قرآن وإسلام ينظر إليه بوصفه نظاماً كاملاً ومترابطاً، وبوصفه جهازاً يعمل بكامل أجزائه من أجل تحقيق هدف، وعند التعرف على هذه الأجزاء يتم التعرف عليها في ضمن التعرف على الهدف ولأجل أن يتم العمل بها لأجل تحقيق ذلك الهدف.

فإذا تربى الإنسان المسلم على معرفة عقائده وعباداته بما أنها مجموعة مترابطة من أجل الهدف الذي أراده الله من الإنسان في هذه الأرض فحينئذٍ سوف يتعلمها ويعمل بها بنحو موضوعي ومترابط كي يحقق بها الهدف، لا أن يركز على بعضها ويترك بعضها الآخر، أو يعمل بها بنحو غير هادف .

فإذا أردنا أن نربي أمة ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[١] فلابد من أن نجعلها ترتفع بالنظر إلى الأهداف الإلهية العليا والحركة نحوها، وهذا يحصل بالتنمية العقلية أولاً: وكما ذكرنا في أولى مواصفات النظام التربوي الإسلامي؛ وثانياً: بالتربية الموضوعية لا التجزيئية، بأن نجعل الطفل يتعرف وهو في بواكير حياته العلمية على هدفه في الحياة، وماذا يريد الدين أن يحققه له، وأن نستخدم الأساليب التربوية لنجيب على سؤال الطفل، ونجعله يسأل دائماً (لماذا أفعل؟)، ونجيبه على ذلك لا أن نأمره فقط، ونجعله تحت سياط الترغيب، والترهيب، والخوف، والطمع لا يسألنا إلا (ماذا أفعل)، علماً بأن سؤال (لماذا) هو الأكثر والأهم عند الأطفال، ولاسيما الأذكياء منهم.

فإذا أجبناهم بما ينقع غليلهم ويروي ظمأهم، فسوف ينطلقون نحو فروع الإيمان من أساس متين، وجذور راسخة، فيكونون مثالاً للشجرة الطيبة التي أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أُكلها كل حين بإذن ربها.

الإنسان مظهر الرحمة الإلهية:

ولا نريد هنا في هذه المقالة أن ندخل في تفاصيل هذا الموضوع ولكن ننبّه إلى مسألة مهمة وأساسية في ثقافتنا الإسلامية قد تؤدي الغفلة عنها الى نتائج كارثية، وهي أن تجزئة الدين، والابتعاد عن الفهم الموضوعي له أدى ويؤدي إلى تحريف المفاهيم القرآنية والإسلامية، مثل مسألة الخلافة الإلهية التي خلق الإنسان من أجلها ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[٢]، وهي التي حرفت عن مواضعها، وابتعدت عن معناها الحقيقي إلى الجهة المخالفة تماماً، فالخلافة لله من قبل الإنسان تتم بأن يظهر الإنسان الصفات الإلهية في الأرض، وأن يتمثل المستخلِف (بكسر اللام) في المستخلَف (بفتح اللام) وكما جاء في الحديث الشريف: «تخلقوا بأخلاق الله»[٣] ، وفي الحديث القدسي: «عبدي أطعني تكن مثلي»[٤].

---

(١) آل عمران:١٣٩.

(٢) البقرة:٣٠.

(٣) شرح الأسماء الحسنى، الحاج ملا هادي السبزواري: ج٢، ص٤٢.

(٤) جواهر السنية في الأحاديث القدسية، الحر العاملي: ص٣٦٢.

وأهم الصفات التي تم التركيز عليها في النظام التعليمي والتربوي الإسلامي هي صفة الرحمة، انظر إلى آيات القرآن الكريم، وظاهرها الأنيق، و باطنها العميق؛ إذ تقول ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ﴾[١]، فقد قدم سبحانه صفة الرحمانية وبعدها تعليم القرآن على خلق الإنسان، أي إن الله سبحانه بصفته الرحمانية (عَلَّمَ الْقُرْآنَ و خَلَقَ الإنسان)، أي إن الرحمانية الإلهية اقتضت خلق الإنسان، وهذا المعنى أكدته آيات كثيرة، وذكرت أيضاً أن الرحمة الإلهية قد وسعت كل شيء، وأن الله استوى على العرش، وهو مقام السيطرة على الوجود بصفة الرحمن؛ ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾[٢].

كما أنه يظهر يوم القيامة وهو يوم الحساب بصفة الرحمن: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾[٣].

ولعل أكثر الآيات توضيحاً لهذا المعنى قوله تعالى يخاطب نبيه الأكرم: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾[٤]؛ أي إن الرسالة بكل مفرداتها إنما جاءت لكي تظهر صفة الرحمة الإلهية لجميع المخلوقات، وحتى مظاهر الغضب الإلهي، والعقاب في الدنيا المتمثلة بالنهي عن المنكر، والجهاد، والحدود، والقصاص في الدنيا، والنار والعذاب في الآخرة، كلها تعتبر مصاديقَ للرحمة الإلهية وقد جاء في الدعاء (يامن سبقت رحمته غضبه)[٥] ، أي إن الغضب الإلهي محاط ومسبوق بالرحمة.

وهذه النصوص المباركة يجب أن تكون أساساً لنظام تعليمي وتربوي يخرج لنا مصادر تفيض بالرحمة، والرأفة، والعفو، والسلام، لا للبشرية فحسب بل لجميع المخلوقات .

ومن معالم هذا النظام التربوي الصلاة التي هي عمود هذا الدين، والتي فرضت على

---

(١) الرحمن: ١، ٢، ٣.
(٢) سورة طه: آية ٥ .
(٣) النبأ: ٣٨.
(٤) الأنبياء: ١٠٧.
(٥) دعاء زين العابدين يوم عرفة .

المسلم أن يؤديها خمس مرات، إذ ترى أن على المسلم أن يذكر صفة الرحمن الرحيم فيها ثلاثين مرة (طبقاً للمذهب الإمامي)، ويطلب من ربه أن يجعله يسير في أقرب الطرق للوصول إلى درجة المنعم عليهم بالرحمة الإلهية وهم المرحومون بها، لا المحرومون منها، وهم المغضوب عليهم والضالون، وفي نهاية كل صلاة لا يقوم المصلي من صلاته حتى يسلم على الرسول، وعلى الملائكة، وعلى العباد الصالحين، ويدعو لهم بالرحمة والبركة كي يحصل منهم بالمقابل على الرحمة والبركات .

وعلى مثل هذه الصلاة وبهذه المعاني والأهداف السامية يجب أن نربي أطفالنا، لا أن نلقي عليهم العبادات والعقائد كالصناديق المقفلة التي نأمرهم أن يحملوها على ظهورهم كما تحمل الإبل الأسفار!؛ بل علينا أن نستخدم جميع الأساليب التربوية من الإرشاد، إلى الترغيب والترهيب، إلى القدوة والمحاكاة؛ لأجل ترسيخ هذه المعاني في الطفل، بأن نرشده إلى أن الصلاة معاهدة بين العبد وربه الرحمن الرحيم، يعاهده أن يسير في طريق الرحمة في المخلوقات، ويطلب منه العون على ذلك، وأن هذا الطريق هو طريق تحقيق النعمة والسعادة الحقيقية للفرد والمجتمع، ونقول للطفل أن الصلاة تأمرك أن تساعد جارك، وتخدم صديقك، وتعين زميلك، وتهدي له مما لديك، وأن ترأف بالحيوانات والطيور، وتطعمها، وتسقيها، ولا تؤذيها، وأن تساهم في نظافة البيت، والشارع، والمدرسة، وتنهى من يرمي الأوساخ فيها، وتنصحه بأفضل الأساليب، وأن يجعل للطفل جائزة في قبال كل هذه المواقف؛ وبذلك يتعلم الطفل ويتربى على صلاة مرتبطة بالحياة والمجتمع، وتفيض بالرحمة والسلام على الجميع .

الجهاد مظهر الرحمة:

كما أن الصلاة والزكاة مظاهر للرحمة كذلك الجهاد، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر والحدود والقصاص كلها لأجل الرحمة والحياة السعيدة الكريمة؛ ولكن هذا الفهم لا يأتي إلا عن طريق النظرة الموضوعية، والأهداف الشرعيّة، أي: إن الجهاد الذي يرتبط بكل الإسلام، وبكل القرآن، وسيرة النبي وسنته، والعقل القطعي، جهاد لا يحصل إلا من أجل الرحمة؛

ولكن الملاحظ على أتباع المذهب السلفي - لاسيما الجماعات التكفيرية التي تولدت منه - أنهم يتعاملون تعاملاً انتقائياً مع الشريعة، وهم يعلمون الناس ويربونهم على دين مقطوع الجذور ومبتور الأهداف فهم يقتطعون بعض المصطلحات من القرآن، كالشرك، والخلافة، وحكم الله، والجهاد، ويتعاملون معها تعاملاً مجافياً للعلمية والموضوعية، فيحكمون على كل من خالف رأيهم في مسألة تحديد الشرك ومصاديقه، ويعتبرونه مشركاً، ويستبيحون دمه وعرضه، ويرون أن البشرية اليوم بأجمعها - عدا من يوافقهم في رأيهم - مشركة، ويجب على كل من لا يوافق رأيهم أن يدخل إلى الإسلام المطابق لرأيهم؛ وإلا فليواجه القتال والقتل، ويسمون قتاله جهاداً، ويعتبرون هذا الجهاد هو الدين الذي ينبغي أن يشب عليه الصغير، ويشيب عليه الكبير...؛ ولذلك إن نظامهم التعليمي والتربوي في هذا اليوم قائم على تقديس العنف، والقتال، والحقد على الآخرين وإرعابهم.

انظر ما يقوله مفكر القاعدة ومنظرها، ومعاون الظواهري (عبد الله بن محمد) في (كتابه المذكرة الاستراتيجية) وكيف يرشد أتباعه للقيام بالتعبئة الفكرية والعاطفية: «يجب أن نقوم بالحشد الفكري والعاطفي كي تقبل الأمة مفاهيم الحاكمية، ومسؤوليتنا أن نعمل كحشوة دافعة للفكرة كما فعلنا في أعقاب غزوتي نيويورك وواشنطن» إلى أن يقول: «وبعد هذه التعبئة الفكرية نؤسس دولة تكون نموذجاً للعدل، والمساواة، وندعو الناس إلى الاقتداء بها وتكون كدولة النبي في المدينة»[1].

ويقول مفكرهم الآخر (أبو بكر ناجي) في كتاب (إدارة التوحش): «إن القيادات تبرز من خلال مسيرة الأشلاء والجماجم، ولا يشترط أن تعد الحركة المجاهدة تخصصاً في الصناعة، والزراعة، والتجارة، فالحركات والأحزاب عندما تصل الحكم تحكم من خلال عناصرها السياسية».

فانظر كيف يفكر هؤلاء، وكيف يستلهمون مفاهيمهم عن الدين بنحو انتقائي، فيأخذون

(١) المذكرة الاستراتيجية، عبد الله بن محمد: ص١٨.

من الدين ما وافق أهواءهم، وروحهم الانتقامية، وحبهم بالسيطرة والاستعلاء على الآخرين، وكأن الإسلام لا يوجد فيه شيء مقدس سوى الحكم والقتال من أجل قهر الآخرين والسيطرة عليهم .

فهل الرسول الأكرم ﷺ فتح المدينة بعد أن هيّأ مجتمعها بالحشد الفكري على القتال والحكم والسلطة؟! وهل حصلت دعوته لأهل المدينة وبيعتهم له وهجرته إليهم على أعقاب حرق مراكزهم التجارية ونشر الخوف والرعب في أهل يثرب وقتل الآلاف منهم؟! أو أن رسول الرحمة والحكمة قد جذبهم بالقدوة الصالحة، والموعظة الحسنة، والجدال الأحسن، ونشر مفاهيم الرحمة، والعدالة، والمساواة، والمحبة، والوئام حتى استطاع أن يجعلهم قاعدة لدولته الإلهية ؟!..

وهل كان مصعب بن عمير - الذي يعدّ أول سفير للرسول في المدينة - قد تخرج من خلال مسيرة الأشلاء والجماجم، وذهب إلى المدينة من أجل دعوة زعماء الأوس والخزرج بالتخويف بالإرهاب والإرعاب أو هل تعامل مع (سعد بن معاذ) و(أسيد بن خضير) – عندما جاءا غاضبين وشتماه وهدداه – في غاية الأدب والحكمة وقال لسعد بن معاذ، أو لا تجلس وتسمع ؟ فإن سمعت خيراً قبلت، وإن خالفك شيء أعفيناك ، قال أنصفت، فتلى عليه القرآن، فقال سعد ما أحسن هذا نقبله منك ونعينك عليه، وقال أسيد أيضاً عندما استمع كلام القرآن ما أحسن هذا القول!، ودخل في الإسلام[1].

إن الرسول الأكرم لم يكن يجاهد ويقاتل إلا من بعد أن تعجز جميع الوسائل السلمية لإقناع المقابل بالكفِّ عن غيه وعناده، وبعد أن يشكل المقابل خطراً على الإنسانية لا يزول إلا بقتاله، وعندما يضطر الرسول للقتال فإن الرحمة، والأخلاق الإنسانية السامية تبقى هي الإطار الذي يتحكم بعملية الجهاد، وهي الهدف الذي يسعى إليه المجاهد في سبيل الله؛ ولذلك نرى الرسول ﷺ يقاتله الأعداء ويفجعونه بأعز الناس إليه وهو عمه حمزة،

(١)كتاب الثقات لمحمد بن حيان البستي: ج١، ص٩٧ .

ويكسرون رباعيته ويشج وجهه، فيطلب منه أصحابه أن يدعوَ عليهم؛ لكن الرسول ﷺ يمسح الدم عن وجهه ويقول: «اللهم اهدِ قومي فإنهم لا يعلمون»[1].

والنظام التربوي الذي أراد القرآن الكريم والنبي الأعظم إرساءه، يقوم على أساس الرحمة، ومنه تنطلق فروع شجرة الإسلام وغصونه لتثمر الرحمة والسلام، ولكن النظام التربوي للسلفية والتكفيرية قائم على أساس القسوة، والعنف، والانتقام، ويكفي أن يصف مفكرهم المسؤولين عن التعبئة الفكرية والعاطفية في حركتهم بالحشوات الدافعة، التي تدفع النار من فوهات المدافع.

وليس ببعيد أن تكون روح الجاهلية التي ظهرت في الثقافة الأموية هي التي أنتجت هذا الفكر؛ فقد ربّى الأمويون الأمة على التمسك بالمتشابهات، والاعتقاد بمفاهيم القضاء، والقدر، والجبر، وإبعاد الآيات المحكمة، وتقطيع القرآن، ووضع الأحاديث الكاذبة التي خلطت الموازين، وأذهبت المنهج الموضوعي في معرفة الدين وقادته الحقيقيين، حتى بلغ الأمر أن يحدثوا الناس بأن السلطان الأموي أفضل من رسول الله ﷺ؛ لأن السلطان خليفة الله، والرسول ما هو إلا مبعوث![2].

وانشأت التربية الأموية أجيالاً تحمل الحقد والبغض لأهل البيت عليهم السلام؛ لأنهم يخالفون بني أمية حتى أصبح شتم أهل البيت - لاسيما الإمام علي عليه السلام - ذكراً وورداً في صلاتهم يقدسونه أكثر من التهليل والتسبيح.

ويكفيك إذا أردت أن تتعرف على الفرق بين المدرستين والمنهجين (النبوي العلوي)، و (الأموي السلفي التكفيري) فانظر إلى فتح مكة حين سيطر الرسول الأعظم ﷺ على عتاة قريش وكبرائها، فعفى عنهم، وقال: اذهبوا أنتم الطلقاء مع أنهم مشركون قد حاربوه عشرين عاماً، ثم انظر إلى كربلاء، ومكة، والمدينة؛ لترى ما فعل الأمويون في مخالفيهم من أهل البيت،

---

(١) انظر: الدر المنثور للسيوطي: ج٢، ص٢٤.

(٢) انظر: تاريخ الطبري: ج٦ ص٣٣٤.

والمهاجرين، والأنصار من سفك للدماء، وهتك للأعراض، ثم انتقل إلى أبناء بني أمية في يومنا هذا، وانظر ما يجري في العراق والشام؛ لترى بحاراً من الدماء وأمواجاً من الهتك والدمار باسم الجهاد والخلافة الإسلامية، كما فعل بنو أمية من قبل في كربلاء، ومكة، والمدينة، ولا غرابة في ذلك ، فإن القوم أبناء القوم .

الثالث: التبرير والتأويل والميكافيلية

عندما يسعى من يرفع شعار الدين لتحقيق الحكم لا تحكيم الحق، ويتعامل بمنطق القوة لا قوة المنطق، فحينئذ سوف يكون أقرب الطرق للوصول إلى كرسي السلطة هو الدين، والصراط المستقيم، وسبيل الله، هذا هو باختصار دين بني أمية ومن مهد لهم ومن تبعهم...، وهذا هو روح السياسة الغربية التي حولت هذا الكوكب إلى كرة تسبح في الدماء، باسم الاستعمار تارة، وباسم حقوق الإنسان تارة، وباسم مكافحة الإرهاب تارة .

وليست مصيبة أعداء الأمة الغربيين بأعظم من مصيبة من يدعي الانتماء إلى هذه الأمة، والذين يربون أتباعهم على قتل أبناء أمتهم، وأهل ملتهم، ويتركون أعداءهم حتى أصبح الصهاينة والكفار ليسوا من الأعداء، وأصبح العدو هو من يخالفهم، لأنهم يرون أنفسهم هم الحق المحض والمطلق، في كل ما يقولون ويفعلون، فمن خالف ذلك فهو عدوهم وإن كان مسلماً يصلي لله ساجداً وقائماً، يتلو القرآن آناء الليل وأطراف النهار، ولا يكتفون بتفسيقه فقط؛ بل يكفرونه، ويستحلون دمه، ويستبيحون كل ما يرتبط به .

والأنكى من ذلك أنهم لو احتملوا أن مخالفهم موجود في سوق أو مدرسة، فإنهم يستحلّون قتله مع كل من يوجد معه من الأبرياء شيوخاً كانوا أم أطفالاً أم نساءً، ويسمون هذا العمل الوحشي والإبادة الجماعية جهاداً، والقائم به شهيداً!!..

في حين إن الإسلام يشهد بقرآنه ونبيه وأوليائه أنه دين الحق في الأهداف والوسائل، ويرفض أساليب الباطل للوصول إلى الحق.

بل إن عمل الخير إذا حصل عن طريق غير شرعي فهو باطل وغير مقبول ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾[1]، وكذلك عمل الخير إذا أعقبه باطل ولو على مستوى (المن والأذى) فهو باطل، ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ ﴾[2].

لكن هؤلاء الشذاذ المسوخ إذا توصلت أذهانهم إلى فتوى مثل حرمة زيارة مراقد الأنبياء والأولياء - والفتوى في رأي كل علماء الإسلام إذا صدرت عن علم ودراية فهي حجة على صاحبها، وأتباعه الذين اتبعوه عن علم وتمحيص، وهي قابلة للحوار والأخذ والرد - لكنهم يرفعون قدسيتها حتى تصل إلى قدسية القرآن والنبي ويحكم على مخالفها بالارتداد والقتل وسفك الدماء وإباحة أرضه وعرضه !...

إن أسوأ أنواع الميكافيلية في التاريخ هي الميكافيلية الدينية؛ لأنها عبارة عن تبرير لأهواء الحاكم وآرائه، وشرعنتها باسم الدين والخلافة، أو ولاية الأمر، أو الفتوى والاجتهاد .

وإذا رأينا المجموعات التكفيرية تقتل اليوم كل من يخالف رأيها وتدمر البنى التحتية للأمة فهذا هو النهج الأموي الذي أرسى دعائمه معاوية، إذ يقول لسفيان الغامدي عندما وجهه إلى العراق: «فاقتل كل من لقيته ممن ليس هو على مثل رأيك وأخرب ما مررت به من القرى»[3].

وهذه المدرسة هي التي خرّجت الحجاج الثقفي الذي يقول: «إن الله قال: فاتقوا الله ما استطعتم، وهذه له، وقال: اسمعوا واطيعوا وهذه لعبد الله وخليفة الله، ونجيب الله عبد الملك، أما والله لو أمر الناس أن يدخلوا هذا الشعب فدخلوا في غيره لكانت دماؤهم حلالاً!!»[4].

---

(١) سورة المائدة: آية ٢٧.

(٢) سورة البقرة: آية ٢٦٤.

(٣) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ج٢ ص٨٦.

(٤) تاريخ المسعودي: ج٣ ص١٤٣.

ويبرر ابن تيمية (أستاذ المدرسة التكفيرية) لأم المؤمنين عائشة مخالفتها للقرآن بحرمة خروجها من بيتها، ويشرعن لها محاربة إمام زمانها الذي بايعته الأمة، ويبرّء ساحتها من مسؤولية قتل الآلاف من أبنائها في واقعة الجمل، وذلك بقوله: «إن عائشة اعتقدت أن ذلك السفر مصلحة للمسلمين فتأولت في هذا»[1].

ولذلك يرى أبناء معاوية، والحجاج، وابن تيمية كل الوسائل والأساليب؛ لأجل دولتهم وتطبيق فتاواهم شرعية، بل مقدسة بأعلى درجات القدسية.

يقول أبو بكر ناجي في رسالته: «وعلينا جر الشعوب إلى المعركة وذلك يتطلب مزيداً من الأعمال التي تشعل المواجهة، وهي التي تجعل الناس تدخل المعركة شاءت أم أبت... وإن نجعل المعركة شديدة بحيث يكون الموت أقرب شيء إلى النفوس، فيكون ذلك دافعاً لأن يختار الفرد القتال في صف أهل الحق ليموت على خير!»، وفي نهاية رسالته يفتخر أبو بكر أنهم جعلوا الأطفال في الشيشان يلعبون بقاذفات آر بي جي RPG![2].

ويقول معاون الظواهري حول طريقة تضعيف الجيش السوري: «إن بعض الجنود يخافون من بطش النظام فلا يهربون فعلينا أن نبطش بهم نحن أيضاً حتى يتأكدوا أن الموت الذي يفرون منه فإنه ملاقيهم»[3].

فانظر إلى هؤلاء كيف يريدون أن يصلوا إلى دولتهم، وتطبيق فتاواهم عن طريق القتل العشوائي والبطش والتدمير، ويبحثون عن أوهى الحجج كي يرتكبوا المجازر الوحشية في من يخالفهم، وهذا على العكس تماماً من مدرسة الإسلام النقي الأصيل المتمثلة بالنبي محمد ﷺ وآله الأطياب ﵈، فهذا الرسول يلتمس العذر ويبحث عن الحجة التي بها يدفع القتل عن أعدائه ومخالفيه ويعفوا عنهم، فلم يكن أشد إيذاءً للرسول من المنافقين وعلى رأسهم

---

(١) منهاج السنة ابن تيمية: ص١٨٥.
(٢)انظر: رسالة أبي بكر ناجي، إدارة التوحش.
(٣)المذكرة الاستراتيجية، عبد الله بن محمد: ص٣٧.

(عبد الله بن أبي)، وقد نزلت سورة التوبة في فضحهم، حتى سميت بالسورة الفاضحة، وكان ابن أُبي يحرض الناس على إخراج النبي ومحاصرته كما أخبرت بذلك سورة (المنافقون)، وأراد عمر بن الخطاب قتله، فأبى النبي ﷺ، وقال: «لا أريد أن يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه»[١].

وكان بإمكان الامام علي عليه السلام أن يستخدم الوسائل التي كان يستخدمها معاوية في سياسته، التي تنافي روح الإسلام والقيم الإنسانية العالية، ولو على نحو المقابلة بالمثل كما في قضية استخدام السيطرة على شريعة الفرات من أجل الضغط بالعطش على جيش الإمام عليه السلام؛ لكن الإمام عندما سيطر على الشريعة لم يقابل بالمثل إلى جانب إشارة أصحابه بذلك، وكان يقول في جواب من يقترح عليه استخدام مثل هذه الأساليب من أجل تحقيق النصر العسكري، وحفظ حكومته، وإسكات المخالفين «أتأمروني أن أطلب النصر بالجور فيمن وليت عليه والله لا أطور به ما سمر سمير، وما أمّ نجم في السماء نجماً»[٢].

وأخيراً...

إن الإسلام منهجٌ لصناعة الإنسان الذي تظهر عليه صفات الله في الأرض، وقد وهب له الله مالا يحصى من النعم الظاهرة والباطنة، وهداه النجدين إما شاكراً وإما كفوراً.

فخليفة الله هو الإنسان الشاكر، والشاكر هو الذي يضع نعم الله في مواضعها، ولكي يكون شاكراً فقد زوده الله بأدوات الشكر فقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[٣].

أي إن خارطة الطريق نحو الشكر هي: (أسمع وأبصر، فكر واشكر)، أي إن الإسلام يربّي إنساناً لا يُسمح له أن يصدّر المسموعات والمبصرات إلى اللسان والجوارح مباشرة؛ لأن

(١) صحيح البخاري: ج٦ ص٦٧.
(٢)نهج البلاغة الخطبة ١٢٦.
(٣)النحل: آية ٧٨.

المسموعات والمبصرات مواد خام يجب أن تنضّج وتكرّر وتصفّى في معامل الفؤاد والقلب والعقل، ثم تصدر إلى اللسان والجوارح؛ لأجل القول والعمل الذي به يتحقق الشكر.

قال رسول الله ﷺ: «لسان المؤمن وراء قلبه، فإذا أراد أن يتكلم بشيء تدبره بقلبه، ثم أمضاه بلسانه، وإن لسان المنافق أمام قلبه، فإذا همّ بشيء أمضاه بلسانه ولم يتدبره بقلبه»(١).

وعن الرسول ﷺ: «إذا هممت بأمر فتدبر عاقبته، فإن يك رشداً فامضه، وإن يكُ غيّاً فانته عنه»(٢)؛ ولذلك لم يقبل الإسلام تلاوة القرآن بلا تدبر، فعن الرسول ﷺ أنه قال: «لا خير في علم لاتفهم فيه، ولا عبادة لا تفقه فيها، ولا قراءة لا تدبّر فيها»(٣)؛ وجاء في دعاء الإمام الصادق عليه السلام بعد تلاوة القرآن: «ولا تجعل قراءتي قراءة لا تدبر فيها؛ بل اجعلني أتدبر آياته وأحكامها»(٤).

كما لم يقبل الإسلام رواية الحديث بغير رعاية ودراية، قال الإمام علي عليه السلام: «اعقلوا الخبر إذا سمعتموه عقل رعاية لا عقل رواية فإن رواة العلم كثير ورعاته قليل»(٥)؛ وقال عليه السلام: «عليكم بالدرايات لا بالروايات، همة السفهاء الرواية وهمة العلماء الدراية»(٦)، وعن الإمام الصادق عليه السلام: «حديثٌ تدرية خيرٌ من ألف ترويه»(٧).

وإسلام التدبر والدراية هو إسلام الرحمة، وإسلام العلم والحكمة، إسلام يدعو مخالفيه ليرحمهم ويجذبهم إليه بالحكمة والموعظة الحسنة، والخلق الإنساني الرفيع، لا لينتقم منهم أو يدخلهم فيه تحت وطأة الإكراه بالنار والحديد والنار والوعيد.

ولأن إسلام التدبر والتعقل إسلام الرحمة فهو إسلام المحبة وهو يبدأ من محبة الله ويستمر

---

(١) ميزان الحكمة المحمدي الري شهري: ج٤، ص٢٧٧٩.
(٢) الكافي الكليني: ج٨، ص١٥١
(٣) مستدرك الوسائل الميرزا النوري: ج٤، ص٢٤٢.
(٤) الاختصاص الشيخ المفيد: ص١٤١.
(٥) نهج البلاغة: حكمة ٩٨.
(٦) كنز الفوائد: ص١٩٥، أبو الفتح الكراجكي.
(٧) معاني الأخبار: ص٢، الشيخ الصدوق.

في طريق حبيب الله ليصل إلى الدرجة العليا من محبة الله ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(١).

وطريق حبيب الله هو طريق من أرسل رحمة للعالمين وطريق صاحب الخلق العظيم، طريق من هو حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف الرحيم، طريق اللين وخفض الجناح، طريق من يتعامل مع مخالفيه بأن يوصل إليهم عقيدته بالحوار الهادئ والبرهان الساطع، وبقول لهم بأنني لا أقول لكم إنني على حق وأنتم على باطل حتى نصل إلى الحق سوية بالأدلة والبينات، ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾(٢)، وهذا الطريق الذي يبدأ من محبة الله ويتبع حبيب الله ليصل إلى محبة الله، طريق كله محبة، ورأفة، ورحمة لعيال الله وهم خلق الله كما جاء في الحديث النبوي الشريف: «الخلق عيال الله، فأحب الخلق إلى الله من نفع عيال الله وأدخل على أهل بيته سروراً»(٣)، هذا الطريق إذا صنع دولة فإن دولته ماهي إلا ديمة رخاء تمطر شآبيب الرحمة على جميع الخلق، وهي دولة العدل والرحمة، كما أن طريقه إلى دولته لا يخرج عن العدل والنزاهة عن جميع أنواع الظلم ومخالفة الحق؛ لأن السائر على طريق حبيب الله نحو محبة الله لا يمكن أن يخرج عن العدل والحق وتسبيح الله وتنزيهه في الوسائل والغايات وفي الطرق والأهداف.

﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾(٤).

---

(١) سورة آل عمران: آية٣١.

(٢)سورة سبأ: آية ٢٤.

(٣)الكافي الكليني: ج٢ ص١٦٥.

(٤) سورة يوسف: آية ١٠٨.

محاكم التفتيش الأوربية وداعش

محاكم التفتيش الأوربية وداعش

ناجي الفتلاوي*

المقدمة

كُتب الكثيرُ عن داعش، او كما يحبون هُم أن يسموا أنفسهم بعد تطور التسمية بـ (تنظيم الدولة الاسلامية)، وتعددت أغراض هذه الكتابات وأهدافها، التي كانت مرة على شكل دراسات معمّقة تتحدث عن الأيديولوجيا الداعشية، وتغوص في تبيان الأهداف، وأخرى تتحدث عن النشأة والتكون لما يسمى بـ (داعش)، وهناك الكثير بل عشرات الآلاف من المقالات التي تحتوي كل منها على زاوية تحليلية لفعل داعشيّ او منهاج او مبدأ يستند إليه أو صورة موحشة لعقاب جماعي أو تصريح لأحد رجالاتها لا يمكن تصنيفه على وفق أيّ وجه من وجوه الشريعة الخاتمة الحقة، هذا من جهة، ومن جهة أخرى وعلى الرغم من أن الظاهر يشير الى قلة داعميهم (أي داعش)، لكن بواطن الأمور والسياسات الملغزة والرؤية البراغماتية لتبادل الأمكنة تشير الى عكس ذلك، فمن يكمن في الجهة الأخرى، هو من يؤمن إيماناً حقيقياً بأن داعش هي فعلاً تنظيم الدولة الإسلامية، وأن (أبا بكر البغدادي) هو خليفة الدولة الإسلامية، فنراه يتبنّى في كثير من تفاصيل بناء هذه الدولة رؤى كانت بصيغة أو بأخرى موجودة في مرحلة من مراحل تكون الدولة الإسلامية الأولى، فتأوّلها على خلاف مضمونها، وعمل على تسويقها اليوم على أنها الأصل، وأنها تمثل التشريع الحق لا التشرع

* مدير معهد التدريب الإعلامي – شبكة الإعلام العراقي.

الذي هو لسان حال الدين المنحرف.

نستطيع أن نعدّ هذه الدراسة التي هي بين أيديكم وبدون مبالغة الأولى من نوعها بالنظر إلى ما تناولته من مقارنة دقيقة مع الوجه الآخر للفعل الداعشي، ألا وهي محاكم التفتيش في أسبانيا وامتداد تأثيرها الى أوروبا، وهذه المساحة من البحوث المقارنة لم تصل إليها معظم الدراسات المهتمة بالشأن الداعشي ، والمتميز بقسوته وجموده وتطرفه، وعدم قراءته للمتون والنصوص القرآنية والحديثية بنحو صحيح، والمعتمد على فهمٍ احاديٍّ ضيّقٍ ينتمي في جميع مخارجه وإحالاته الى الرؤيا التي يحملها (محمد بن عبد الوهاب) الوارث تطبيقاً لكلّ ما ورد عن ابن تيمية، فهذه الدراسة المقارنة تتحدث عن سقف الاشتراك في السلوك العنفي المتطرف بين محاكم التفتيش في أسبانيا التي ظهرت مرتبطة بسقوط غرناطة في عام (٨٩٧هـ - ١٤٩٢م) وما صدر من داعش في العراق وسوريا بعنوانات رئيسة أخذت التفصيل الآتي:

- المقدمة:
- **الفصل الأول:**

- هل كان الله بحاجة الى ثأر؟
- محاكم التفتيش الأوربية .. من مصاديق العنف الديني.
- التطرف الديني في المجتمع العربي .. من السبات إلى اليقظة.
- محاكم التفتيش الاوربية وداعش .. ظهور لإرادة التشرع.

- **الفصل الثاني:**

- مفهوم الجهاد عند داعش.
- الجهاد الذي لا تفهمه داعش.
- كلام في العنف الداعشي.
- داعش وليدة انحراف المؤسسات الثلاث (السياسية، الاجتماعية، الدينية).

- داعش تهزم بنهضة وطنية عربية إسلامية .. فما السبيل اليها؟

- **الفصل الثالث:**

- مشتركات العنف الديني بين محاكم التفتيش وداعش.
- ما الذي أنتجته داعش؟

ولقد سعيت من خلال ما ورد في هذا البحث إلى تبيان سخافة وتدني الأفكار والرؤى التي تحملها (داعش) بحمولاتها الأيديولوجية والعقدية، ومدى الضرر الذي تلحقه بالتراث الإسلامي لا بالشريعة الإسلامية، فالشريعة نظرية محفوظة وواضحة. وحاولت أيضًا إيضاح عمقها (أي داعش) في المنهج العنفي الدموي المستند إلى تطرف ديني هو شبيه ومستل من أشكال العنف الديني الذي حدث في أوربا، وتحديداً في مسلسل العنف الذي قامت به محاكم التفتيش في أسبانيا، مبيناً أن الأسلوب الوحيد في هذه المرحلة بالذات في محاربة داعش ومواجهتها يكمن بالتمسك بالحسّ الوطني بين أطياف العراق ومذاهبه وقومياته، والعمل على إسبات الاختلافات المذهبية وجعلها حكراً على الأشكال النظرية من دون أن تكون متدخلة في صياغة الواقع وتسييره، وهذا لا يتم برأيي إلا بعد بناء منظومة ثقافية إسلامية تستند الى التشريع القائم على صحيح الدين: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾[1] ، ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾[2]،﴿وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَ﴾[3]،﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ﴾[4]، وليس الاستناد إلى التشرع القائم على تحريف الدين ولَيِّ أعناق النصوص لتتوافق مع الهوى الممزوج بالإرادات السياسية المنحرفة.

---

(١) البقرة: ٢٥٦ .
(٢) النحل: ١٢٥ .
(٣) آل عمران: ١٥٩ .
(٤) الأنفال: ٤٦ .

الفصل الأول

هل كان الله بحاجة الى ثأر؟

لماذا تكثر الحروب التي يحوم فوقها شبح الدين؟

على الرغم من بساطة السؤال المذكور آنفاً إلا أن الجواب عنه صعبٌ مستصعبٌ ومتشعبٌ وعميقٌ، وفيه عرض لكثير من الأحداث التاريخية التي أُعطيت فيها البطولة للأديان الثلاثة السماوية (اليهودية ، والمسيحية ، والإسلامية) على اختلاف مراحل الوجود في الزمن الذي تصرّمت أيامه، ولكنّه من المؤكد أن الله سبحانه وتعالى لم يكن داعياً ومشرفاً على إراقة الدماء التي أُهرقت باسمه، بل بأيدي أولئك الذين صيّروا من أنفسهم حماة للرب، حماة للإله، بكل تسمياته المختلفة، فالله الذي جعل من الفقراء عياله، والذي جعل منهم مشكلته لا من السكارى مشكلة، عاكساً لنا رؤيته القائمة على أساس تخفيف أوجاع الناس في شرائع سنّها لأجل رفعة الإنسان وراحته وسعادته عموماً من دون تمييز، ولكنها (أي الشرائع) سُرقت، فالناظر إلى الحروب الدينية منذ فجر الخليقة مروراً بمحاكم التفتيش، وما صدر منها من ألوان التعذيب والذبح والإقصاء والتشريد ووصولاً الى داعش وريثة أفعال تلك المحاكم (وهناك ما بينهما كثير من الحروب التي اندلعت باسم الرب)، يجد أنّ الهدف واحدٌ بين الاثنين، والرؤية الصادرة منهما واحدة، فمحاكم التفتيش عملت على تحريف الشريعة العيسوية، وداعش عملت على تحريف الشريعة المحمدية.

أما التحريف الاول فقد نتج عنه آهات ودماء سالت بمنتهى الشراسة والقسوة مع اكتشاف أساليب جديدة في التعذيب، منها (الخازوق) الذي استمر العمل به لمدة ثلاثة قرون وألغي في عام ١٦٧٦م. في حين نجد أن **التحريف الثاني** نتج عنه فضلاً عن إراقة الدماء والتهجير والسبي ومصادرة الأموال، وهدم دور العبادة على اختلاف شعائرها، نتج عنه تشويه كبير قلّ نظيره للشريعة المحمدية، وهذا بحد ذاته يستوجب نهضة إسلامية من نوع خاص تتمازج فيها الرؤية الوطنية والدينية من أجل تضييق الخناق على الأيديولوجية

الداعشية، التي لا يمكن أن تُزال بالسخرية منها، بل بالتقانة والفكر، ووعي التعايش الذي تدعو إليه الاديان السماوية، مع الفهم الصحيح لقوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم﴾[1]، فالإعداد هنا منظومة متكاملة، الإعداد من الموارد البشرية والتقنية ما يجعلها واعية بحجم من تلاقي؟ وكيف يفكر؟ وكيف يريد أن يحكم؟ فالله أعطى البشرية مفاتيح العمران والبناء واكتشاف الذات من أجل الوصول إلى الرفق واللين، كما هو في فلسفة الشريعة الموسوية ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾[2]، وفلسفة السلام الذي قلّ نظيره كما في الشريعة العيسوية، وفلسفة عدم الإكراه ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾[3]، والجدال بالتي هي أحسن ﴿وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[4].

ويتضح من ذلك أن فلسفة الوجود الإلهي قائمة على أساس التعايش والتسامح والحب ونفي الإكراه والعنف، وعندما تكون هذه هي الفلسفة المتدلية من حياض الإرادة الإلهية، فهذا يعني أنه لا يوجد هناك وكيل باسم الرب لأخذ الثأر من عباده وتحت شعار دوغمائي فضحته الشواهد.

فالله لم يأمر بإشعال حرب طائفية شيطانية في لبنان (من ١٩٧٥ الى ١٩٩٠)، ولم يدعُ الى اقتتال في البوسنة المتعددة الطوائف المدمرة في يوغسلافيا، ولم يدعُ الى مأساة أفغانستان وطالبان، وأيضا لم يدعُ الى جزر الجزائريين، ونحرهم في سنوات ١٩٩٠ فضلاً عن مأساة العراق المستمرة وكذلك سوريا.

محاكم التفتيش الاوربية .. من مصاديق العنف الديني

عاشت أوربا صراعاً بين العقل والخرافة على مدى التاريخ، وهي الكلمة التي همس بها العالم (جاليليو) بعد محاكمة عنيفة تجاهه؛ بسبب إعلانه كروية الأرض، وأنها ليست مركزاً للكون، الأمر الذي أثار حفيظة الكنيسة لتقاطعه مع النص المقدس، وعدّت اكتشافه نوعاً من

---

(١) الانفال: ٦٠.

(٢) طه: ٤٤.

(٣) البقرة: ٢٥٦.

(٤) النحل: ١٢٥.

التجديف والهرطقة، وبعدها تعرض غاليلو الى ما تعرض من محاكمة ألجأته قسوتها إلى التراجع عن مكتشفه. هذه صورة فردية لحالة عامة وسمت العصور الوسطى في أوربا، ومحاكم التفتيش هي من أبرز سمات هذه العصور، وهي التي ظهرت فيها أشرس حالات الصراع بين اللاهوت الديني، حيث الإحادية الضيقة للفكر والحقيقة، وهيمنة الغيب السماوي من جهة، وطلائع الفكر التنويري للنهضة وما جاد به كل من العقل الهارب من الميتافيزيقيا والعقل المحتفي بالإنسان بوصفه قيمة أولى على الوجود الارضي.

فالمؤرخون يرجعون ظهور محاكم التفتيش واحتدامها إلى سببين:

أولاً: الاقتتال الديني: ومنها ما يرتبط بالصليبية، وحروب تصفية المورسكين العرب في أسبانيا (الأقلية من المسلمين).

ثانياً: اتضاح طلائع النهضة الأوروبية ويصاحب ذلك تمرد كثير على الكنيسة الكاثوليكية في روما[1].

والسؤال الذي قد يطرحه بعض المختصين على أنفسهم وغيرهم، لماذا تراجع (سدنة محاكم التفتيش) في أوروبا وانتصر العلم؟

الحقيقة المؤكدة حتى الآن أنّ فلسفة التنوير الأوربي استطاعت توطين (العقل) و(التجربة) محل (سدنة محاكم التفتيش) غير أن قضية تنازع السلطة بين الدولة ومحاكم التفتيش أو بين (الدنيوي) و(اللاهوتي) كان لها دوافعها الفلسفية، والإجابة عن السؤال المذكور آنفاً يمكن إجمالها في أسباب ثلاثة:

أولها: لأنّ سدنة محاكم التفتيش فشلوا في إيجاد البدائل ما جعل الالتفات إلى الشرائع الأخرى أمراً وارداً بشدة.

ثانيها: اعتقادهم أنّ وظيفة المسيحية تنتهي عند الوصول إلى عتبة الحياة العامة سواء

---

(١) انظر: الخميس، أميمة، محاكم التفتيش..إنها تدور(مقالة)، صحيفة الرياض اليومية، العدد:١٦٥٤، ١١ صفر ـ ١٤٣٤هـ.

بشكلها السياسي أم الاجتماعي أم الاقتصادي أم غير ذلك.

ثالثها: لا ريب فيه من أنّ تصورات دينية تخاصم العقل والعلم، مصيرها التراجع والانكماش عن الحياة بجوانبها المختلفة.

كانت محاكم التفتيش التي أقامتها كلُّ كنيسة غربية تجاه مخالفيها في الاعتقاد، فقد أقامتها تجاه المسلمين واليهود عقب إسقاط غرناطة (٨٩٧هـ - ١٤٩٢م)، واقتلاع الإسلام من الاندلس، كانت محاكم التفتيش هذه، التي دامت ثلاثة قرون حروباً دينية مقدسة، أرادت من ورائها الكهانة الكنسية الغربية خلاص المخالفين بتخليصهم من الحياة، فالذين لا يذعنون للكنيسة، ويعتقدون بصدق نظرياتها تحيق بهم اللعنة الأبدية لا محالة، ويصبح إنقاذ الدنيا منهم واجباً مقدساً، وحتى الطفل على براءته وخلو ساحته من الخطايا، متى مات من غير تعميد، على المذهب الكاثوليكي قضى بقية حياته في جهنم؛ ولذلك كان طبيعياً في ظلّ هذه العقيدة للخلاص، وهذا الدستور لاضطهاد المخالفين أن يتعرض المتهمون بالمروق لأشد صنوف العذاب[1].

إنّ المتابع لتاريخ أوربا إبان سقوط غرناطة يجد أن نظام محاكم التفتيش قد احتوش أرجاء العالم المسيحي بموجة من الإعدامات للمخالفين بواسطة الإجلاس على الخازوق، ولم يلغِ هذا الاسلوب نهائياً الا في ١٦٧٦م، إذ تعاون في هذه الموجة كلُّ من له صلة بالكنيسة باختلاف عناوينهم (بابوات ، وقساوسة ، ورهبان ، وملوك ، وأمراء ، وعامة الناس)، أي إن الإعدام بالخازوق المقدس قد دام ثلاثة قرون[2].

أما في أسبانيا فقد بدأت محاكم التفتيش في عهد الملكة (ايزابيلا) (١٤٥١- ١٥٠٤) والملك فرديناند (١٤٥٢- ١٥١٦) بمباركة البابا (سكستوس الرابع) (١٤٧١-١٤٨٤)، وشملت حتى المستعمرات التي حكمتها أسبانيا، وطبقت على المسلمين واليهود المهزومين على الرغم من عهد الأمان الذي حصلوا عليه، فأجبر على التنصر منهم من ضعف عن تحمل

---

(١) الطويل ، د . توفيق ، قصة الاضطهاد الديني في المسيحية والاسلام ، طبعة القاهرة ، ١٩٩١ ، ص ٧٣ .

(٢) انظر : عمارة ، د محمد ، حقيقة الجهاد والقتال والارهاب ، (القاهرة - ٢٠٠٥م) ط ١ ، مكتبة الشرق الدولية ، ص ٤٩ .

العذاب، وفرّ من أسبانيا من أثر التمسك بدينه، وغرقت البلاد في حمام من الدم الذي سفكته محاكم التفتيش[١].

التطرف الديني في المجتمع العربي .. من السبات الى اليقظة

إنّ الناظر الى المجتمع العربي بمحمولاته الأيديولوجية والعقدية والقومية وبارتكازاته المجتمعية ، يجد وبدون غلوٍّ حالة من التيه والضياع، منذ وقوع الاقاليم العربية للسلطنة العثمانية في القبضة الاستعمارية للدول الكبرى الأوربية، وبعد ذلك أثّر حصول هذه الاقاليم على الاستقلال، وما تمخض عنه من انقسامات حادة بين المجتمعات العربية، فقد أثر فعل الانقسام هذا بين الأنظمة السائسة والمتقلدة للحكم في هذه المجتمعات، بفعل الولاء المحمول والتبعية من لدن هذه الأنظمة الى قوى كبرى، فبعض منها كان ينقاد الى المعسكر الاشتراكي، متمثلاً بالاتحاد السوفيتي سابقاً، والآخر في أحضان المعسكر الرأسمالي، متمثلاً في الولايات المتحدة الأمريكية، وتجدّدت هذه الحالة اليوم في ضياع كامل، حيث صراع الهويات القلقة المتفرعنة التي تؤدي في كثير من الأحيان الى أعمال عنف إرهابية الطابع، استقرت في عمق الخارطة المجتمعية للدول العربية، وكل هذا متأتٍ بفعل تبعية الأنظمة العربية الواضحة لمراكز القوى المتعددة في العالم، مما يؤدي الى صراع المصالح وشيوع البراغماتية المقيتة التي تتجاوز على المنظومة الإنسانية، فيحدث ما حدث من عنف وقتل وذبح هيأ له فكر المتشرعة الذين صنعتهم الانهيارات الآتية:

- انهيار المنظومة الفكرية الإسلامية في فلسفة التسقيط المعتمدة بين المذاهب الإسلامية.

- انهيار الشعور بالانتماء الحقيقي للدين مما جعل المصالح والمغانم الفئوية والمذهبية والشخصية هي الحاكمة على الدين.

---

(١) انظر: عمارة ، د محمد ، حقيقة الجهاد والقتال والارهاب ، (القاهرة - ٢٠٠٥م) ط ١ ، مكتبة الشرق الدولية ، ص ٤٩ .

- انهيار المسافة المتوازنة بين الدين والسياسة لصالح المنظومة والإرادة السياسية، ما صيّر من علماء الدين الطارئين إلى علماء لهم حظوة العلماء الحقيقيين بفعل التولف إلى السلطة.

وهؤلاء المتشرعة غادروا صحيح الدين ودخلوا في منحرفه، ومن ثمَّ أصبحت المصاديق العملية لما يرفع من شعار لهؤلاء يختلف جذرياً عن النظرية الإسلامية، بمعنًى آخر أصبحنا نتعامل مع تراث إسلامي كتبته السلطات الإسلامية على امتداد قرون متعددة منطلقة من أهوائها وميولها السياسية والمسافات التي رسمتها ووضعتها تجاه الآخر وتركها لشريعة النبي محمد ﷺ، إذا ما أردنا تطبيقها وجعلها هي الحاكمة، فحتما لا نجد مظاهر العنف والتطرف.

فهذه الشريعة قائمة على أسس عدم الإكراه، وأيضا جادلهم بالتي هي أحسن، والسؤال الخطر الذي يجب ان نسأله نحن ونوجهه الى أنفسنا وإلى المؤسسة الدينية والمجتمعية في المحيط العربي المسلم؟ هل مجتمعاتنا توحيدية؟ فإذا كانت توحيدية فما الطريق إلى تقوية ثقافتنا الإسلامية والأخلاقية والتربوية والمجتمعية في بوابة التوحيد؟ وهل يحقق هذا الطريق إفلاتاً تدريجياً من الحالة المخزية التي نحن فيها، التي تتجسد في تفجّر أفران الكره والضغائن وإشعالها؛ لتنتج لنا خبزاً عُجِن بماء الطائفية والمذهبية المقيتة فيما بيننا.

أرى أننا فقدنا – ويا للأسف – القدرة على التحرر من عقدٍ أوجدتها لنا طبيعة التجاذبات التي أسستها تلك القوى الكبرى المُحركة، هذا أولاً، وثانياً القصور القوي الحاصل لدينا في فهم ما لدينا من قيم حضارية، أوجدها الإسلام نستطيع من خلالها مواكبة ما يجري من نهضة عالمية تقود الى التعايش السلمي في جميع المجتمعات وإن تعددت القوميات، وإن تعددت الأديان والمذاهب واللغات وألوان البشر (أسود ، وأبيض ، وأسمر ، وأصفر)، ومن مصاديق هذا التوصيف، مملكة السويد إذ يتكون خليطها المجتمعي من (١٠٥ قومية و ٨٥ دين)، ومع ذلك تعدّ من أفضل البلدان ديمقراطيةً وتعايشاً وتوافقاً؛ إذ إنها تحتل المرتبة الأولى في العالم في مؤشر الإيكونوميست للديموقراطية، والسابعة في مؤشر الأمم المتحدة للتنمية البشرية، وهي عضو في الاتحاد الأوروبي منذ ١ يناير عام ١٩٩٥، وأيضاً عضو في منظمة التعاون والتنمية

الاقتصادية، ومع أنها كما أظهرت الدراسات من أقلّ البلدان تديناً بوجود أحد أعلى معدلات الإلحاد في البلاد، وفقاً لدراسات مختلفة، لا يؤمن ٤٦-٨٥٪ من السويديين بالله، في إحصائية ليوروستات، أجاب ٢٣٪ من مواطني السويد باعتقادهم (بوجود الله)، بينما ٥٣٪ أجابوا (بوجود نوع من الروح أو قوة الحياة) وأجاب ٢٣٪ أنهم لا يعتقدون (بوجود أي نوع من الروح أو قوة الحياة أو الله)[1].

وهنا لا بد من تساؤل كبير أطلقه أحد المفكرين قائلاً: «لماذا تأخّر العرب وتقدم الغرب؟»[2] .

فعلى الرغم من أن المنظومة الاسلامية، وكما يقول ماكس فيبر مؤهلة أكثر من غيرها لحصول حداثة إسلامية تُحدث توازناً داخل مجتمعاتها، حينها يتم انتقال الوعي من الطابع الفردي إلى حياض النسق والتشكيل، ولا يتم هذا إلا من خلال رفع القدرة التنظيمية، وإقامة العلائق الانتاجية بلباسها الحديث، وهذا أيضاً لا يتم إلا بالارتباط بالعقيدة المحمولة التي يؤمن بها من يؤمن من الشعوب والمجتمعات، وهذا عينه أشار اليه ماكس فيبر في المشهد البروتستانتي الذي يرى بأنه السبب الرئيس في سطوع الحداثة وقوتها[3] .

إنّ الواقع العملي الذي نعيشه في المجتمع العربي يشير إلى عكس هذه النتيجة، فقد غابت الحداثة الاسلامية بوصفها وعياً ونسقاً وثقافة وحضارة غيرها، وحظر التطرف الموجود في بطائن الكتب ليتحول الى فعل مدروس له علماؤه ومتحدثوه ومريدوه الذين ليسوا من المسلمين في المجتمعات العربية فقط، بل نجد ويا للأسف عشرات الآلاف من الحشود البشرية التي تنتمي الى مدنيات وديمقراطيات واضحة في بلدانها، فنجد حزمة من الدواعش يحملون جنسيات مختلفة (أمريكية، وفرنسية، وبريطانية، وأسترالية، ونمساوية، وهولندية) فضلاً عن الدواعش من الدول الأخرى التي هي أقل ديمقراطية ومعرفة (الشيشان،

---

(١) انظر: ويكيبيديا، الموسوعة الحرة، مادة السويد .

(٢) انظر: برهان غليون في كتابه (اغتيال العقل) .

(٣) انظر: فيبر، ماكس، الاخلاق البروتستانتية والرأسمالية.

وأفغانستان، والهند، والباكستان) مع العرب الدواعش الذين يغلب عليهم العنصر السعودي، ثم المغربي، والجزائري، والليبي، والتونسي، والخليجي .

وهذا الحضور اللافت لهذه الأعداد من المتطرفين القادمين من داخل الدول الراعية للمدنية والديمقراطية، إنما حصل نتيجة للعمل المدروس، والدقيق، للأساليب التبشيرية التي تتبعها الدول الراعية للإرهاب، والغلو، والتطرف، بإيجاد آلاف الحواضن التبشيرية في هذه الدول، ومنها على سبيل المثال:

- مساجد.
- دور القران الكريم.
- مراكز إغاثة.
- مراكز إنسانية.
- مراكز ثقافية.
- مؤسسات علمية.

ما جعل هؤلاء - أي المتطرفين - يغادرون بلدانهم ليقودوا الجماعات الإرهابية التي كانت ابتداء تنطق باسم تنظيم القاعدة، واليوم أصبحت من تابعي (داعش) التي باتت من تفريخات وتفريعات هذا التنظيم.

محاكم التفتيش الأوربية وداعش .. ظهور لإرادة التشرع:

قلنا سابقاً: إن هناك فرقاً بين إرادة التشريع المرتبطة بالشريعة الأصلية، وبنسق الوحي والنصوص المقدسة والفهم السيال المتجدد مع الحفاظ على الثوابت، وبين إرادة التشرع المرتبطة بالدين المنحرف المكتوب بإرادة رجالات مرقوا عن الدين كما يمرق السهم عن الرمية (رجال الاكليروس، وفقهاء التطرف والقتل)؛ ونتيجة لفاعلية إرادة التشرع ولدت المشكلات المرتبطة بطفو الحدث الديني على سطح الحراك المجتمعي والمستغلة من لدن أنظمة الحكم وقادتها وتوظيف هذا الظهور براغماتياً لصالحهم .

لذا لا يمكن عدّ مأسسة الدين منجزاً لصالح الدين (تدكين الدين كما يقول أحد المفكرين)، بل على العكس يُعدّ ذلك فصل الدين كلياً عن مضمونه الأصلي وعبقريته التي نال من خلالها شرف الوصول الى العالمية بتخليه عن الأنانية وتقديمه لأنسانية الناس كل الناس، فضلاً عن ذلك فإن تاريخ الديانات يكشف لنا أنها عانت من جملة تحولات بعد تسويرها بأنظمة حكم تسوس المجتمعات، مثال ذلك، إن المسيحية المُمأسسة (المُمارسة لإرادة التشرع) وصنيعتها محاكم التفتيش ساهمت مساهمة رئيسة في الترويج للعنف الأشد دموية متغافلة عن الوصايا العيسوية الأساسية القائمة على مرتكز اللاعنف، ورفض التمييز بين البشر، وأيضاً رفض سياسة تكميم الأفواه، وفرض الآراء والمنهج الدوغمائي.

ومثال ذلك في الجانب الإسلامي، إن الإسلامية المُمأسسة (الإسلام الأموي المهارس لإرادة التشرع) وصنيعته داعش، ساهمت مساهمة فعالة ورئيسة في الترويج للعنف، وجعله أيديولوجيا وثقافة، بل عقيدة، وهنا لا بد من أن نعرف أن الدين ما إن يتمأسس ويُنظم ويُدار، فهو يُصبح تالياً ويمثّل مفارقة، كما يقول الدكتور جورج قُرم[1] وبهذه الصورة سيكون معرضاً للترهل التاريخي، وفاقداً لصفة تساميه الأولى، وكما نلحظ اليوم بتناهي الأسماع بين ساعة وأخرى ولادة فتاوى جديدة لرجال داعش ومفتيها، تصل الى حد السذاجة، وهذا ما يجعل من الآخرين (أصحاب الديانات الأخرى) يهزؤون بالدين الإسلامي، بل يجعلهم أكثر جرأة على الإسلام ونبي الإسلام، كما حدث في الفلم الدنماركي ، ويجب أن نلحظ أن داعش تعبّد الطريق للنيل من النبي محمد ﷺ، ففي فعالياتها العنفية والإجرامية - أي داعش - ترفع راياتها السوداء التي كتبت عليها شهادة التوحيد (لا إله إلا الله) وشهادة الرسالة (محمد رسول الله)، وهذا ما ينقل صورة سيئة، مؤدّاها أن جميع هذه الأعمال الإجرامية مُستلة من الشريعة الإسلامية .

نتيجة لما تقدم بات مفهوم الجهاد مرتبطاً بقتل المدنيين، على وفق الفهم الحاصل لدى

(١) انظر: قرم ، د. جورج ، المسالة الدينية في القرن الحادي والعشرين ، ترجمة : د. خليل أحمد الخليل، دار الفارابي ، (بيروت - ٢٠٠٧) ، ص ١٦٩ ، ١٧٠ .

المنظومة الغربية ، وهذا ما قاله الألماني ميشيل لودرس:

«طالبان والثوار السُنيّون في العراق يفهمون الجهاد كتبرير لقتل المدنيين أيضاً والكفار بشكل عام، جهاد بالبندقية ولا شيء آخر لا مفاوضات ولا مؤتمرات ولا حوار»[1].

وهذا ما يتوافق كلياً مع تعاليم المذهب الوهابي المرجع الديني لتنظيم القاعدة الذي فرخ وأولد كثيراً من التنظيمات وآخرها (داعش)، إذ يعتمد المذهب الوهابي الذي يُعد شكلاً أولياً للأصولية الإسلامية على ثلاثة مبادئ أيديولوجية، تستند بدورها الى آراء ابن تيمية[2] الذي عاش في العصور الوسطى، والمبادئ هي:

المبدأ الأول: إن العلماء - أي رجال الدين - هم المسؤولون عن تطبيق الشريعة، وتعدّ الحكومة إسلامية إذا دعمت العلماء في هذا المسعى، والحاكم الذي يتبع الشريعة يستحق الولاء والطاعة.

المبدأ الثاني: إن القرآن والسنة هما أساس القانون الإسلامي، ولكن حُصرا مع مراعاة الفقه، كما طبق في عهد الخلفاء الثلاثة الأوائل (أي بدون الخليفة الإمام علي عليه السلام الأول عند الشيعة)، وهذا يعني بكلمات أخرى أن المعايير القانونية الوحيدة المقبولة هي تلك التي تعود إلى القرن السابع الميلادي .

المبدأ الثالث: وهو المبدأ الذي خرجت من جيبه عاصفة العنف والتكفير، على أن كل شكل من أشكال الإسلام الشعبي - كما يقول المذهب الوهابي - ولا سيما تقديس الأولياء الصالحين وضرائحهم، يُعد تجديفاً على الله وإهانة له[3]، ومن هذا المبدأ تمت الجرأة وبنحوٍ صارخ على المسلمين وتكفيرهم وقتلهم .

ففي سنة ١٨٠٢ هاجم الوهابيون الزوار الشيعة في كربلاء في العراق، وقتلوا ٢٠٠٠

---

(١) انظر: لودرس، ميشيل، في ظل الله، ترجمة : محمود كبيبو، دار الوراق للطباعة والنشر، بيروت ، ط١ ، ٢٠٠٩، ص ٤٤

(٢) انظر: فيبر، ماكس، الاخلاق البروتستانتية والراسمالية .

(٣) انظر: في ظل الله ، مرجع سابق ، ص ١٤٧ ، ١٤٨ .

حاج، ثم دمروا قبر الحسين (سيد الشهداء) وقبل ما يقارب ٩٠ عاماً احتلوا مكة والمدينة، وطردوا الشريف حسين حليف لورنس العرب، وبهذه المناسبة أمر عبد العزيز بن سعود (١٨٨٠ ـ ١٩٥٣) مؤسس المملكة العربية السعودية بإعدام ٤٠٠٠٠ رجل من خصوم الوهابية، وفي الوقت نفسه دمر الوهابيون قبر النبي محمد ﷺ، وقبور صحابته، وأيضاً ضريح محمد وأسرته، التي كانت قد أصبحت محجاً للمسلمين، ثم نهبوا خزينة مسجد النبي في المدينة، ونزعوا منه جميع الكتب التي وجدوها باستثناء القرآن، ومنعوا الموسيقى والزهور والتبغ والقهوة، وأجبروا الرجال تحت التهديد بعقوبة الإعدام على إطلاق لحاهم، والنساء على ارتداء الحجاب، والانسحاب من الحياة العامة، وهذا يذكرنا كثيراً بطالبان الذين ما زالوا حتى اليوم يتلقون الدعم من المملكة العربية السعودية، وحتى ١١ سبتمبر أيلول ٢٠٠١ بنحوٍ رسمي، وأيضاً ينطبق على داعش بكل حيثياتها[1].

---

(١) انظر: لودرس، ميشيل، في ظل الله، ترجمة: محمود كبيبو، دار الوراق للطباعة والنشر، بيروت، ط١، ٢٠٠٩، ص ١٨٩، ١٤٨.

الفصل الثاني

مفهوم الجهاد لدى داعش:

بكل الأحوال لا يمكن أن يتفق مضمونا مفهوم الجهاد لدى داعش مع مفهومه - أي الجهاد - على وفق الشريعة الاسلامية، ومصاديق الاختلاف كثيرة ، فالجهاد عند الداعشيين قد تقزّم وحُصر بالقتال أي العنف، وحتى الجهاد العنفي (القتال) فنجد له حزمة من المعايير، إن حضرت تم تفعيله، وإن غابت عُطل، وهذه المعايير أوجدتها الشريعة الإسلامية من أجل تقنيين هذا الشكل من أشكال الجهاد.

إن الجهاد الإسلامي يجب ألا يكون على خط التماس مع الحرب الدينية التي أوجدها القائمون على الكنيسة في العصور الوسطى لتبرير سيناريو الاشتفاء والبراغماتية من أرباب الديانات الأخرى وأصحابها التي لا تتفق مع الهوى الكنائسي آنذاك، بل الإسلام يستنكر ولا يقر بأي حرب دينية، فالإيمان الإسلامي يراد به: الأعمال الباطنة، وهي أعمال القلوب كالإيمان بالله تعالى، وحبه وخوفه ورجائه سبحانه وتعالى والإخلاص له، أو بمعنًى آخر هو تصديق قلبي يبلغ مرتبة اليقين، وهو سر بين المؤمن وخالقه لا يتأتى إلا بالفهم والإقناع والاقتناع .

ولا يمكن أن يكون الإيمان الإسلامي ثمرة لأي لون من ألوان الإكراه، فضلاً عن أن يكون هذا الإكراه عنفاً قتالياً؛ ولذلك قرر القرآن الكريم القاعدة المحكمة والحاكمة ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾[1]، التي لا تعني فقط النهي عن الإكراه في الدين، وإنما تعني أيضا نفي أن يكون هناك دين أو تديّن عن طريق الإكراه ، إذ الإكراه يثمر نفاقاً، وهو أخطر من الشرك الذي استُثني الواقع فيه من رحمة المغفرة (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء)، ولا يمكن (أي الإكراه) أن يثمر إيماناً بحال من الأحوال، ولذلك شاعت في القرآن

(١) سورة البقرة، ٢٥٦ .

الكريم الآيات التي تقول للمخالفين[١]:

﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾[٢].

﴿ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾[٣].

والتي تحدد مهمة الرسالة في الاعتقاد ﴿ مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ ﴾[٤].

﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ (٢١) لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴾[٥].

﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ ﴾[٦].

﴿ وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴾[٧].

ولا بأس أن نثير في هذا المحل الاستفهامات الآتية:

- هل حدث خلط بين الجهاد الإسلامي والحرب الدينية المقدسة؟
- وهل لهذا الخلط - إن وجد - أثر من آثار سوء الفهم للإسلام أو سوء النية في تصوير الإسلام ؟.
- وهل تم اختزال الجهاد الإسلامي في القتال الذي تحدث عنه القران الكريم، ومارسه المسلمون في عصر النبوة ، وكما أشرنا إليه في بداية هذا المبحث؟.
- وهل أصبح ذكر الجهاد اليوم مرتبطاً بذكر الإرهاب؟.

---

(١) انظر: عمارة ، د. محمد ، حقيقة الجهاد والقتال والارهاب ، (القاهرة - ٢٠٠٥م) ط ١، مكتبة الشرق الدولية ، ص ٥١ .

(٢) سورة الكافرون : ٦.

(٣) سورة الكهف : ٢٩.

(٤) سورة المائدة : ٩٩ .

(٥) سورة الغاشية: ٢١ ، ٢٢.

(٦) سورة ق: ٤٥.

(٧) سورة الأنعام : ١٠٧.

وفيما يخص الاستفهام الأخير الخاص بمفهوم الإرهاب واختلاطه، أقول:

نعم قد تختلط مفاهيم المصطلحات وإيحاءاتها في أحيان كثيرة، الى حدّ يصعب التمييز بينها، كما يصعب التميز بين الفجرين الصادق والكاذب ، وهذا بحدّ ذاته (أي اختلاط المفهوم)، يعدّ ركيزة أساسية وبنية من بنى السجال الأيديولوجي، وهذا ما يحصل غالباً في المصطلحات التي يقل تداولها وتضعف هيمنتها، أما لقلة الحاجة إليها؛ لمحدودية شأنها، أو لتعرضها لتطورات المفهوم، فنُحت الفهم الأول وأُعيض عنه بفهم ثانٍ أكثر وعياً وملائمة لمتطلبات الحاجة والعصر والتوجه الحاصل في النسق العام والخاص، ولكن حينما يكون الحديث عن مصطلح الإرهاب وفهمه، لا بد من أن يكون هناك وضوح وعدم التباس وغلق لباب التأويل في فهمه على الأقل؛ لأن العالم اليوم من أقصاه الى أقصاه يتداول هذا المصطلح؛ نتيجة للحراك العالمي (ظاهراً)؛ لتقليص هيمنته بعدما اكتوت بلظاه كبار دول العالم.

والسؤال الكبير هنا، هل ثمة اختلاف أو اختلاط في الإيحاء المفاهيمي لمصطلح الإرهاب؟ الجواب ظاهراً لا يوجد؛ بدليل وجود سقف واحد من الاستعمال لمفهوم هذا المصطلح من لدن دول التحالف الدولي، هذا أولاً ، وثانياً ، المعني به (أي فهم مصطلح الإرهاب) أولئك المتطرفون المتشددون من الذين يُحسَبون على الإسلام، إذ أصبحوا المصداق الحقيقي لمفهوم الإرهاب على وفق المنظومة الغربية، وأرى أن هذا بيت القصيد الذي تريد أن تصل إليه الماكنة الغربية بمنظوماتها المختلفة (السياسية والدينية والاعلامية)، ولكن الواقع يختلف كثيراً ، فمفهوم الإرهاب على وفق الرؤية الغربية:

(يعني استخدام العنف غير المشروع لترويع الآمنين ولإكراههم على قبول ما لا يريدون، وخصوصاً عندما يكون هذا الإرهاب تمارسه السلطة الحاكمة ضد المحكومين).

أي إرهاب دولة، في حين يكون مفهوم مصطلح الإرهاب على وفق اللغة العربية والقرآن الكريم يختلف جذرياً عن المفهوم الشائع للإرهاب الذي هو رجع الصدى للفهم الغربي، فقد ورد في كتاب (المفردات في غريب القرآن) للراغب الأصفهاني ما يشكل نقيضاً للمتداول،

فهو «الرهبة بمعنى المخافة مع تحرز واضطراب»[١] واعتقد أن الباحث اللبيب العاقل لا يمكن أن يجعل المخافة والرهبة في ميزان التعادل مع العنف، وإذا حصل ذلك فثمة سيناريو ضخم وخطير جداً يحاك تجاه المنظومة الإسلامية بأجمعها، يجب أن يُفهم وبأسرع وقت .

عوداً على بدء، لا يختلف اثنان على أن الجِهَاد هو أيديولوجية إسلامية، صدع بها القرآن الكريم، وعلى مر السنين والعصور، شكل مفهوم الجِهَاد مادة للمناقشة فيها بين المسلمين بالدرجة الأولى في مديات التحرك الجهادي، وهذه المساحة من اختلاط المفهوم هي التي أوجدت جماعات التطرف والعنف، التي صنفتها الولايات المتحدة الأمريكية على أنها إرهابية بعد قارعة الحادي عشر من أيلول سبتمبر من العام ٢٠٠١، فقد شهد هذا اليوم هدم اثنين من أعلى الأبراج وأضخمها في العالم، برجي مركز التجارة العالمي(توين تاورز). فضلاً عن تكبّد البنتاغون، المركز الأمِركي التجاري، خسائر بشرية ومادية جسيمة. الأمر الذي أدّى إلى زعزعة ثقة الأمِركيين بأمنهم وإصابتهم بخيبة أمل دخلت في صميم نفوسهم، فضلاً عن الولادة المدروسة والمفبركة لمفهوم الإسلام فوبيا؛ لذا قامت الولايات المتحدة الأمريكية بالاشتراك مع الحكومة البريطانية بتصنيف ٢١ منظمة على أنها مجموعات إرهابية - وغالبيتها إسلامية ، علماً أنها لم تفرق بين الجهات التي تحارب إسرائيل وتقاوم مقاومة شرعية اعترف بها العالم الحر، وتلك التي هي فعلاً إرهابية تقتل الحياة والأديان على حد سواء ، وهذه اللائحة وكما وردت بهذا التصنيف :

١. القاعدة - ابن لادن .
٢. المجموعة الإسلامية المسلحة - الجزائر.
٣. الجماعة السلفية للدعوة والقتال - الجزائر.
٤. حركة الجِهَاد الإسلامي في مصر.
٥. الجماعة الإسلامية - مصر .

(١) المفردات: ٢٠٤ (رهب) .

٦. المنظمة الثورية ١٧ نوفمبر - اليونان .

٧. مجاهدو خلق الإيرانيون المنشقون في العراق .

٨. حماس- إسرائيل، في السلطة الفلسطينية .

٩. حركة الجِهَاد الإسلامي الفلسطينى - إسرائيل .

١٠. حركة المجاهدين - كشمير

١١. جيش محمد - كشمير .

١٢. لاشكار طيبة - كشمير .

١٣. نمور حركة تحرير تاميل إيلام - سري لانكا .

١٤. حزب الله - لبنان .

١٥. بابار خالصا - سيخ في الهند .

١٦. منظمة شباب سيخ العالمية - سيخ في الهند .

١٧. أبو نضال - الفلسطينية .

١٨. جماعة الباسك لوطن الآباء والتحرير (إى تى إيه)- أسبانيا .

١٩. حزب العمال الكردستاني - تركيا .

٢٠. جيش التحرير الشعبي الثوري - تركيا اليسارية .

٢١. الجيش الإسلامي لِعَدَن - اليمن[1].

في هذه الحقبة الزمنية لم يكن لتنظيم داعش في أرض الوجود اسم وأتباع، ولكنه موجود في ضميمة التنظيمات التابعة للتنظيم الأم (القاعدة)، فمفهوم الجهاد مشترك داخل هذه العوالم القائمة على أساس الفهم البراغماتي للدين (استباحة الدم والمال مع السبي والاستيلاء على الأرض)، كما تفصح عنه جماعات داعش، إذاً التنظيمات الإرهابية القاعدية أورثت وليدها (داعش) كل ما تحمله من مفاهيم، ومنها مفهوم الجهاد .

(١) انظر: ن . س . ر . ك ، الدكتور رافي ، الجِهَاد في الفكر الإسلامي ، المقدمة.

فما الجِهَاد الذي لا تفهمه داعش؟

إن الجهاد في اصطلاح العربية، كما جاء في لسان العرب[1]، هو (استفراغ ما في الوسع والطاقة من قول أو فعل)، والجهاد في الاصطلاح القرآني هو بذل الوسع في المدافعة والمغالبة في كل ميادين المدافعة والمغالبة، أي في كل ميادين الحياة، وليس في ميادين القتال، وأكثر ما ورد الجهاد في القران الكريم ورد مراداً به بذل الوسع في نشر الدعوة الإسلامية والدفاع عنها[2]، وسبيل الدعوة الإسلامية هو الحوار بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن، وليس بالقتال والإكراه والحرب الدينية المقدسة، فميادين الجهاد الإسلامي الأكبر والأعظم والأغلب هي عوالم الأفكار والحوار[3].

وبناءً على ما تقدم من تعاريف للجهاد نستطيع الإجابة على التساؤل الآتي : هل تعرض مصطلح الجهاد من حيث المضمون إلى خلط مع مضامين مصطلحات أخرى كـ (القتال، والإرهاب)؟

الواقع الذي نعيشه اليوم يشير إلى حدوث هذا الخلط بين مضامين المصطلحات المذكورة آنفاً، نعم، إنه لا مُشاحَّة في استعمال المصطلحات من لدن الجميع على اختلاف دياناتهم وحضاراتهم وثقافتهم وزوايا الوعي لديهم ومحمولاتهم الأيديولوجية، لكن الحفيظة موجودة حيال مضامين هذه المصطلحات، قد تختلف مضموناً حتى ضمن النسق الفكري الواحد، على الرغم من زاوية النظر التي يتوجه صوبها المصطلح، وهذا يسري في عموم النظر إلى المصطلحات إلى خصوص المصطلحات التي نتحدث عنها، وعلى رأسها (الجهاد)، وهنا أرى أن الخلط الخاص بمفهوم مصطلح الجهاد متأتٍ من ضبابية فهم منظومة الدين ، فإذا ذُكر الدين لدى الأعم الاغلب ممن يعدون من أرباب التخوم التي تملك وعياً قاصراً منشداً الى بدايات العلاقة مع المطلق، حيث لم يتصوره إلا محض علاقة فردية بين الإنسان وخالقه، تقف

(١) ابن منظور (٦٣٠ - ٧١١هـ، ١٢٣٢- ١٣١١م) ، لسان العرب .
(٢) مجمع اللغة العربية (معجم الفاظ القران الكريم) ، طبعة القاهرة (١٣٩٠هـ - ١٩٧٠م) .
(٣) حقيقة الجهاد والقتال والإرهاب ، مرجع سابق ، ص ٥٢ .

عند تحرير الروح والانتصار للسماء، ومن ثمّ ضمن هذا اللحاظ ستكون الارض وعالمها خارج حدود الدين ، وهذا ما يشير اليه السلوك الصادر من لدن أولئك الذين فهموا الجهاد وقزموه فقط بالقتال، وهذا الخطأ الأكبر بالمعادلة، فهؤلاء يختزلون الجهاد الإسلامي في القتال فقط، الذي تحدثت عنه الشريعة الإسلامية السمحة في منظومة من الضوابط والمعايير، إن وجدت أطلق بند القتال في الجهاد، وإن لم توجد غابت وتقيد الجهاد، فالجهاد - وكما قلنا في الاصطلاح القرآني - (هو بذل الوسع في المدافعة والمغالبة)، وهذا يعني حضوره في كل الميادين الخاصة بإعمار الحياة ليس ساحات القتال فقط؛ لذا عندما نجد البحث عن الجهاد في القران الكريم نراه يرتبط ليس بالقتال فقط، بل بجهاد الروح عن الاتيان بالموبقات وجهاد النفس والعائلة عن طريق العمل الصحيح، وهنا تُفتح لنا المساحة الحقيقية للجهاد، فالجدال الواعي هو جهاد، والصلاة الإيجابية المنتجة للحب وقبول الآخر هي جهاد ، وعمران الأرض بأصنافه شتى هو جهاد ، وإماطة الأذى عن الطريق جهاد، واستثمار الطاقات بالنحو النافذ الفعال أيضا جهاد، والرفق بالحيوان جهاد، والاهتمام بالزرع والضرع جهاد، وصلة الأرحام هي جهاد، إذاً كل ما يرتبط بإنتاج الفعل الإنساني هو جهاد على اختلاف منطلقاته، وعليه فحقيقة الجهاد أوسع مما يظنه أولئك الذين قيدوه بالذبح والقتل والتشريد، وكما أباحته لهم عقيدتهم التي لا تمتّ بصلة إلى العقيدة الإسلامية بصلة .

لذا وعلى وفق ما ورد في المذكور آنفا، فالجهاد الذي تمارسه داعش، ليس له مصاديق تمس الفهم الاسلامي المعبأ في النصوص القرآنية ، ولنطلع الآن على ما ورد في كتاب (واقع الجهاد في العراق)[1]، وتحديداً آثار دعوة فريضة الجهاد المعاصر على المسلم والأمة، وكما يراها الجهد الاعلامي للتنظيمات التي ترى نفسها حاملة لمشعل الجهاد الإسلامي، فقد وردت نقاط كثيرة، كآثار لفريضة الجهاد الممارس من لدنهم، وكما تفهمه هي - أي داعش - وكما قلنا سابقاً: هناك سقف اشتراك في منطلقات هذه الجماعات الإرهابية، ومنها (داعش) موضوع البحث، وسنناقش هذه الآثار في النحو الآتي :

---

(١) آل بهاء ، أبو ابراهيم ، واقع الجهاد في العراق ، ديوان الاعلام ، ص ١٩ .

الأثر الأول: مكافحة فقه التبرير وإرثه المتراكب الذي شرع للطواغيت الاستبدادية والظلم والردة، وشرع للمسلمين اعتناق فكر الإرجاء ووجوب الطاعة العمياء، وحرمة الخروج على ولاة الجور وحكام الردة .

مناقشة هذا الأثر: ستكون مناقشة هذا الأثر وغيره مستلة من الأفعال والأفكار والمعتقدات الداعشية، وفيما يخص هذا الأثر، فالأيديولوجية الداعشية تعوم على ملكة التبرير الذي لا يرتبط بهدف نبيل، يشدك إلى الإسلام الأصيل ، فلم يكن للشريعة الإسلامية فقه يستبيح الدماء، ويخوض في الشبهات كما هو اليوم عند داعش، بل إن الأخذ بالشبهات نجده في صفحات محاكم التفتيش التي تتفق مع الرؤية والمسار الداعشي ، إذ تعتمد هذه المحاكم على المبدأ الآتي الذي سنّ على وفق فرمان الإيمان:

«لأن يُدانَ مئة بريء زوراً وبهتاناً ويعانوا العذاب ألواناً ، خيراً من أن يهرب من العقاب مذنب واحد »[1].

وشبيه هذا المبدأ لا يحتاج الى عناء في البحث عنه، فوجوده واضح في سلسلة سلوكيات داعش ، فمشاهد الإعدامات الجماعية ومقاطعها المنشورة في صفحات الشبكة العنكبوية، ومواقع التواصل جعلت العالم بكامله ينفر من الإسلام ، فقد قام الداعشيون بقتل الشيعي والمسيحي والشبكي والتركماني والصابئي واليزيدي والسني المخالف لمعتقد داعش العقائدي، وهذا السلوك الداعشي يتناقض تماماً مع القاعدة الإسلامية التي أوردها حجة الإسلام أبو حامد الغزالي في أحد كتبه، التي تقول:

«ينبغي الاحتراز من التكفير ما وجد الإنسان الى ذلك سبيلاً، فإن استباحة الدماء والأموال من المصلين إلى القبلة المصرحين بقول لا إله إلا الله ـ محمد رسول الله، خطأ والخطأ في ترك الف كافر أهون من الخطأ في سفك محجمة من دم مسلم »[1] .

---

(١) حقيقة الجهاد والقتال والارهاب ، مرجع سابق ، ص ٤٩ .

الأثر الثاني: أسس أصول معالجة اللامعيارية واللاعهدية التي يبثها السفسطائيون وأهل الكلام بين المسلمين، والتي نشرت وباء تفشي اللامسؤولية والاتكالية .

مناقشة الأثر: هذا الأثر تريد داعش ومن يشاركها، دفع المتابع الى مفهوم الجهاد المحمول من لدنهم، وإعطاءه - أي المتابع - انطباعاً يقوم على أساس قيام وعي نهضوي إسلامي تقوده داعش، والذي فاتها - أي داعش - أن العودة الى حالة الوعي الإسلامية، لا تتم بالدعوة إلى الجهاد كما تراه هي؛ لأن المسلمين بحاجة إلى نهضة أفقية تتم بهدم آثار الحالة التي وصل إليها المسلمون بعد سبعة قرون من ولادة الإسلام ، إذ حل التدوين محل التأليف، والذاكرة محل العقل؛ ما أوجد التكرارات والشروحات المملة، لما وصل إلينا من منجز إسلامي أبدعته العقول الإسلامية في القرون الماضية؛ لذا ما يُخرج المسلمين من وباء اللامسؤولية والاتكالية ليس الجهاد الداعشي، بل هي نهضة شاملة تنبع من الداخل الإسلامي لا من خارجه .

الأثر الثالث: أسس معايير فقه الاستقلال والأصالة، الذي بعث الثقة بقدرة المجاهدين على التغيير في الأمة، وكافح فقه التبعية، والتقليد الذي يدعو إلى الذلة ومسخ العزة .

مناقشة الأثر: من الثابت أن الدعوة الى التغيير موجودة في حيثيات الديانة الإسلامية الداعية إلى التجديد، وهي بذلك تستند الى دستورها الأمثل (القرآن الكريم)، فالقرآن نفسه متجدد مع الأزمنة، وعندما سُئل الإمام الصادق عليه السلام «ما بال هذا القرآن لا يزداد عند النشر والدرس إلا غضاضة ؟ أجاب الامام عليه السلام؛ لأن الله لم يجعله لزمان دون زمان، ولا لقوم دون قوم فهو في كل زمان جديد، وعند كل قوم غض الى يوم القيامة». يتضح من هذا أن القدرة على التجديد ضرورة ثابتة في أساسيات الدين الإسلامي، ومن خلالها يتم انفتاح المسلمين على الآخرين من دون المساس بقدسية الثابت العقائدي، ولننظر الآن متسائلين :

أيحقّق الجهاد الداعشي القدرة على التجديد، أم العكوف على القديم مع فهمه السيئ ؟

---

(١) الغزالي ، أبو حامد (٤٥٠هـ ـ ٥٠٥ هـ ، ١٠٥٨ - ١١١١م) ، الاقتصاد في الاعتقاد ، ص ١٤٣ .

وكيف تحقق قدرة التجديد لديه؟

أتتحقق بالفتاوى الشكلية القاضية بلبس النساء للنقاب، وعزلهن واستغلالهن في جهاد النكاح، وضرب رقاب المدخنين، وعدم النظر إلى مباريات كرة القدم؟ أم تتمّ القدرة على التجديد بالتمازج الكبير بين الأفكار والطروحات التي من شأنها بناء الإنسان وعلى مستوى الثقافات والحضارات والأديان المحمولة في العالم كافة.

الأثر الرابع: صارع نزعة استحواذ علماء السلاطين على توجيه الرأي العام، وتسهيلهم قيادته من لدن الطواغيت.

مناقشة الأثر: وقائع الأحداث تشير إلى عكس ما ذكر في هذا الأثر، فالجهود الداعشية تعمل على القيام بتنفيذ الفتاوى الصادرة من الحكومات الراعية للإرهاب، وهي معلومة للقاصي والداني، ولا أريد الإطالة في مناقشة هذا الأثر لوضوح بطلانه ؟

الأثر الخامس: عالج ثغرات القيم التي جاءت بها النظريات الحزبية فأدت نظرياتهم إلى توهين تماسك المجتمع الإسلامي أو ثلمته.

مناقشة الأثر: سنعتمد في هذه المناقشة على ذكر آخر الإحصائيات الكاشفة عن أعداد المشردين والنازحين والمهجرين في العراق وسوريا بفعل الهجمات الداعشية التي تحمل فضلاً عن قسوتها، قيماً باطلة أدت الى تفكيك بنية المجتمع الإسلامي، بلغ عدد النازحين بعد دخول داعش إلى الموصل أكثر من مليون وثمان مئة مواطن عراقي نازح ومهجر، وبلغ عدد المهجرين واللاجئين في سوريا أكثر من ثلاثة ملايين.

هذه بعض الآثار التي وردت في كتاب (حقيقة الجهاد في العراق)، والبقية لم أقف عندها لهزالها الواضح.

كلام في العنف الداعشي:

العنف آفة خطيرة، ومرض عضال، أصاب كل المجتمعات البشرية، وهو نتيجة غلو في عقيدة أو نظرية أو رؤيا أو رأي أو تصنيم لشخص أو جهة ما، ومن ثم يُفسد على هذه المجتمعات حياتها وعقائدها، ويوردها مورد الهلاك، كما في الحياة الدموية بعد انطلاق العنف في عهد محاكم التفتيش، وأيضاً كما في الحياة الدموية بعد انطلاق السلوكيات الداعشية العنيفة المتطرفة في المناطق التي سيطرت عليها في سوريا والعراق .

لا شك في أن العنف لا ينمو ولا ينتشر إلا في الأوساط الجاهلة والمتخلفة؛ ولذلك إن عوام الناس وجهالهم هم المادة الرئيسة، والرجالات الحقيقيون لهذا المرض الخطير، فإذا حضر العنف في مجتمع ما، فهذا يعني حضور محركاته، والمحرك الرئيس هو الغلو، والغلو ينبع من الجهل، ويختفي في الأوساط التي تعتمد الحجة والدليل والبرهان؛ ولذا عندما نجد أن العنف هو الثقافة المعتمدة لدى داعش فيعني حصة الدليل والبرهان، ودحض الحجة بالحجة قليل، ومظاهر العنف الداعشي أكثر مما تعد وتوصف، (قتل بالرصاص، وذبح بالسيف، وسبي، وجلد، وتهجير، ومصادرة أموال، واستباحة أعراض، وهدم دور عبادة، ونسف مراقد أنبياء وأولياء ... الخ).

والناظر الى أمثلة العنف هذه يستشف ما يأتي:

- تجذر التخلف الحضاري والثقافي لدى داعش .
- تحول العنف لدى داعش إلى عقيدة وانتماء، بمعنى آخر تحوله إلى مذهب ونظرية وأيديولوجيا .

أسباب العنف عند داعش:

السبب النفسي والعاطفي: إن من طبائع الإنسان ، المادية ، التي أوجدت فيه هذا النزوع نحو التصنيم؛ ولذلك بُعث الأنبياء بشرائع كثيرة من أجل إحداث التوازن والارتقاء إلى

مستويات عالية من الوعي السلوكي والوعي المدرك لما فيه، فالمؤثرات المادية المنحرفة جعلت من رموز التسنن الأموي (ابن تيمية- الرمز الفقهي، محمد بن عبد الوهاب - الرمز التابع للرمز الفقهي) رموزاً مجسدة تمثل القيم المقدسة ويُصبح المريد لهما ميالاً الى التفاعل معهما إلى حد التصنيم، ورفض كل ما ورد وصدر من المنظومات، والمذاهب الفقهية الأخرى .

السبب السياسي: قلنا في موضع سابق: إن الإسلام الأموي أخفض ربقة الشريعة لصالح السياسة والسياسيين؛ لذا نجد كثيراً من الرؤى والمسارات الفقهية رسمت لأسباب سياسية، وهذه المسارات الفقهية أصبحت طريقاً يُمشى فيه، ويعبد للقادمين من عمق المستقبل حتى بات فقها يعتد به، ويعدّ من المسلمات والثوابت التي يمثّل الخروج عنها خروجاً عن الدين .

داعش وليدة انحراف المؤسسات الثلاث (السياسية، والاجتماعية، والدينية):

إذا تضافرت جهود الجهل والانحراف والظلم، فماذا ستكون المحصلة ؟ لا شك في أنّ المحصلة هي لا علم ولا استقامة ولا عدل؛ لذا وبلا غلو نستطيع القول: إن تضافر جهود المؤسسة الاجتماعية الجاهلة، والمؤسسة الدينية المنحرفة والمؤسسة السياسية الظالمة، قد أنتج إلى الوجود مناخات راعية لكيانات منحرفة الوجود والتشكل، ومنها ما يسمى (داعش) وللتفصيل أقول:

داعش نتيجة الإسلام الأموي المنحرف:

قبل أن أدخل في تفاصيل هذه النقطة، أدعوا القارئ للتمييز بين نوعيين من الفقه الأول الملتصق بعهد النبي (الراشدي)، والذي هو قريب إلى حقيقة التسنن الأصيل، والآخر الفقه (الأموي) المنحرف عن الفقه الأول، الذي لا يقره مسلم متدين يرى الأمور بعين الانصاف والتقصي .

لقد أنتجت لنا السلطة الاموية فقهاً في كثير من مفاصله، يُخضع الدين للسياسة ومن ثم

نرى في تاريخه، قد نصبت كثيراً من المشانق للأبطال، والأبطال هنا ليست لديهم خوارق جسدية ضخمة، وقدرة عالية في الضرب بالسيف، والطعن بالرمح في ساحات الميدان ، بل تكمن بطولتهم في المطالبة بالحقوق والعيش الآمن وإطلاق التوصيفات الواقعية، لما يعيشونه تحت أجواء تلك السياسات الظالمة؛ نتيجة للتحالف بين السياسة والدين ، تحالف الحاكم الظالم مع رجل الدين المنحرف ، ومن ثم جرى كثير من الأمور مجرى الشريعة على الرغم من أنها لا تعدّ لا من قريب ولا من بعيد ذات صلة بأصل الشريعة؛ لذا نجد النشاطات التالية الصادرة منها التي كان لها جور في تغيير المثير من المفاهيم ، منها:

التقول على لسان النبي ﷺ بوضع أحاديث لم يقلها النبي، ونتج عن ذلك وجود بُنى فقهية وعلى وفق هذه الأحاديث الموضوعة ، وعليك أن تتصور حجم الضرر الكبير الناتج عن هكذا أسلوب .

تعمد الحكام الأمويون في إخفاء مناقب كل من تختلف معهم بالراي ومكانتهم، ومحاولة تشويه سمعتهم، وحصل هذا لكثير من رجالات الدولة الإسلامية، وهي من الوضوح ما يجعلني لا أذكرها .

تعمدهم طمس الوعي العقائدي الصحيح، القائم على أساس رسم علاقات صحيحة بين الإنسان وربه، وبين الإنسان وأخيه الإنسان، وبين الإنسان ومحيطه، فإذا انطلق هذا الوعي، وأقصد العقائدي بنحوٍ صحيح، فإنه يعدّ اساساً لكل أنواع الوعي الأخرى، الأخلاقي والسياسي والتربوي والاجتماعي، فالوعي العقائدي - لا شك - يعدّ محركاً لعجلة التاريخ والنبراس الأول لحركة التغيير عند مجمل المجتمعات .

وفي كل الأحوال لا يمكن أن تكون (داعش) مستندة الى وعي عقائدي يشدها إلى الشريعة الحقة، بل هي من مصاديق الفقه الأموي مع زيادة في التطرف .

داعش تهزم بنهضة عربية إسلامية، فما السبيل اليها؟

قبل الحديث عن النهضة الإسلامية والعربية الهازمة لداعش، أريد إثارة تساؤلات عن نهضة المجتمع العربي:

عندما كان مجتمعنا العربي الإسلامي يمثل مركزاً للحضارة في العالم، ولا سيما في العصر العباسي الذهبي، كان هذا السؤال مطروحاً من لدن المجتمعات، فيما وراء المحيطات وبالنحو الآتي (ما الذي يدفع المجتمع الأوربي إلى النهوض؟)، وهذا السؤال لم يأتِ جزافاً، بل له مصاديق واضحة، تشير إلى رقي المجتمع العربي آنذاك، ممّا جعله أسوة ومثالاً ، بغداد وحدها على سبيل المثال، كان فيها (٢٦ حماماً عمومياً)، أي أكثر من عدد الحمامات الموجودة في أوربا قاطبة ، وتعدّ هذه نتيجة منطقية تتلاءم مع حجم الوعي النهضوي المحمول، وعلى نحو حركة التشكيل (النسق)، وليس على نحو النبوغ والإبداع الفردي، فما الذي حصل ؟ ما الذي جعل التدوين يحل محل التأليف والذاكرة محل العقل؟ وعلى وفق هذه التحولات بدأت المجتمعات العربية بالتراجع الواضح، حتى أصبحت تدريجياً تشكل طرفية الحضارة لا مركزاً لها كالسابق، مرة ثانية، ما الذي حصل؟ هل أسأنا فهم النهضة، وعلى وفق المستجدات الحاصلة في حركة العالم اليوم ؟ وما الذي يميز النهضة عن الحداثة بحسب القناعات العربية المحمولة ؟ هل فهمت المجتمعات العربية أن النهضة في دور من أدوارها الرئيسة تعمل على عقلنة الحداثة الداخلة إليها بإخضاعها إلى معايير عقلية واجتماعية وأخلاقية ؟ وهل نستطيع أن نعد ربط التاريخ بالحضارة، وتحرير الوعي التاريخي العربي من إشكالياته الماضية، هو من أولى خطوات النهضة ؟ ثم هل يعرف أصحاب الشأن أن الحضارة الصادرة من جيب النهضة لا يمكن أن تكتسب وتستوعب إلا بتأكيد الذاتية، في حين لا تتمّ الحضارة الخارجة من جيب الحداثة إلا بالقضاء على التراث، وعليه يجب أن نعرف، أين نحن بين مستويات النهضة والحداثة؟ بمعنى أنحن نعيش تحديث أم نهضة؟ ما الذي يدفع المجتمع العربي إلى النهضة ؟ أإن إدراك المجتمع العربي لمحدوديته، وإنه لا يمثل محور العالم، وإنه حامل مشعل الحضارة والمدنية، يدفعه للنهضة؟ ثم هل نستطيع القول: إن أصل اللانهضة والتخلف

واللامعاصرة واللافاعلية لا ينبع من استمرار وجود التراث علينا وتأثيره ، وإنما من بقاء هذه الحداثة نفسها غريبة ومغربة، وأداة تفكيك وتقسيم؟ ثم ما رأينا مما يراه البعض من أن الجدال التاريخي الدائم بين القديم والحديث، لا يهدف فعلاً الى حل مشكلة الحضارة ولا الذاتية، ولا إلى إيجاد نظرية في النهضة، ولكن - على العكس - فإنّ غيابها، وغياب الوعي النهضوي؟ يركّز على موانع الفكر من فهم الواقع؛ وبالذات السجال الايديولوجي الذي يعمل وظيفياً على إنتاج هذا الشقاق الشامل في الوعي والمجتمع ، هل لها دور في تقييد النهضة ؟ انفصال الفكر عن الواقع أو ما يسمى العقلية السكولستيكية، هل له دور في تقييد وتضييق منطلقات النهضة ؟ ابتسار الواقع أو تجزئته، والهرب من المسؤولية الفكرية والتقلب الدائم، هل يعدّ غياب مثل هذه الاعراض سبباً رئيساً للنهضة؟ هل نستطيع القول: إن صاحب المنطق العصري، والدعوة الحديثة الذي وقف على أرضية الثقافة الغربية، ومفاهيمها لن يقبل أن يحاور الأصولي أو التراثي على أرضية المفاهيم التقليدية الدينية أو القومية، ومن ثم يمثل هذا الموقف حجر عثرة في دوران عجلة النهضة؟ ثم هل تحدد طبيعة العلاقة القائمة بين الأيديولوجيات الموجودة والممارسة السياسية والاجتماعية توجهات النهضة وفعاليتها؟ وما دور العوامل الذاتية المتعلقة ببنية المجتمع، وثقافته، والقيم السائدة، في نهضة المجتمع من عدمها ؟ أإن إخفاق العرب وعدم نهضتهم عائد الى قصورهما عن تحقيق القفزات العلمية والتكنولوجية التي حققتها الأمم الغربية؟ ثم أإن الثقافة العربية صالحة ومؤهلة في إيجاد نهضة حقيقية؟ أسئلة تحتاج الى أجوبة ..

الفصل الثالث

مشتركات العنف الديني بين محاكم التفتيش وداعش:

استغلال فرصة الهيمنة على السلطة، وجعلها تصب في إكراه المخالفين على ترك ديانتهم (اليهود والموريسكسون ـ الأقلية الإسلامية) من خلال فزع هؤلاء من قدرة الفتك لدى محاكم التفتيش وبأشكال كثيرة منها تكريس أنفسهم لحملة دعوية:

(فينست فيربي (١٣٥٠ ـ ١٤١٩م) أشهر الدعاة الذين لقوا نجاحاً مبهراً، فقد جال في إيطاليا وفرنسا وأسبانيا، كان يمتلك من إلهاب مشاعر الجماهير ببلاغته وطريقة التجسيد التي كان يحيط بها مداخلاته، كان يحب القاء الخطب عند حلول الظلام، وفي المقابر محاطاً بحاشية من النادمين على الخطايا، وآخرين يجلدون أنفسهم، وكان يؤكد أنه لا يريد أن يُجبَر أحد على التنصر ولكنه كما يقول يساعد العناية الإلهية على أن تنتج آثارها)[1].

أما داعش فقد استنسخت الأسلوب نفسه في الدعوة لعقيدتها القائمة على أساس التخلص من كل المخالفين، وأشكال التخلص كثيرة، ومنها إجبار البعض على ترك ديانتهم، واعتناق العقيدة الداعشية، كما حدث في الموصل وسوريا والمناطق الأخرى التي يسيطرون عليها، ممّا خلق نفوراً حاداً من الإسلام بفعل هذه السلوكيات، كما حدث نفوراً من المسيحية بعد عمليات التنصير الجبرية التي تحصى بالآلاف، أكثر من نصف يهود أسبانيا تنصروا ما بين (١٣٩١م و ١٤١٥م) من بينهم كثير من الحاخامات والشخصيات البارزة، مما جعل كثيراً، بل الأعم الأغلب من هؤلاء، يأخذ طريق الردة بعد زوال الخوف والضغط[2].

- اتهام كل من يخالف محاكم التفتيش في عقيدتها بالهرطقة، وعلى سبيل المثال أن اليهود المتنصرين الذين كانوا يعودون الى الديانة اليهودية على الرغم من تعميدهم كانوا يتهمون

---

(١) بيريز، جوزيف ، التاريخ الوجيز لمحاكم التفتيش بأسبانيا، ترجمة : مصطفى امادي ، مراجعة: زينب بنياية ، أبو ظبي ، هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة ، كلمة ، ٢٠١١ ، ط ١ ، ص ٢٣ .

(٢) المصدر السابق، ص ٢٤ .

بالهرطقة، وكان من حق الكنيسة اللجوء الى الدولة لمعاقبتهم على هذه الجريمة[1].

ونجد أن مثل أسلوب كهذا مستشرٍ وبنحوٍ أكثر عنفًا عند داعش، فإنها تتهم المخالف بالكفر، وتلجأ الى القتل المباشر ذبحاً، والشواهد كثيرة.

- اعتماد محاكم التفتيش على أسلوب الاغتيال لتصفية بعض العناصر المهمة التي يتعذر عليهم تصفيتهم علنا بعلة قانونية وشرعية:

- «أما اربوس فقد أحس بالتهديد، وقد نجا مرتين من محاولة اغتياله، ولهذا السبب بدأ باتخاذ احتياطاته، فقد كان يرتدي دائماً سترة واقية، وخوذة حديدية مخبأة تحت قلنسوته، ولقد كان السفاحون المأجورون الذين تم اختيارهم لهذا الغرض يعرفون ذلك؛ لذلك فقد طعنوا المحقق في الرقبة حينما كان يصلي بكاتدرائية سرقسطة في ليلة ١٤ الى ١٥ من سبتمبر- أيلول ١٤٨٥م»[2].

والأمر عينه اعتمده الداعشيون، ولكن على نطاق أوسع، وأكثر حرفنة، فقد عملت على اغتيال كثير من الشخصيات المهمة، سواء بإلصاق عبوة ناسفة أم تدبير كمين، أم عن طريق انتحاريين، وهذا ليس في المناطق التي يسيطرون عليها، بل في مناطق أخرى، وكما حدث أخيراً مع النائب عن كتلة بدر النيابية (الشهيد أحمد الخفاجي) الذي تم اغتياله بتفجير انتحاري لنفسه في سيارته، في إحدى مداخل الكاظمية المقدسة، وكما أعلنت داعش تبنيها للعملية.

- إن الدولة الحديثة التي أقيمت في أسبانيا بعد سقوط غرناطة التي تُشكل محاكم التفتيش أداتها الكبرى، لم تكن مستعدة للاعتراف بالحق في الاختلاف، فالمبدأ الذي تعتمده هذه الدولة هو (وحدة الايمان)، فلا يسمح للأقليات، بأن تحكم ذاتها على وفق قوانينها الخاصة على هامش مجتمع ذي غالبية مسيحية، وهذا المبدأ اعتمدته داعش أيضاً، فقد رفعت

---

(١) بيريز، جوزيف، التاريخ الوجيز لمحاكم التفتيش بأسبانيا، ترجمة: مصطفى امادي، مراجعة: زينب بنياية، أبو ظبي، هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة، كلمة، ٢٠١١، ط ١، ص ٣٢.

(٢) المصدر السابق.

شعار (إن لم تكن معنا فأنت علينا)، وعلى وفق مفهوم المعية هذا، فكل من يبقي في المجتمع الذي أعلنت فيه داعش الوصايا عليه، يجب أن يكون متبعاً للعقيدة الداعشية، وإلا يتعرض لشكل من أشكال التصفية المضمرة لديهم.

- **الطرد والإقصاء**: عدّ الحاكم توركيمادا أن الطرد هو نتيجة طبيعة لمحاكم التفتيش، وكان أمام اليهود أربعة أشهر لمغادرة أسبانيا، وقد أعطي لهم حق بيع ممتلكاتهم قبل المغادرة، ولكنهم منعوا بموجب القانون، من حمل الذهب أو المال، وسُمح لهم بالمقابل أن يتفاوضوا مع المصرفيين، بشأن شراء سندات، يحصلون على قيمتها في الخارج ، ونظراً إلى الظروف وإلى الأجل المفروض واجه اليهود صعوبات جمة، لاستعادة قروضهم، وبيع ممتلكاتهم بالقيمة التي تستحقها، وهنا انتظر كثير من المشترين إلى آخر لحظة؛ ليتحولوا الى ملاّك (بتشديد اللام)، وللظفر بصفقات مقابل مبالغ هزيلة، أما المصرفيون فقد فاوضوا المعنيين بالأمر على السندات، بأكثر الشروط إجحافاً؛ لذا إننا نفهم أن يكون كثير من اليهود، قد فضلوا التنصر على الإذعان للسلب والتخلي عن أرض أجدادهم ، وبلغ عدد المتنصرين أكثر من مئة ألف، أي أقل من نصف اليهود[1].

أما داعش فقد فاقت أستاذتها (محاكم التفتيش)، إذ تجاوزت حالات الطرد، لمن يخالفها أو بالأصح الهروب من شرها الى أعداد تجاوزت اكثر من مليوني نازح وهارب من بطش داعش، بل تجاوزت أكثر، إذ انتقلت مباشرة الى الذبح ومصادرة الأموال من دون أن يمهلوا الناس إلى حمل أغراضهم فضلاً عن بيعها على شكل سندات، كما فعلت محاكم التفتيش.

- عادة التكتم والخوف من محاكم التفتيش، أديا في نهاية المطاف إلى خلق ديانة فريدة من نوعها اختُزِلت في جوانب أساسية ومحرفة:

«وهكذا رسخ المتهودون المتسترون تبجيل بعض القديسيين، وهذا المفهوم غريب تماماً

---

(١) بيريز، جوزيف، التاريخ الوجيز لمحاكم التفتيش بأسبانيا، ترجمة: مصطفى امادي، مراجعة: زينب بنياية، أبو ظبي، هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة، كلمة، ٢٠١١، ط ١، ص ٥٢، ٥٣.

عن اليهودية، (أستير) على سبيل المثال أصبحت تسمى (القديسة أستير) في المقابل من (عيد البوريم) وهو عيد أستير عند اليهود، احتفظوا فقط بالصوم الذي أصبح مركزياً في طقوس المتهودين، أما طقوس الختان، فنادراً ما كانت تتبع في ضوء الخطر الذي كانت تمثله بالنسبة للطقوس الجنائزية فقد كانت تراعى جزئياً، وحتى عندنا كانوا ملزمين باتباع الطقس الكاثوليكي في الدفن، كان المتهودون يجتهدون في أن يفعلوا ذلك في أرض طاهرة وبين أمراء طائفتهم »[1].

أما الحال عند الناس في المناطق التي تسيطر عليها داعش فهو يماثل، إن لم يكن أكثر، فالخوف حاصل والتكتم هو الغالب عند أولئك الذين رفضوا وجود داعش، وعلى سبيل المثال نلحظ بين الفينة والأخرى، حالات إعدام تنشر على اليوتيوب لأناس اعترضوا علناً على سلوكيات داعش ومنهجياتهم، فكان مصيرهم الذبح، فضلاً عن ذلك لا يُسمح بإجراء أي طقس دينيّ، لأي ديانة أو مذهب آخر غير ما تعتقد به داعش.

العقوبات المالية والروحية:

بدأ هذا الأسلوب عند محاكم التفتيش في عهد فيليب الثالث (١٥٩٨- ١٦٢١م) الذي كان يُطلق عليه احياناً اسم (ملك اليهود)، مقابل المال سيحصل المتهودون البرتغاليون على العفو؛ لكونهم قد مارسوا التهود في الماضي سنة ١٦٠٢ ، على سبيل المثال سيقدمون (١٨٦٠٠٠٠ دوقية للملك) و (٥٠٠٠٠ كروزادو لدوق ليرما)، ومبالغ مماثلة لأعضاء مجلس (محاكم التفتيش)، ومن ثم فإن فيليب الثالث سيقبل ببدء المفاوضات مع المقر المقدس في ٢٣ من أغسطس آب ١٦٠٤م، وصل خبر موجز إلى المحقق العام البرتغالي يرخص له منح الكفارة للمسيحيين الجدد ذوي الأصول البرتغالية، وذلك لإخضاعهم لعقوبات روحية فقط[2].

---

(١) استر بنباسا: المتهودون، اليهود المتسترون، مجلة التاريخ، العدد : ٢٣٢ مايو- آيار ، ١٩٩٩ .

(٢) انظر: موجز محاكم التفتيش، مرجع سابق ، ص ٥٥ .

أما العقوبات الداعشية فلم تكن تقتصر على أخذ الأموال فقط، بل تتعداه إلى الجلد الذي هو حد من حدود الله يُقام على مرتكبي بعض الذنوب، ولكن هذه الحدود لها أصولها ومعاييرها في التنفيذ، ولكنّ الداعشيين فعلوا ذلك من باب المزاجية، وليس من باب إقامة الحدود؛ بدليل التفاوت الواضح في إقامة هذه الحدود في ما بينهم وعلى الآخرين، ومشاهد الجلد انتشرت على صفحات مواقع التواصل، ولمن يريد التركيز عليه الدخول لتلك المواقع .

إكراه معتنقي الديانات الأخرى:

في عام ١٥٢٦م قررت محاكم التفتيش تنصير جميع مسلمي أراغون من دون إعطاء أي تفسير، ولتسريع الاندماج طُلب منهم أن يتخلوا عن أعيادهم وملابسهم التقليدية، وعن استعمال اللغة العربية، ولكن لم يُتخذ ضجهم، أي إجراء قسري ، أما داعش فأسلوب محاربة العقائد والديانات الأخرى المخالفة لما يحملون من معتقد واضح جداً، فيوجد القسر بأشكاله كافة (الذبح، والتهجير، والسلب، والسبي، ونكاح نساء الرجال من معتنقي الديانات الأخرى) .

الانحطاط والتخلف:

في سنة ١٨١٣ م عندما كان مجلس قادس يتدارس إلغاء محاكم التفتيش، لم يتردد أحد المشاركين في أن يُعزي انحطاط أسبانيا الى هذه المؤسسة:

«الظلامية والتخلف العلمي، وتدهور الفنون، والتجارة، والفلاحة، والهجرة السكانية، وفقر أسبانيا سببه إلى حد كبير هو محاكم التفتيش»[١].

ولا يختلف اثنان على الأسلوب الذي تعتمده داعش في إدارة جوانب الحياة في المناطق التي استولت عليها، وتأثير ذلك على حركة العلم والتعلم والتجارة، وأكتفي بذكر مثال يمثل شاهداً حياً لذلك التخلف (إلغائهم لمادة التربية الرياضية، وجعل مكانها التربية الجهادية)،

---

(١) انظر: موجز محاكم التفتيش، ص ٢٥٣ .

وما في ذلك من انعكاسات تؤدي في نهاية المطاف إلى خلق جيل يجيد التطرف لا الابداع، ويجيد القتل لا إشاعة الحب والسلام، جيل يجيد كره العلم لا إشاعة العلوم والفنون، وهذا مصداق حقيقي لما ذكره ابن خلدون في مقدمته بإعطائه معياراً لتخلف الأمم وعمرانها، ألا وهو غياب مظاهر الفنون .

الاعتراض على محاكم التفتيش وداعش:

بعض الاعتراضات على محاكم التفتيش هي نفسها إلاعتراضات على داعش، كما هو مبين في أدناه:

فيما يخص محاكم التفتيش:

الاعتراض الأول: منهجية العمل، وبعض العقوبات المطبقة (مصادرة الممتلكات) على سبيل المثال .

الاعتراض الثاني: المواثيق ، تتعارض أيضاً مع شغل الأجانب لمناصب السلطة .

الاعتراضات على داعش:

الاعتراض الأول: الاعتراض على المنهج العام المتبع من لدن داعش، إذ لا نجد توافقاً بينه وبين منهج الشريعة الإسلامية ، إذ يقوم منهجهم على التأويلات المحرفة .

الاعتراض الثاني: اعتمادهم على قيادات أجنبية، لا تتفق مع البنية الثقافية والمعرفية، للمناطق التي استولت عليها داعش، وجعلت هؤلاء بمنزلة القيّم على السكان الأصليين.

الاعتراض الثالث: الاعتراض على تشويههم الواضح للعقيدة الإسلامية، بتصدير أفعالهم على أنها هي الإسلام الصحيح.

الاعتراض الرابع: اعتمادهم منهج الاضطهاد الديني المخالف لتعاليم الشريعة الإسلامية.

ما الذي أنتجته داعش؟

❖ أنتجت رجل دين عالق في دوغمائية، منشؤها منظومة الفقه الضيق، كما فعلت محاكم التفتيش حين خلقت رجل لاهوت عالق في دوغمائية الإيمان الكنسي .

❖ أنتجت فكراً لا يؤمن بالتنوع، بل يعكف على الموضوعات الجاهزة، من دون تحريك العقل وتفعيله، بما هو منسي ومهمل .

❖ أنتجت وقوفاً نشازاً على المتوارث من التفكير الفلسفي الذي تتمحور في دراسة الإنسان من الخارج من دون الولوج الى كشف خلجاته الداخلية التي تستوعب العالم الأكبر .

❖ أنتجت ما يجعل الصادر منهم (أي الداعشية) لا يتفق مع حركة الفكر والمعرفة في عموم المجتمعات العالمية .

❖ أنتجت معرفة قائمة على تكرار المكررات، وشرح المشروحات، وبالزاوية نفسها النظر لذلك المكرر الذي ينتمي الى قرون كثيرة موغلة في عمق الزمن ، مما يجعلها منفصلة عن الواقع .

❖ أنتجت ثقافة عالمية تربط الإسلام بالإرهاب مع جرأة للنيل من العقيدة الإسلامية، ومن رمزها الأكبر النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

❖ أنتجت أتباعاً يُعدون من مصاديق الطاعة العمياء، من دون التفكير بجدوى الصادر إليهم من فتاوى .

مفهومُ التكفيرِ وسبلُ معالجته عند الإمام علي عليه السلام

مفهومُ التكفيرِ وسبلُ معالجته عند الإمام علي عليه السلام

د. محمد حسين علي السويطيّ *
د. علي خوير مطرود الحجاميّ

المقدّمة:

تُعدّ ظاهرة التكفير اليوم واحدة من أخطر الظواهر التي تواجه المجتمعات الإنسانيّة بغض النظر عن تبعاتها الدينيّة والعرقيّة، فالظاهرة في أساسها فعل موجه ضد إنسانيّة الإنسان قبل أن تكون موجه لدينه أو عرقه، فينعكس في مجموعة من السلوكيات الإنسانيّة التي تصل إلى حدّ إلغاء إنسانية الإنسان بالكامل، وتجاوز حقيقة القيمة المقدسة التي منحها الله تعالى له، والنظر إليه على أنه وجود لا قيمة له فحسب؛ بل كأنّه غير موجود.

إن استفحال ظاهرة التكفير في المجتمعات الإنسانية - ولاسيما الإسلامية منها - وتجسيدها عبر مجموعة من المنظمات والمؤسسات والسلوكيات والأفكار، دفع كثيراً من المختصين والمهتمين بديمومة الإنسانيّة إلى ضرورة إعادة تقييم موقفها من تلك الأفكار، وما يتفرع عنها من سلوكيات خارجية بغيضة ومنبوذة، فبدأ الجهد الدولي بوجه عام، والإسلامي بوجه خاص، بالبحث عن أسباب هذه الظاهرة وسبل معالجتها، ولاسيما بعد أن وُسم الإسلام بهذه الظاهرة، فصُوِّرت عند كثيرين - لاسيما في الدول الغربية - على أن التكفير

* قسم التاريخ/ كلية التربية/ جامعة واسط/ العراق.

والإرهاب كلمة مرادفة للإسلام؛ لذا أخذت الأنظمة المعتدلة التي تنطلق من أسس عقائدية صحيحة تدعمها المؤسسات، والجامعات، ومراكز البحث، ومنظمات المجتمع المدني، وكل ذي علاقة بالأمر، بإعادة توجيه فكر الأمة الإسلامية نحو العقائد الصحيحة للإسلام، عبر الرجوع بالمسلمين، وإرشادهم إلى سلفهم الصالح المتمثل برسول الله الكريم ﷺ، وأهل بيته الطاهرين عليهم السلام.

ولذلك كله صار لزاماً علينا - ولاسيما في هذه المرحلة الحرجة من تاريخ أمتنا الإسلامية- معالجة هذا الفكر المنحرف والمِعْوَجّ؛ لإثبات بطلانه، وتعريته أمام أفراد المجتمع الإسلامي، بهدف خلق رأي عام مناهض له؛ عن طريق الفكر، والحوار المنطقي، والإقناع، واعتماد الحجة والدليل؛ ولذلك جاء اختيارنا لموضوع (مفهوم التكفير وسبل معالجته عند الإمام علي عليه السلام).

وقد حاولنا بهذا البحث أن نسلط الضوء على أهم المدارس الإنسانية والفكرية والعلمية التي واجهت التكفير في أوائل مراحله وأقسامها، وذلك ببيان جهود الإمام علي عليه السلام في مواجهة أول جماعة تكفيرية ظهرت في التأريخ الإسلامي، مركزين في ذلك على الآليات التي اتبعها الإمام عليه السلام في مواجهة هذه الظاهرة الغريبة والمستهجنة، ليكون هذا البحث إشارة دلالة للباحثين والمختصين في توسيع نطاق هذا المجال، وصولاً إلى إبراز منهج الإمام عليه السلام وسائر أئمة أهل البيت عليهم السلام في مواجهة هذه الظاهرة، بما يحقق منهجاً ورؤية متكاملة للحد من ظاهرة التكفير، ومن ثم القضاء عليها بصورة كاملة.

توطئة:

مفهوم التكفير وتداعياته:

تأتي مفردة (الكفر) لغةً بمعنى الستر والتغطية، فيقال لمن غطى درعه بالثوب: قد كفر درعه؛ ويقال للمزارع: (كافراً)؛ لأنه يغطي البذر بالتراب، ومنه سمي الكفر الذي هو ضد الإيمان (كفراً)، لأن فيه تغطية للحق بجحد أو غيره، وقيل: سمي الكافر (كافراً) لأنه قد غطى قلبه بالكفر[1].

أما اصطلاحاً فقد عرّف (المناوي) الكفر بأنه: «تغطية ما حقه الإظهار، والكفران: ستر نعمة المنعم بترك أداء شكرها، وأعظم الكفر جحود الوحدانية، أو النبوة، أو الشريعة، والكفران في جحود النعمة أكثر استعمالاً، والكفر في الدين أكثر والكفور فيهما جميعاً»[2].

وقد أجمعت مصادر اللغة العربية على أن مفردة الكفر تأتي بمعان أربعة هي: كفر الجحود بنعمة الله، وكفر المعاندة، وهو أن يعرف بقلبه ويأبى بلسانه، وكفر النفاق، وهو أن يؤمن بلسانه وقلبُه كافر، وكفر الإنكار، وهو كفر القلب واللسان[3]؛ وهذا يعني أن إطلاق مفردة الكافر على الآخر لا يعني نكرانه لإسلامه، واعتقاده بالتوحيد - جل جلاله - ونبوة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

والواقع، إن تكفير أي إنسان واتهامه بالفسق والضلال والانحراف والنفاق، يعني تجريده عملياً من حقوقه الإنسانية التي شرعها الإسلام له، والسماح لأفراد المجتمع بإهانته وقتله، وإذا اتخذت عملية التكفير هذه طابعاً جماعياً، وشملت جماعة أو طائفة، فإنها ستعرض المجتمع الإسلامي إلى الفرقة، والاختلاف، ونشر ثقافة العنف والاقتتال، وهذا يعني - لا

---

(١) ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي (ت٧١١هـ)، لسان العرب، ط٣، دار صادر، (بيروت- ١٤١٤هـ)، ج١٢، ص٦٥.

(٢) محمد بن علي بن زين العابدين (ت١٠٣١هـ)، التوقيف على مهمات التعاريف، عالم الكتب، تحقيق عبد الخالق ثروت، (القاهرة،١٤١٠هـ-١٩٩٠م)، ص٢٨٢.

(٣) ينظر: الفراهيدي، الخليل بن أحمد البصري (ت١٧٥هـ)، العين، تحقيق: د. مهدي المخزومي، ود. إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال، (د.ت- د.م)، ج٥، ص٣٥٦؛ ابن منظور، لسان العرب، ج٥، ص١٤٤- ص١٤٥؛ المناوي، التوقيف على مهمات التعاريف، ص٢٨٢.

سمح الله - انهيار الرابطة الدينية التي لا يمكن أن يستعاض عنها بأي شيء آخر.

وقد عرف تاريخ المسلمين منذ عصر صدر الإسلام ظهور حركات تكفير عديدة، اتخذت من العداء والاقتتال وتكفير الآخر منهجاً لها، تمثلت بحركة الخوارج[١] ومن سار بإثرهم، الذين أباحوا دم كل من عارضهم، واختلف معهم بالرأي أو المنهج، حتى لو كان ذلك المخالف لهم هو أخا رسول الله ﷺ، وشريكه في نشر دعوة الإسلام، وهو أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام[٢].

واستمر هذا النهج التكفيري، فظهر في أواسط القرن الماضي وليد جديد، تمثل بتشكيل (جماعة التكفير والهجرة) التي ظهرت في سجون مصر، التي وجدت في سلوك الحكومة معها الذي تميز بالقوة والقسوة مبرراً ودافعاً لهم كي يكفروا المجتمع بأكمله، إلا أن ذلك يجب أن لا يُفهم على أنهم ظهروا بصفة رد فعل على سياسة الدولة فقط؛ بل إن تلك الجماعة وجدت لها جذوراً وصدًى في طبيعة النظام الديني السائد آنذاك الذي امتاز بالتشدد والتطرف من غير وجه حق، وكذا الحال مع المجموعات التكفيرية الأخرى التي هي بمجملها تمثل امتداداً حقيقياً لحركات التكفير التي ظهرت في صدر الإسلام، اتهمت أفراد المجتمع الإسلامي بالجاهلية والردة والكفر؛ لاعتقادهم بأفكار بالية ووهمهم بأنهم يسيرون بالسبيل الصحيح بأنظمة لا تطبق الشريعة الإسلامية.

إن استفحال هذه الظاهرة الشاذة وانتشارها بين أفراد مجتمعنا بفئاته وشرائحه المختلفة، يحتّم علينا أن تكون لنا وقفة مساهمة بكتابة مثل هذه البحوث التي تعالج هذه القضايا الخطيرة، وتوضح لكل مسلم خطر العجالة في إطلاق تعابير التكفير والتفسيق على المعينين أو الجماعات، حتى يتأكد من وجود جميع أسباب الحكم عليه بالكفر، وانتفاء جميع موانع التكفير في حقه، وهذا يجعل مسألة التكفير من مسائل الاجتهاد التي لا يحكم فيها بالكفر على شخص أو جماعة إلا العلماء الذين بلغوا مرتبة الاجتهاد؛ لأن الحكم على المسلم بالكفر وهو لا

---

(١) ينظر: البغدادي، الفرق بين الفرق، دار الكتب العلمية، (بيروت- د.ت)، ص٤٩- ص٥١.

(٢) ينظر: الأشعري، مقالات الإسلاميين، ص١٥٦- ص١٥٧؛ عبد الله سلوم السامرائي، الغلو والفرق الغالية في الحضارة الإسلامية، دار الحرية للطباعة، (بغداد- ١٩٧٢م)، ص١١٣- ص١١٤.

يستحقه ذنب عظيم، لأنه حكم عليه بالخروج من ملة الإسلام، وأنه حلال الدم والمال، وحكم عليه بالخلود في النار إن مات على ذلك، لذلك ورد الوعيد الشديد في شأن من يحكم على مسلم بالكفر، وهو ليس كذلك، بدليل حديث رسول الله صلى الله عليه وآله: «**لاَ يَرْمِي رَجُلٌ رَجُلًا بِالفُسُوقِ، وَلاَ يَرْمِيهِ بِالكُفْرِ، إِلَّا ارْتَدَّتْ عَلَيْهِ، إِنْ لَمْ يَكُنْ صَاحِبُهُ كَذَلِكَ**»[١].

جذور التكفير في التاريخ الإسلامي وأسبابه:

برزت ملامح ظاهرة التكفير منذ البدايات الأولى لصدر الإسلام، وتحديداً مع بروز الصراع حول منصب الخلافة ومحاولة إقصاء أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام من حقه الإلهي فيها، فما أن تسنّم عليه السلام مقاليد الخلافة حتى تبلورت هذه الظاهرة أيدولوجياً، وتحولت إلى ممارسات وسلوكيات على أرض الواقع، وعبرت عن نفسها في أكثر من صورة، بما في ذلك بروز ظاهرة الخوارج على أثر المطالبة بالتحكيم ورفضه من قبل أمير المؤمنين أول الأمر ما دفع بهم إلى تكفيره عليه السلام بدعوى خروجه عن حكم الله تعالى في قوله: ﴿قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِۦ ۚ مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ﴾[٢]، وعدّوا فاعلها كافراً؛ لا تقبل منه توبة، لأنه ينازع الله في حكمه، وقد كفّروا الإمام علياً عليه السلام لأنه رفض التوبة عن قبول التحكيم، مما اعتبروه معصية تستحق التكفير[٣].

وكان أول عمل لهذه الفرقة الضالة بعد انفصالهم عن جمهور المسلمين أن تجمعوا بالكوفة، والتقوا في إحدى ضواحيها بالصحابي عبد الله بن خباب، فسألوه أن يحدثهم، فقال لهم: سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله) يقول: «ستكون بعدي فتنة، القاعد فيها خير من القائم»، فلم

---

(١) ابن حنبل (ت٢٤١هـ)، مسند أحمد بن حنبل، تحقيق شعيب الأرناؤوط وآخرون، مؤسسة الرسالة، (د.م.- ١٤٢١هـ-٢٠٠١م)، ج٣٥، ص٤٥١؛ البخاري، محمد بن إسماعيل الجعفي (ت٢٥٦هـ)، الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله وسننه وأيامه المعروف بصحيح البخاري، تحقيق محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، (د.م.- ١٤٢٢هـ)، ج٨/، ص١٥.

(٢) الأنعام: ٥٧ .

(٣) ينظر: البغدادي، الفرق بين الفِرَق: ص٤٩- ص٥٠؛ سالم البهنساوي، الحكم وقضية تكفير المسلم، دار البشير، (عمان- د. ت)، ص١٥- ص١٨.

يسمعوا منه، وذبحوه كما تذبح النعاج هو وامرأته الحامل[١].

وهكذا نشأت العقيدة التكفيرية في المجتمع الإسلامي على يد الخوارج، التي عدها بعضهم أول حركة تكفيرية عرفها التاريخ الإسلامي مارست التكفير، بسبب شبهة الحاكمية وما أنتجته من اختلاف في تحديد المفهوم ودلالته، واتسعت الظاهرة مع تشعب الأفكار وظهور الفرق الإسلامية؛ إذ شكّلت مناخاً خصباً لها، فاتخذت طرقاً أخرى متعددة تبدو واضحة من خلال كتب التراث الفقهي والكلامي، ولاسيما تلك التي كتبت في عصور التعصب المذهبي العنيف، فتبادل الفقهاء نوعاً من التهم، وتبادل أصحاب العقائد مثل ذلك وتلقف البسطاء من الخلف هذه التهم، وأسرفوا في الاعتداد بها حتى جعلوها معيار ما يُقبل من الآراء ويُرفض[٢].

وازداد الأمر سوءاً في العصور المتأخرة، ولاسيما مع ظهور خارطة جديدة للاتجاهات الإسلامية متمثلة بالمذاهب القديمة المتجددة بأثوابها ومظاهرها وأسمائها، التي دخل معظمها معترك السياسة مع أو ضد الحكومات، واستخدامها العنف خدمة للسياسة وبغطاء ديني؛ نتيجة لذلك ولردود أفعال مختلفة ولدت جماعات سياسية في أواخر القرن العشرين جعلت التكفير أساساً في تفكيرها، ومقوماً لوجودها، وكان أبرزها (جماعة المسلمين) التي سمّتها وسائل الإعلام بـ(جماعة التكفير والهجرة) بناء على بعض أفكارها ودعوتها؛ إذ عدت نفسها الفئة المؤمنة، ومن هو خارج عنها وغير منتسب إليها كافر، ولم تكتف بتكفير مسلمي عصرها؛ بل رجعت إلى التاريخ الإسلامي لتطلق الكفر على عصوره منذ القرن الرابع الهجري - العاشر الميلادي، وقد كفّرت من ارتكب المعاصي ومن لم يحكم بالكفر على من يرونه كافراً[٣].

---

(١) ينظر: محمد خليل الدين، تاريخ الفرق الإسلامية، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، (بيروت،١٤٠٥هـ-١٩٨٥م)، ص٨٨.

(٢) ينظر: محمد شلتوت، الإسلام عقيدة وشريعة، دار الشروق، (القاهرة- د.ت)، ص٧٠.

(٣) ينظر: نخبة من المؤلفين، مستقبل الأصولية في العالم العربي، مركز المعلومات العربي، (بيروت- د.م)، ص٤٠-ص٤٧.

وكان المذهب الحنفي واحداً من أكثر المذاهب التي توسعت في تناولها لهذه الظاهرة، واختلف فقهاؤها اختلافاً كبيراً في ما بينهم، فمنهم من برّر توسعها بفتاوى رجال ادعوا الفقه والعلم[1]، وعدها آخرون ظاهرة خارجة عن الشرع، لأنها لا تعتمد على دليل قطعي، وأن المسائل الاعتقادية تحتاج إلى أدلّة قطعيّة، وأن في تكفير المسلم مخاطر ومفاسد كبيرة[2]، وقالوا إن المسألة المتعلقة بالكفر إذا كان لها تسعة وتسعون احتمالاً للكفر، واحتمال واحد لنفيه فالأولى للمفتي والقاضي أن يعمل بالاحتمال النافي[3]، وأنه لا يفتى بتكفير مسلم أمكن حمل كلامه على محمل حسن، أو كان في تكفيره اختلاف ولو رواية ضعيفة[4]،وأضاف بعضهم: «ولو كانت الرواية لغير أهل المذهب»[5].

أما عن أسباب ظهور الخوارج، فتشخيصها يقرّبنا من معرفة الأسباب الحقيقية التي أدت إلى ظهور جماعات التكفير الحديثة، ولعل أهمها كان (النزاع حول الحكم)، وربما هو أقوى أسباب خروجهم، والسبب المباشر في ظهورهم، فالخوارج لهم نظرة خاصة معقدة وشديدة في الإمام وصفاته، والحكام القائمون في نظرهم لا يستحقون الخلافة، لعدم توفر شروط الخوارج القاسية فيهم[6].

ومن الأسباب الأخرى وراء بروز هذه الظاهرة، انعدام الاستقرار السياسي الذي شجّعهم على الخروج، وربما كان للعامل النفسي المتمثل بعدم الاستقرار الديني والحسد والبغضاء الذي كانوا يكنّوه لقريش دور مهم في خروجهم على الإمام عليه السلام، ويمكننا القول: إن هذا العامل - العامل النفسي - وعدم الاستقرار يُعد اليوم من أكثر العوامل التي توضح طبيعة المنتمي للفكر التكفيري؛ إذ نراه فاقداً لكل معاني الإنسانية، متحولاً في أحيان كثيرة إلى

(١) ينظر: ابن الهمام، شرح فتح القدير، دار إحياء التراث العربي، (د.ت - بيروت)، ج٥، ص٣٣٤ .
(٢) ينظر: سعد التفتازاني، شرح العقائد النسفية، (د.ت- د.م)، ص١٥٤ .
(٣) ينظر: ملا علي القاري، شرح الفقه الأكبر، مطبعة الباب الحلبي، (د.ت- القاهرة)، ص١٦٢ .
(٤) ينظر: ابن نجيم، البحر الرائق، دار المعرفة، (د.ت- بيروت)، ج٥، ص١٣٤- ص١٣٥ .
(٥) ينظر: ابن عابدين، رد المحتار على الدر المختار، مطبعة البابي الحلبي، (د.ت- القاهرة)، ج٤، ص٢٣٠ .
(٦) ينظر: الأشعري، مقالات الإسلاميين، ص١٥٦- ص١٥٧؛ محمد خليل الدين، تاريخ الفرق الإسلامية، ص٨٥- ص٨٦ .

وحش ضارٍ، وحيوان مفترس، فضلاً عن أنهم فسروا الخلاف بين علي عليه السلام ومعاوية بأنه نزاع حول الخلافة، ومن هنا استسهلوا الخروج على الإمام علي عليه السلام ومعاوية من بعده[1].

وشكلت (قضية التحكيم) سبباً آخر في ظهورهم، إذ أجبروا الإمام علياً عليه السلام على قبول التحكيم، وحينما تم ذلك طلبوا منه أن يرجع عنه؛ بل ويعلن إسلامه، فرد عليهم رداً عنيفاً، وهناك من قلّل من شأن هذه القضية بوصفها عاملاً في ظهور الخوارج، ولا شك في أن هذا خطأ، فقد كان التحكيم من الأسباب القوية في ظهورهم، وقد رد بعض العلماء وشنّع على من قال من المؤرخين وكتاب الفرق بأنه كان في قضية التحكيم خداع ومكر، كالقاضي (ابن العربي) في كتابه (العواصم من القواصم)؛ حيث فصّل القول في هذا الأمر[2].

وكان (جور الحكام وظهور المنكرات) من جملة أسباب ظهور الخوارج، لذلك كانوا يرددون في خطبهم ومقالاتهم، أن الحكام ظلمة، والمنكرات فاشية، والواقع أنهم حينما خرجوا فعلوا أضعاف ما كان موجوداً من المظالم والمنكرات، حينما رأوا أن قتالهم للمخالفين لهم قربة إلى الله تعالى، وأن الأئمة ابتداءً بالإمام علي عليه السلام - مع عدله وفضله - ثم بحكام الأمويين والعباسيين كلهم ظلمة في نظرهم دون تحرٍّ أو تحقيق، مع أن إقامة العدل والنهي عن المنكرات يتم بغير تلك الطريقة التي ساروا عليها في استحلال دماء مخالفيهم حكاماً ومحكومين[3].

وشكلت (العصبية القبلية) التي ماتت في عهد رسول الله صلى الله عليه وآله، ثم قامت في عهد الخليفة عثمان وما بعده قوية شرسة، وكانت قبل البعثة بين ربيعة - وأكثر الخوارج منهم- ومضر قوية، وقد قال المأمون العباسي في إجابته لرجل من أهل الشام طلب منه الرفق بالخوارج: «أما ربيعة فساخطة على الله منذ بعث نبيه من مضر، ولم يخرج اثنان إلا خرج أحدهما

(١) ينظر: محمد خليل الدين، تاريخ الفرق الإسلامية، ص٨٥- ص٨٦ .

(٢) ابن العربي، محمد بن عبد الله أبو بكر، العواصم من القواصم في تحقيق مواقف الصحابة بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله، ط٢، تحقيق: محب الدين الخطيب - ومحمود مهدي الإستانبولي، دار الجيل، (بيروت، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م)، ص١٧٥- ص١٧٩ .

(٣) الأشعري، مقالات الإسلاميين، ص١٥٧؛ محمد خليل الدين، تاريخ الفرق الإسلامية، ص٨٧ .

شارياً»[١].

وهناك أسباب أخرى من الممكن إيجازها بالعوامل الاقتصادية والاجتماعية؛ كقصة ذي الخويصرة مع رسول الله صلى الله عليه وآله[٢]، وثورتهم المقوتة على الخليفة عثمان بن عفان؛ إذ نهبوا بيت المال بعد قتله مباشرة، ونقمتهم على أمير المؤمنين عليّ عليه السلام في معركة الجمل، ومنها كذلك الحماس الديني[٣] الذي مدحهم به بعض المستشرقون كـ(جولدزيهر)، حينما ذكر أن تمسّك الخوارج الشديد بالقرآن أدى بهم إلى الخروج على المجتمع، والمغالطة في قوله هذا واضحة[٤]، فإن التمسك بالقرآن لا يؤدي إلى الخروج على المجتمع، وسفك دماء الأبرياء.

مفهوم التكفير عند الإمام علي عليه السلام:

مما تقدم تبين حرص الإسلام الشديد على ضرورة تأني المسلم في تكفير أخيه المسلم؛ لأنّ في ذلك شروطاً من الصعب تحقيقها، وفي طليعتها نكران وجود الله سبحانه وتعالى وهنا يتبادر سؤال مفاده: ما تفسير ورود بعض كلمات التكفير في أحاديث الإمام علي عليه السلام ووصاياه بحق بعض الأشخاص الذين ينتسبون إلى الإسلام، ولم ينكروا وحدانيته أو يجحدوا وجوده؟.

وجواب ذلك يكمن في أن الإمام علياً عليه السلام قصد من وراء ذلك كفر هؤلاء بنعم الله تبارك وتعالى أي كفران النعم، والكفر في الإيمان والطاعة، وليس كفران الوحدانية والنبوة، لأن الكفر على مراتب عديدة، يختلف معناه من مرتبة إلى أخرى، وإن كان اللفظ واحداً، وفي

---

(١) الطبري: محمد بن جرير (ت٣١٠هـ)، تاريخ الرسل والملوك، دار الكتب العلمية، (بيروت- د.ت)، ج٥، ص١٩٨؛ وينظر: ابن الأثير، أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني (ت٦٣٠هـ)، الكامل في التاريخ، ط٢، تحقيق: عبد الله القاضي دار الكتب العلمية، (بيروت- ١٤١٥هـ)، ج٦، ص٩.

(٢) مفاد هذه القصة: إن رجلاً من تميم يُقال له (ذو الخويصرة) وقف على رسول الله وهو يعطي الناس فقال: يا محمد، قد رأيت ما صنعت في هذا اليوم، فقال رسول الله: أجل، فكيف رأيت؟ قال: لم أرك عدلت، فغضب رسول الله وقال: ويحك إذا لم يكن العدل عندي فعند من يكن؟ فقال عمر بن الخطاب: يا رسول الله ألا نقتله، فقال: لا دعوه فإنه سيكون له شيعة يتعمقون في الدين حتى يخرجوا منه كما يخرج السهم من الرمية؛ ينظر في النصل فلا يوجد شيء، ثم في الفوق فلا يوجد شيء، سبق الفرث الدم. محمد خليل الدين، تاريخ الفرق الإسلامية، ص٨٨ .

(٣) ينظر: محمد خليل الدين، تاريخ الفرق الإسلامية، ص٨٩- ص٩١ .

(٤) ينظر: العقيدة والشريعة.

هذا الصدد قال السيد الخوئي قدس سره: «من الكفر ما يقابل الإسلام، ويحكم عليه بنجاسته، وهدر دمه، وماله، وعرضه، وعدم جواز مناكحته وتوريثه من المسلم، وقد دلّت الروايات الكثيرة على أن العبرة في معاملة الإسلام بالشهادتين اللتين عليهما أكثر الناس، ومنها ما يقابل الإيمان، ويحكم بطهارته، واحترام دمه، وماله، وعرضه كما يجوز مناكحته وتوريثه، ومنه: ما يقابل المطيع؛ لأنه كثيراً ما يطلق على الكفر على العصيان، ويقال: إن العاصي كافر، وقد ورد في تفسير قوله عز من قائل: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾[1]، ما مضمونه أن الشاكر هو المطيع والكفور العاصي، وعلى الجملة: إن ارتكاب المعصية ليس بأقوى من إنكار الولاية؛ لأنها من أهم ما بني عليه الإسلام كما في الخبر، وقد عقد لبطلان العبادة بدونها باباً في الوسائل، فإذا لم يوجب إنكارها الحكم بالنجاسة والارتداد فكيف يكون ارتكاب المعصية موجباً لهما؟!»[2].

ودليلنا على أن مراد الإمام علي عليه السلام كان كفر من ذكرهم في نعم الله والإيمان والطاعة، وليس نكران الإسلام وجحود الوحدانية والنبوة، جوابه عليه السلام حين سُئِلَ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلَهُمْ مِنْ أَهْلِ الْقِبْلَةِ أَكَافِرُونَ هُمْ أم لا؟ قَالَ: «كَفَرُوا بِالْأَحْكَامِ، وَكَفَرُوا بِالنِّعَمِ، كُفْراً لَيْسَ كَكُفْرِ الَّذِينَ دَفَعُوا النُّبُوَّةَ ولَمْ يُقِرُّوا بِالْإِسْلَامِ، ولَوْ كَانُوا كَذَلِكَ مَا حَلَّتْ لَنَا مُنَاكَحَتُهُمْ ولَا ذَبَائِحُهُمْ ولَا مَوَارِيثُهُمْ»[3]؛ ومن الشواهد المؤيدة لوجهة نظرنا جوابه لما سئل عليه السلام عَنْ قَتْلَى الْجَمَلِ، أَمُشْرِكُونَ هُمْ؟ قَالَ عليه السلام: «لَا، بَلْ مِنَ الشِّرْكِ فَرُّوا، قِيلَ: فَمُنَافِقُونَ، قَالَ: لَا، إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَذْكُرُونَ اللهَ إِلَّا قَلِيلًا، قِيلَ: فَمَا هُمْ؟ قَالَ: إِخْوَانُنَا بَغَوْا عَلَيْنَا فَنُصِرْنَا عَلَيْهِمْ»[4]، وفي رواية ثالثة يمكن توظيفها في هذا المجال إجابته عليه السلام عن سؤال مشابه تقدم به أحد أصحابه، نصه: «من الشرك فروا فقيل يا أمير المؤمنين فمنافقون؟ قال: المنافقون لا يذكرون الله إلا قليلاً، فقيل له:

---

(١) الانسان: ٣.

(٢) موسوعة الإمام الخوئي: التنقيح في شرح العروة الوثقى، ج٣، ص٥٨ .

(٣) القاضي النعمان، دعائم الإسلام، تحقيق: آصف بن علي أصغر فيضي، دار المعارف، (القاهرة ١٩٦٣) .

(٤) ابن أبي شيبة، المصنف، تحقيق وتعليق: سعيد اللحام، دار الفكر للطباعة، (بيروت ١٩٨٩م)، ج٨، ص٧٠٧؛ البيهقي، السنن الكبرى، دار الفكر، (بيروت د.ت)، ج٨، ص١٧٣ .

فما هم؟ قال: قوم بغوا علينا»(١).

وهذا يعني أن الإمام علياً عليه السلام قد قدم درساً لأفراد المجتمع بثقافاته المختلفة، وتوجهاته العقائدية المتنوعة بضرورة التأني في إطلاق صفة الكفر، حتى ضد ألدِّ الأعداء وأكثرهم حقداً؛ لأن ذلك يعني إباحة دمائهم، وإخراجهم من الملة الإسلامية، واعتبارهم مرتدين عن الدين، واكتفى عليه السلام بإطلاق صفة الكفر في نعم الله، وفي طاعة أوليائه، والإيمان بهم، وهذا لا يلزم إطلاق حكم المرتد عليهم، ويظلوا بحسب ذلك حاملين لهوية الانتماء إلى الدين.

سبل معالجة الإمام علي عليه السلام لظاهرة التكفير:

إن تعامل الإمام علي عليه السلام مع ظاهرة التكفير التي استشرت في عهده، كان مثالياً وحضارياً، لأجل القضاء عليها قضاءً تاماً؛ وذلك لأمرين اثنين، أولهما: خوفه على المغرر بهم الذين انتموا عن غير قصد إلى هذه الحركة، والآخر: السعي لأن لا تبقى صورة أصحابها حاضرة في أذهان أفراد المجتمع بوصفهم قادة، وأبطالاً، وثواراً، لذلك منحهم حق الاعتراض والجدال، واعتبرهم عليه السلام «طلاب حقٍّ ضلوا»، منطلقاً في ذلك من احترامه لحق المعارضة السياسية وحرية التعبير عن الرأي(٢)، لذلك جاء في وصيته: «لا تحاربوا الخوارج بعدي فليس من طلب الحق فأخطأه كمن طلب الباطل فأدركه»(٣).

لقد تعامل الإمام عليه السلام مع مكفّريه من الخوارج بمنتهى الحرية والديمقراطية، وكان هو خليفتهم، وهم من رعاياه، لكنه لم يسجنهم، ولم يقطع نصيبهم من العطاء من بيت مال المسلمين، وفي ذلك قال الناقد الكبير المصري (طه حسين): «لقد كانوا أحراراً في الإعلان عن عقيدتهم أنى شاؤوا، وكان الإمام وأصحابه يقابلونهم بمعتقداتهم بكل حرية، ويجادلونهم فيها، ويتبادلون معهم الأدلة والاستدلال»(٤).

---

(١) ابن ابي شيبة، المصنف، ج٨، ص٧٠٧ .

(٢) ينظر: غسان السعد، حقوق الإنسان عند الإمام علي، (النجف الأشرف- ٢٠١٢م)، ص١٤٥- ص١٥٥ وص٢٠٨- ص٢٢٠ .

(٣) نهج البلاغة، ج١، ص١٠٨ .

(٤) ينظر : غسان السعد، حقوق الإنسان عند الإمام علي، (النجف الأشرف- ٢٠١٢م)، ص١٤٥- ص١٥٥ وص٢٠٨- ص٢٢٠ .

لقد رأى الإمام ﷺ أن ظاهرة التكفير هي أخطر المعاول الهدامة بين الأمة، ولاسيما أنها طالت شخصيات كبيرة ومرموقة من صحابة رسول الله ﷺ وعلى رأسهم أمير المؤمنين ﷺ، هذه الفئة التي دافعت عن الإسلام وحرصت عليه بدمائها، وأموالها، وجهادها حتى قام عوده، وضرب في الأرض أطنابه، وانتشر نوره في مشارق الأرض ومغاربها، ثم تأتي فئة أخرى جاهلة مارقة تكفّر هؤلاء؛ لأنهم خالفوها الرأي، إنه لأمر محزن، فبادر الإمام ﷺ إلى وضع حدّ لعلاج هذه الظاهرة؛ ولاسيّما أنه توقع أن تستمر إلى الأجيال القادمة باستمرار أسبابها، فعالجها ﷺ في خطبه، وكتبه، وحكمه، فضلاً عن مواقفه المشرفة.

وفي ما يأتي أهم السبل التي اعتمدها الإمام علي ﷺ لمواجهة ظاهرة التكفير، وتحجيمها، ووقاية الناس من شر أفعال أهلها:

١- النصح والإرشاد وإعادة التأهيل:

اعتمد الإمام علي ﷺ أسلوب النصح، والإرشاد، وإعادة التأهيل مع بعض من اعتقد بأفكار الخوارج ومعتقداتهم التكفيرية، وعن طريق الحوار الهادئ والمنطقي، واضعاً من خلال ذلك «أسس بناء الحوار الفكري والسياسي بين القائد والمعارضة »[1].

وكان الإمام ﷺ يحرص على أن يُشعر أعداءه، ومنهم الخوارج، بالأمن والأمان، لكي يهتدوا برشده، ويستفيدوا من نصحه وإرشاداته، فحين قال أحدهم للإمام ﷺ: «في أصحابك رجال خشيت أن يفارقوك فما ترى فيهم، قال له ﷺ: إني لا آخذ على التهمة، ولا أعاقب على الظن، ولا أقاتل إلا من خالفني، وناصبني، وأظهر لي العداوة، ولست مقاتله حتى أدعوه وأعذر إليه؛ فإن تاب ورجع إلينا قبلنا منه، وهو أخونا، وإن أبى إلا الاعتزام على حربنا استعنّا عليه وناجزناه »[2]، كما ورد عنه ﷺ في هذا الصدد قوله: «لا عاقبة أسلم من عواقب السلم»[3]، ووصيته ﷺ إلى قوّاده: «الاستصلاح للأعداء بحسن المقال، وجميل

---

(١) محسن باقر الموسوي، المدخل إلى علوم نهج البلاغة، دار العلوم، (بيروت- ٢٠٠٢م)، ص٨٢.

(٢) الثقفي، الغارات، تحقيق : السيد جلال الدين الحسيني، (ايران د.ت)، ص٣٧١ ؛ المجلسي، بحار الأنوار، ج٣٣، ص٤١٧.

(٣) هادي النجفي، موسوعة أحاديث أهل البيت، ط١، دار إحياء التراث، (بيروت ٢٠٠٢)، ج٧، ص٢٩

الأفعال أهون من ملاقاتهم بمضيض القتال»[١].

كما اعتمد الإمام علي ﷺ في التعامل مع هذه الظاهرة، أسلوب تثقيف أصحابها بصحيح الأمور من سقيمها، وبحسب الرؤية الإسلامية، وسمح لهم بالعمل داخل المجتمع الإسلامي، مع مراقبته خشية أن يقوموا بأعمال مخلة بالأمن، ومن ذلك ما قاله ﷺ: «معاشر الخوارج إني جئتكم لأقدم الأعذار والأنذار إليكم، وأسألكم ما تريدون وما تطلبون وتسمعون ما أقول وأسمع ما تقولون»[٢]. وإعادة التأهيل هنا ترتكز على المسامحة، وتفهم الرأي الآخر ومسوغاته ومنطلقاته؛ بل إنه غالباً ما يناديهم ويخاطبهم بوصفهم مسلمين[٣].

ويدخل ضمن هذا الإطار تبني الإمام ﷺ أسلوب قبول تحقيق بعض المطالب المشروعة للمعارضة، ومنهم الخوارج، وهذا الاتجاه في التعامل كان من متبنيات الإمام منذ أن طالب الخليفة الثالث بتحقيق مطالب المعارضة آنذاك؛ بل إن للإمام رأياً مخالفاً، وإنما تماشى مع إلحاح المعارضة في عهده حين قبل بمبدأ التحكيم، مع قناعته بما هو مخبأ وراء الدعوة آنذاك، طالما أن هذه المطالب لم تتعارض مع الشريعة الإسلامية[٤].

٢- الإجراءات الفكرية وتبادل الآراء:

اعتمد الإمام علي ﷺ سبيل الحوار الفكري لتعرية أصحاب هذه الفرقة الضالة، الذين يدّعون انتساب أفكارهم إلى القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، مما جعل بعض المسلمين يصدقون دعواهم، وينخرطون في صفوف مسارهم المنحرف، ومن ذلك ما روي عن «أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّهُ كَانَ جَالِساً فِي أَصْحَابِهِ إِذْ مَرَّتْ بِهِمُ امْرَأَةٌ جَمِيلَةٌ فَرَمَقَهَا الْقَوْمُ بِأَبْصَارِهِمْ؛ فَقَالَ عليه السلام: إِنَّ عُيُونَ هَذِهِ الْفُحُولِ طَوَامِحُ، وَإِنَّ ذَلِكَ سَبَبُ هِبَابِهَا فَإِذَا نَظَرَ أَحَدُكُمْ إِلَى امْرَأَةٍ تُعْجِبُهُ فَلْيُلَامِسْ أَهْلَهُ فَإِنَّمَا هِيَ امْرَأَةٌ كَامْرَأَةٍ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْخَوَارِجِ: قَاتَلَهُ اللهُ كَافِراً مَا أَفْقَهَهُ،

---

(١) هادي النجفي، موسوعة أحاديث أهل البيت، ط١، دار إحياء التراث، (بيروت ٢٠٠٢): ج٧، ص١٠٩.
(٢) الخصيبي، الهداية الكبرى، مؤسسة البلاغ للطباعة، ط١، (بيروت ١٩٩١)، ص١٣٧.
(٣) عبد الحميد محسن، الإسلام والتنمية الاجتماعية، دار الأنبار، (بغداد- ١٩٨٩م)، ص٦٠٤.
(٤) ينظر: المصدر السابق، ص٦٠٤- ص٦٠٨.

فَوَثَبَ الْقَوْمُ لِيَقْتُلُوهُ، فَقَالَ عليه السلام: رُوَيْداً فَإِنَّمَا هُوَ سَبٌّ بِسَبٍّ أَوْ عَفْوٌ عَنْ ذَنْبٍ»[1].

وفي هذه الرواية دروس وعبرة كثيرة، فهي تبيّن أن الرجل الذي كان من الخوارج اعترف للإمام أمير المؤمنين عليه السلام بالعلم والمعرفة، وأنه أفقه الموجودين، وهذا أمر إيجابي مطابق للأحاديث النبوية التي قالها رسول الله صلى الله عليه وآله، ودعاؤه على أمير المؤمنين عليه السلام من أن الله يقتله، ونسب الرجل الخارجي إلى أمير المؤمنين عليه السلام الكفر، وهذه عقيدتهم فيه وفي من شايعه وتابعه، وكان الإمام عليه السلام رابط الجأش لم يتأثر بما سمع، ولم يغضب مع أنها كلمة كبيرة تخرج من فم هذا الجاهل، ولم يحاول عليه السلام أن يبطش به ويثأر لنفسه؛ بل على العكس من ذلك لما ثارت ثائرة أصحابه ولم يتمالكوا الموقف وأرادوا قتل الخارجي منعهم من ذلك؛ لأنه أراد أن يؤسس منهجاً قوياً للحرية والديمقراطية، وأن الفرد في الأمة وإن كان مخطئاً في أفكاره وكلامه لا يعاقب عليه حتى يصل إلى مرحلة التعدي على الآخرين، وهو موقف لم يكن متوقعاً من سائر الناس، لأنهم توقعوا أن الإمام عليه السلام سينتقم من هذا الرجل الذي كفّره، فأمير المؤمنين في تلك المدة يمثل طبقتين مهمتين من المجتمع، هما: السلطة الحاكمة، والتعدي عليه تعدٍّ على الحكومة الإسلامية أجمع؛ بل هو تعدٍّ على جميع المسلمين إذ كان يمثلهم، وطبقة العلماء، فهو إمامهم، وسيدهم، وقائدهم، ومعلمهم، والتعدي عليه تعدٍّ على هذه الطبقة من المجتمع، ونسبة الكفر إليه تعني كفرهم جميعهم.

لقد كان الإمام علي عليه السلام يبرر عدم التعرض لهم بالقول: «لهم علينا ثلاث أن لا نمنعهم المساجد أن يذكروا الله فيها، وأن لا نمنعهم الفيء ما دامت أيديهم مع أيدينا، وأن لا نقاتلهم حتى يقاتلوننا»، نعم، كان الإمام مضطراً إلى تلك الحرب خضوعاً إلى أحكام الشرع الإسلامي، واستناداً إلى معطيات فقهه السياسي في تفسير الآيات القرآنية، ألم يأتِ في الحديث الشريف: «أنا مدينة العلم وعلي بابها»؟ ولا بد أن نذكر هنا أن الإمام عليه السلام رفض السماح لأتباعه بقتل ذلك الخارجي الذي شتمه ووجّه إليه تهمة الكفر أمام ملإٍ من الناس.

وبهذا الصدد أيضاً أجاز الإمام علي عليه السلام حرية تبني المواقف السياسية للأفراد

---

(١) نهج البلاغة، ج٤، ص٩٩.

والجماعات، ضمن حرية الرأي والكلمة، وكذلك حق المعارضة، مع مراعاة الضوابط، لأن خلاف ذلك قد يؤدي إلى هلاك الأمة، وهو ما عبّر عنه بقوله: «إن الله سبحانه لم يلعن القرن الماضي بين أيديكم، إلا لتركهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فلعن الله السفهاء لركوب المعاصي، والحلماء لترك التناهي»(١)؛ لكنه فرّق بين المعارضة الواعية، وهي المعارضة التي تسير في طول النظام القائم تنتقده، وتوجهه، وترشده، وتحافظ عليه، وتتحرك هي والسلطة القائمة إلى أهداف مشتركة هي مصلحة الدولة، ورفاهية الأمة، وتطبيق النظام في ظل الحكومة الإسلامية العادلة، وكان مثالاً لذلك، وبين المعارضة الجاهلة، وهي التي تنشأ مع غياب الرؤية السياسية، وفقدان العمق الفقهي للشريعة مع ضبابية الأهداف والأولويات.

كما ورد في هذا السياق أيضاً عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّهُ خَطَبَ بِالْكُوفَةِ؛ «فَقَامَ رَجُلٌ مِنَ الخَوَارِجِ فَقَالَ: لَا حُكْمَ إِلَّا لله؛ فَسَكَتَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ، ثُمَّ قَامَ آخَرُ، وَآخَرُ، فَلَمَّا أَكْثَرُوا قَالَ: كَلِمَةُ حَقٍّ يُرَادُ بِهَا بَاطِلٌ؛ لَكُمْ عِنْدَنَا ثَلَاثُ خِصَالٍ: لَا نَمْنَعُكُمْ مَسَاجِدَ الله أَنْ تُصَلُّوا فِيهَا، وَلَا نَمْنَعُكُمُ الْفَيْءَ مَا كَانَتْ أَيْدِيكُمْ مَعَ أَيْدِينَا، وَلَا نَبْدَؤُكُمْ بِحَرْبٍ حَتَّى تبدؤونا، وَأَشْهَدُ لَقَدْ أَخْبَرَنِي النَّبِيُّ الصَّادِقُ عَنِ الرُّوحِ الْأَمِينِ عَنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ: أَنَّهُ لَا يَخْرُجُ عَلَيْنَا مِنْكُمْ مِنْ فِئَةٍ قَلَّتْ أَوْ كَثُرَتْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِلَّا جَعَلَ اللهُ حَتْفَهَا عَلَى أَيْدِينَا، وَإِنَّ أَفْضَلَ الْجِهَادِ جِهَادُكُمْ، وَأَفْضَلَ الْمُجَاهِدِينَ مَنْ قَتَلَكُمْ، وَأَفْضَلَ الشُّهَدَاءِ مَنْ قَتَلْتُمُوهُ، فَاعْمَلُوا مَا أَنْتُمْ عَامِلُونَ، فَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ وَلِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ»(٢).

وهذا النص يوضح أن للإنسان حقَّ حرية الرأي، والنقد، والاعتراض على أعلى سلطة في الدولة بدون أي مضايقات له، ومهما كان النقد لاذعاً، وعلى أكبر شخصية في الدولة وهو خليفة لرسول الله صلى الله عليه وآله فإن حقه مكفول، وقد تكفل الإمام عليه السلام أن يضمن لهم حقوقهم: وهي أن لا يمنعوا من الصلاة في المساجد؛ لأنها بيوت الله والجميع فيها على حد سواء، وأن لا يمنعوا حقوقهم المادية سواء كان هذا الحق من بيت المال أو للفقراء، وأن لا يبدؤوهم

---

(١) نهج البلاغة، ج٢، ص١٥٦.

(٢) النوري، مستدرك الوسائل، ج١١، ص٦٥ .

بحرب حتى يبدؤوا بها فبعد ذلك يقاتلوا، وهذا كله إذا لم يتعدوا بأيديهم على دماء المسلمين وحقوقهم، وحينئذٍ لا بد من قتالهم كما فعل الإمام عليه السلام مع أهل الجمل، وصفين، والنهروان.

وعلق أحد الباحثين على الخصلة الأولى التي أقرها أمير المؤمنين على أعدائه، ومنهم الخوارج، «لَا نَمْنَعُكُمْ مَسَاجِدَ اللهِ أَنْ تُصَلُّوا فِيهَا» مبيناً أهدافها بالآتي[1]:

١- السمو ببيوت الله عن أي تعارض أو رأي سياسي في سبيل أن تبقى للجوامع والمساجد قدسيتها.

٢- السعي إلى لمِّ شمل الوحدة الإسلامية؛ إذ إن اصطفاف المسلمين لأداء فريضة واحدة ولقبلة واحدة قد تكون فرصة مناسبة لوقفة مع الذات في البحث بالأسباب الحقيقية للخلافات مع بقية الأخوة من المسلمين، وكون الاحتكاك المباشر بين المسلمين في بيت الله حتى مع تباين آرائهم واختلافهم سوف يقلل أو يلغي كثيراً من سوء الفهم الذي قد ينشأ نتيجة تسيس بيوت العبادة من أكثر الفرق والأحزاب الإسلاميّة.

٣- رفض الإمام عليه السلام إعطاء أي حق لأي حاكم بأن يجرد فرداً أو مجموعة من ممارسة حقوقهما بوصفهم مسلمين أو يفرض هيمنته على بيوت الله، أي تحرير الكيان المعنوي (إيمان الإنسان)، والكيان المادي (المساجد والجوامع) من هيمنة السلطة.

٤- محاولة الإمام عليه السلام القضاء على فكرة التكفير داخل المجتمع الإسلامي كونها فكرة خطرة على وحدة المسلمين؛ لأنه إذا وصف المسلم بأنه كافر فإن ذلك سيؤدي إلى استباحة دمه وماله وعرضه؛ لذلك قال عليه السلام عن معارضيه: «إنا لم نقاتلهم على التكفير لهم، ولم نقاتلهم على التكفير لنا؛ ولكنا رأينا إنا على حقّ، ورأوا أنهم على حق...، وهم أخواننا بغوا علينا»[2]، ووضح هذا الموقف بوضوح بقوله: «إنما أصبحنا نقاتل إخواننا في الإسلام على ما دخل فيه من الزيغ، والاعوجاج، والشبهة، والتأويل، فإن طمعنا في خصلة يلم الله بها شعثاً، ونتدانى

---

(١) غسان السعد، حقوق الإنسان عند الإمام علي، ص٢٣٨.

(٢) بحار الأنوار: ج٣٢، ص٣٢٤.

بها إلى البقية، رغبنا فيها، وأمسكنا عما سواها»[1].

كما يدخل ضمن هذا الإطار إقرار الإمام علي عليه السلام لمعارضيه ومنهم الخوارج بحقوقهم المالية، في محاولة منه لكسب من غُرِّرَ بهم وإعادتهم إلى سبيل الصواب، وتحجيم الظاهرة خشية أن تتطور إلى صراع بين المسلمين أنفسهم، وهو ما نفهمه من قوله: «لا نمنعكم الفيء ما كانت أيديكم بأيدينا»[2].

وفضلاً عمّا مرَّ حفظ الإمام الوجود القانوني لهم، فحين استشاره قضاته في «شهادة الخوارج بالبصرة فأمر بقبولها كما كانت تقبل قبل خروجهم عليه»[3]، ومنحهم أيضاً حقَّ حرية التنقل والحركة، إذ بعث إليهم «أن سيروا إلى حيث شئتم»[4]، ولعله أراد في ذلك تفريقهم، وعدم مكوثهم في أرض معينة فيتحولوا إلى قوة وكيان.

٣- الإجراءات العسكرية:

إن الأساليب المذكورة آنفاً التي اعتمدها الإمام علي عليه السلام في تصديه لظاهرة التكفير والعنف التي تمثلت بالخوارج، كان أساسها الحوار الحضاري، والتواصل مع الآخر، واحترامه على أساس أنه إنسان، وينطق الشهادتين، وله حقوق أقرتها له الشريعة الإسلامية، قد آتت أُكلها، فرجعت منهم فئة كثيرة، وأبت أن ترفع سيفها بوجه الإمام عليه السلام ومن معه من أخيار المسلمين، وقدر المؤرخون عددهم بنحو (٨٠٠٠) ثمانية آلاف مقاتل، في حين بقي (٤٠٠٠) أربعة آلاف مقاتل متمسكين بنهجهم التكفيري وقد أضلَّ الشيطان سبيلهم[5].

لقد كان سبيل القتال أبعد ما يكون عن تفكير أمير المؤمنين في تعامله مع الخوارج؛ لأنه عليه السلام كان يعتقد بحق الحياة، بوصفها من حقوق الإنسان الرئيسة التي أقرتها له شرائع الإسلام[6]، و كان يرى أن سفك الدماء يثير الغضب والنقمة بين أفراد المجتمع مما يؤدي إلى

---

(١) نهج البلاغة، ج٧، ص١٢١ .

(٢) البيهقي، السنن الكبرى، ج٨، ص١٨٤ .

(٣) المرعشي، شرح احقاق الحق، ط١، منشورات مكتبة آية الله العظمى المرعشي، (قم ١٤١٧هـ)، ج٣٢، ص١٩٩ .

(٤) المحمودي، نهج السعادة، ج٢، ص٣٦٧ .

(٥) محمد خليل الدين، تاريخ الفرق الإسلامية، ص٨٨- ص٨٩ .

(٦) ينظر: غسان السعد، حقوق الإنسان عند الإمام علي، ص٦١- ص٨١ .

الاضطرابات، وهو من الأسباب المهمة للصراع المجتمعي؛ لأن «لكل دم ثائراً»[1]، لكن كثيراً من أتباع أصحاب هذا النهج لم ينتفعوا بإجراءات أمير المؤمنين عليه السلام التي أراد من خلالها أن يكونوا جزءاً من العملية السياسية، وضمن إطار المعارضة البناءة القائمة على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إذ تمكن منهم إبليس، وسيطر على تفكيرهم وسلوكياتهم - على حد وصف ابن الجوزي لهم[2]، فسلكوا الخيار العسكري، والمؤامرات الخطيرة التي باتت تهدد الأمة الإسلامية وكيانها المادي والمعنوي، وهو ما عبّر عنه المؤرخون بأقوالهم: انحرفوا «عن الثورة واعتمدوا النهب والسلب حرفة»[3]؛ و«سفكوا الدم وأخافوا السبيل»[4].

وأمام هذا كان لابد من أن يلجأ الإمام علي عليه السلام إلى الأسلوب العسكري في مواجهتهم؛ لرد شرورهم عن المجتمع، وفي هذا الصدد قال: «سأمسك الأمر ما استمسك وإذا لم أجد بداً فآخر الدواء الكي»[5]، و«لا أكون كالضبع تنام على طول اللدم، حتى يصل إليها طالبها، ويختلها راصدها، ولكني أضرب بالمقبل إلى الحق المدبر عنه، وبالسامع المطيع العاصي المريب أبداً»[6]. لذلك تعقّبهم الإمام علي عليه السلام إلى شاطئ النهروان وحاربهم هناك.

ونلحظ أن خيارات السلم والمهادنة كانت حاضرة حتى في ساحة الحرب، فكان الإمام يقدم خيارات أخرى، ويكره أن يبدأ عدوه بالحرب، فقال لهم قبل بدء المعركة: «لا أبتدؤكم بحرب حتى تبدؤوا»، و «لا نهيجهم ما لم يسفكوا دماً، وما لم ينالوا محرماً»[7].

ومع ذلك كله كان الإمام يقبل التوبة منهم، فلما اقترح عليه أحد قواد جيشه بتصفية رؤوس الخوارج جميعهم، وكان بعضهم أسرى، وآخرين أعلنوا عن توبتهم، قال: «والله ما أظنك ورعاً ولا عاقلاً نافعاً، والله لقد كان ينبغي لك لو أني أردت قتلهم أن تقول: اتق الله بما

---

(١) الشريف الرضي، نهج البلاغة، شرح محمد عبده، دار المعرفة، (بيروت- د،ت)، ج١، ص٢٠١ .
(٢) تلبيس إبليس، ص١-٣ .
(٣)غسان السعد، حقوق الإنسان عند الإمام علي، ص٢٣٨
(٤) الصنعاني، المصنف، ج١٠، ص١٤٨ .
(٥) نهج البلاغة، ج٢، ص٨١ .
(٦)نهج البلاغة،ج١، ص٤٢ .
(٧) المحمودي، نهج السعادة، ج٢، ص٣٣٩ .

تستحل قتلهم؟ ولم ينابذوك ولم يخرجوا من طاعتك»(١).

ومما تقدّم ظهر جلياً أن الإمام علياً عليه السلام لم يعمد لعزل الخوارج عن الأمة الإسلامية بوصفهم فئة ضالة؛ بل حاول أن يتواصل معهم بوصفهم جزءاً من الأمة، وربما والله العالم، لم يرد أن يشعروا بالعزلة وكأنها عقوبة لهم ما يدفع بهم إلى التشبث بموقفهم وزيادة عدائهم للمسلمين، لذلك حين حاول المسلمون أكثر من مرة الانتزاع من الإمام علي عليه السلام قولاً بأنهم كفار ليقتلوهم، لم يفلحوا وظل عليه السلام يردد كل حين بأنهم «اخْوَانُنَا بَغَوْا عَلَيْنَا».

الخاتمة:

إن ما عرضه البحث من إشارات – على قلتها – أبرزت بوضوح طبيعة المنهج الواجب اتباعه لمواجهة ظاهرة التكفير، والقضاء عليها في فكر الإمام علي عليه السلام التي من دون جدل يجب أن تكون دستوراً، ومنهجية عمل لكل من يرغب في تحجيم هذه الظاهرة والقضاء عليها، بغض النظر عن طبيعة النظام الحاكم السائد في بلده، حتى وإن كان على النمط الغربي.

وقد تضمن هذا المنهج حرص الإمام علي عليه السلام على تحديد أسباب تلك الظاهرة ومعالجتها بصورة دائمة؛ لإزالتها من تراث الأمة الفكري؛ وحرصاً منه على عدم عودتها في أثواب أو أشكال أخرى، وظهر ذلك جلياً عبر محاولته معالجة جذورها الفكرية وعدم عزلها عن المجتمع وكأنها حالة طارئة غير متجددة يجب التعامل معها بالقوة المجردة فقط، ما قد يقود للقضاء عليها بصورة مؤقتة، وسرعان ما ستجد لنفسها ثوباً جديداً ترتديه، وقد كان الإمام عليه السلام محقاً كل الحق في ذلك – وكيف لا يكون كذلك وهو نفس رسول الله – وهو ما أثبتته الأيام في الوقت الحاضر، حين اتخذت ظاهرة التكفير أشكالاً وأنماطاً متعددة، فما أن يتم القضاء عليها في شكل ومكان معين حتى تظهر في شكل ومكان آخر، الأمر الذي يثبت أن استخدام القوة المجردة لوحدها قد لا يؤدي إلى النتائج المثالية المرجوة.

---

(١) الريشهري، موسوعة الإمام علي، ص٢٧٧ .

لقد ظهر بصورة لا تقبل الشك أن الإمام علياً عليه السلام لم يعمد لعزلهم عن الأمة بوصفهم فئة ضالة منبوذة؛ بل حاول أن يتواصل معهم بوصفهم جزءاً من الأمة أخطأ طريق الحق، وربما والله العالم لم يرد عليه السلام أن يحول شعور العزلة الاجتماعية التي كان من الممكن أن يشعروا بها إلى دافع إضافي يمكن أن يتخذوه للإيغال في ضلالهم، كما ترك لهم إمكانية العودة إلى طريق الحق، لذلك ظل عليه السلام يردد في كل حين بأنهم إخواننا بغوا علينا.

كما أثبت الإمام علي عليه السلام بأن من الضروري تفكيك مفهوم ظاهرة التكفير، والأشخاص المرتبطين به بين عامدٍ ومضلَّل، مشيراً إلى أن ذلك يسهم في الحدِّ من انتشارها، وإمكانية التواصل مع الفئة الضالة، ومحاولة إعادتها إلى جادة الصواب.

وفي الإطار نفسه أن الإمام علياً عليه السلام لم يمنع التكفيرين حقوقهم المالية والاقتصادية التي كانت حق لهم على الدولة، ما أسهم في الإبقاء على خط التواصل معهم مستمراً؛ ولكن بإطار اقتصادي محض ما يعزز ثقتهم بطبيعة النظام الحق وإمكانية العودة للتواصل معه، وربما والله العالم أن الإمام عليه السلام وهو الرباني في أحكامه أراد من وراء عدم قطع حقوقهم المادية أن يغريهم عبر معالجة مشاكلهم الاقتصادية التي قد تكون -كما أسلفنا - عاملاً من عوامل زيادة ظاهرة الإرهاب والتكفير وتفشيها.

وإلى جانب كل ما تقدم فإن اعتماد الإمام علي عليه السلام مبدأ الحوار، والمناظرة الفكرية والعلمية، وحرية التعبير عن الرأي يُعدُّ رائعة من روائع الحكم الإسلامي، ونحن نجزم أن هذه الفئة لو كانت في غير زمان الإمام عليه السلام لما كان لها غير السيف جواباً على مطالبها، كما يحدث اليوم في كثير من دول العالم وبلدانه.

وأخيراً: إن اعتماد الإمام علي عليه السلام خيار المواجهة العسكرية كان شراً لا بدَّ منه، إلى جانب إمكانيته العسكرية التي تتيح له جعله الخيار الأول في مواجهتهم، لكنه عليه السلام يعدُّ أتباعه لمنهجية المولى تعالى التي كتبها على نفسه، وطالب عباده باتباعها، ولاسيما بعد حالة القدسية والحرمة التي أحيطت بها النفس البشرية.

التلقِّي الإسلاميّ والعالميّ
للفكر التكفيريّ وجماعاته التكفيريّة

التلقّي الإسلاميّ والعالميّ للفكر التكفيريّ وجماعاته التكفيريّة

د. طلال الحسن*

المفردات الأساسية في البحث:

التلقي الإسلاميّ، التلقي العالميّ، الفكر التكفيريّ، الجماعات التكفيريّة، الخلفيّات العامّة للتكفير، الخلفيّات الخاصة للتكفير.

أهداف البحث:

- بيان الخلفيّات العامّة والخاصّة لنشوء الفكر التكفيريّ، والجماعات التكفيريّة.
- بيان معنى التلقّي الإسلاميّ والعالميّ للفكر التكفيريّ.
- بيان حدود التلقّي الإسلاميّ والعالميّ للفكر التكفيريّ.
- بيان الحلول المقترحة في مواجهة التلقّي للفكر التكفيريّ والجماعات التكفيريّة.

تمهيد:

بالرغم من أنَّ للفكر التكفيري وظهور الجماعات التكفيرية جذوراً تاريخية ـ مرتبطة بالعصبية القبلية التي تحكّمت بمفردات الدين وتطبيقاته ـ تمتد إلى عصر الخلافة، وأنَّ النبي محمداً ﷺ قد حذّر من أول حالة تشدّد، إلا أنَّ هذا الفكر وجماعاته لم تشكّل حضوراً قويّاً، ولم تصبح ظاهرة منتشرة وخطيرة في العالم بأسره إلا في العقد الأخير من القرن المنصرم، هذا

* باحث اسلامي وأستاذ في جامعة أهل البيت العالميّة – قم المقدسة.

أولاً.

وثانياً: هنالك تناقض شديد قد حيَّر العقول، وهو أنَّ الفكر التكفيريّ غالباً ما يتقاطع مع الواقع الإنساني والقيم الإنسانية، فكيف ينسجم مع هذا الإقصاء الاستثنائيّ حصول انجذاب كبير وتلقٍّ غير مسبوق لهذا الفكر اللاإنساني ؟!.

وهذا ما يجعلنا نتوقّف عند الخلفيّات العامّة والخاصّة لهذا الانتشار السريع والخطر أيضاً، وعند طبيعة هذا التلقّي للفكر التكفيريّ، وانتشار الجماعات التكفيريّة خارج معاقلها التقليديّة، ومما ينبغي أيضاً الوقوف عنده هو بيان ما يجب علينا في التعاطي مع هذا النشوز الدينيّ والإنسانيّ.

الخلفيّات العامّة:

بغض النظر عن روافد تغذية الفكر التكفيريّ، والجماعات التكفيرية من داخل العالم الإسلامي وخارجه، فإنَّ هنالك خلفيات دينية وتاريخية عدَّة أدَّت إلى نشوء الفكر التكفيري وانتشاره، وقد ناسب تسمية هذه الخلفيات بالخلفيات العامة؛ لأنّها لم تكن مؤدلجة، وإنما هي اتجاه دينيّ اقترنت أفكاره بالعفوية والسذاجة، وقد ساعدت على ذلك بيئة النزول الموصوفة بالجهل والقسوة، ويمكن درج هذه الخلفيات على النحو الآتي:

أولاً: الخلفيّات الدينيّة

لم يألُ الفكر التكفيري جُهداً في إيجاد نصوص دينية من القرآن الكريم والسنة الشريفة داعمة لاستراتيجيتهم الثابتة، والقائمة على أصول عدّة يجمعها أو تجتمع عند أصل متين عندهم، وهو الوقوف على ظواهر النصّ، وعدم تعدّيه مطلقاً، وأنَّ مخالفته موجبة للكفر.

وقد اشتمل القرآن الكريم على نصوص كثيرة بحاجة إلى بيان وتوضيح وتفصيل، ولا يُمكن بأي حال من الأحوال أن يُعمل بها على ظاهرها، إلا أنَّ القائلين بالجمود على الظواهر

القرآنية قد منعوا ذلك، وهذا ما أوقعهم في التجسيم، كما هو الحال في جميع آيات التشبيه(١)، فنسبوا لله تعالى وجهاً، وعيناً، ويداً، وقدماً، وأنه يقوم ويقعد على كرسيه وعرشه، وغير ذلك من الآيات الصريحة بالتشبيه، التي لا يُمكن حملها على ظواهرها، وإنما لابدَّ من تأويلها أو الركون إلى القرائن العقلية وبيانات السُنَّة الشريفة، فإذا كانت مثل آيات التشبيه لم تسلم من لزوم الوقوف عند ظواهرها اللفظية فكيف بغيرها ؟! وهؤلاء الظاهريون قد رتّبوا على مخالفة الظواهر القرآنية أحكاماً قسرية، منها التفسيق، والتبديع، والتكفير؛ بل لم يقتصر اجترار التكفير على مخالفة آيات التشبيه وإنّما صاروا يطبّقون جميع الآيات التي قد وردت فيها كلمة (الكفر) على سائر من خالفهم من المسلمين!!.

فالذين يزورون موتاهم أو قبور الأنبياء والأولياء والصالحين نعتوهم بالكفر! وطبّقوا عليهم ما جاء في حقّ بعض فرق أهل الكتاب؛ ممّن نسبوا الأُلوهية لعيسى وعزير عليهما السلام بتسميتهم أبناءَ لله تعالى، كما في قوله تعالى: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾(٢)، فصاروا ينفحون سموم الكفر على كل مسلم ابتغى زيارة قبر رسول الله ﷺ، فمثل هؤلاء الزوّار في نظر التكفيريين قد ﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾! (٣)

وأما على مستوى السنة الشريفة فقد تمسّك التكفيريّون برواية ضعيفة ومخالفة للنصوص القرآنية، وهي نسبة القول إلى رسول الله ﷺ بأنه قد جاء بالذبح! وقد ورد هذا الخبر في بعض الكتب الثانوية للسنّة والشيعة؛ بل لم يرد هذا الخبر إلا في كتاب البحار من كتب

---

(١) من قبيل قوله تعالى: ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ (الفتح: ١٠)، وقوله تعالى: ﴿ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ (الطور: ٤٨)، وقوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ (طه: ٥)، وغير ذلك.

(٢) التوبة: ٣٠ ـ ٣١.

(٣) التوبة: ٣١.

الشيعة، في حين أنه قد ورد في مصادر عدة من كتب السنّة.

أمّا رواية البحار فقد روى العلامة المجلسي أنَّ من أسماء النبي محمد ﷺ هو (نبي الملحمة)! قال: «ومن أسمائه: نبي الملحمة، ورد في الحديث، والملحمة: الحرب، وسمي بذلك لأنّه بُعِثَ بالذبح، روي أنّه سجد يوماً فأتى بعض الكفار بسلى ناقة فألقاه على ظهره، والسلى بالقصر: الجلدة الرقيقة التي يكون فيها الولد من المواشي، فقال: يا معشر قريش أي جوار هذا؟ والذي نفس محمد بيده لقد جئتكم بالذبح، فقام إليه أبو جهل ولاذ به من بينهم، وقال: يا محمد ما كنت جهولاً، وسمي نبي الملحمة بذلك»[1].

وأما رواية أهل السنة فقد رواها ابن حنبل وغيره، جاء فيها: «اجتمع أشرافهم ـ أي: قريش ـ يوما في الحجر فذكروا رسول الله ﷺ فقالوا: ما رأينا مثل ما صبرنا عليه من هذا الرجل قط، سفّه أحلامنا، وشتم آباءنا، وعاب ديننا، وفرق جماعتنا، وسب آلهتنا، لقد صبرنا منه على أمر عظيم، أو كما قالوا: قال: فبينما هم كذلك إذا طلع عليهم رسول الله ﷺ، فأقبل يمشي حتى استلم الركن، ثم مرّ بهم طائفاً بالبيت، فلما أن مرّ بهم غمزوه ببعض ما يقول قال فعرفت ذلك في وجهه، ثم مضى فلما مرّ بهم الثانية غمزوه بمثلها، فعرفت ذلك في وجهه، ثم مضى ثم مرّ بهم الثالثة فغمزوه بمثلها، فقال: تسمعون يا معشر قريش أما والذي نفس محمد بيده لقد جئتكم بالذبح، فأخذت القوم كلمته حتى ما منهم رجل إلا كأنّما على رأسه طائر واقع...»[2].

وهذه الرواية لم ترد بسند في البحار، ووردت بسند ضعيف في مسند أحمد، وهي مروية عن عبد الله بن عمرو بن العاص المعروف بإسرائيلياته، وكثرة دسّه وتدليسه، وهو صنيعة بني أمية الذين حرصوا كثيراً على الإساءة إلى رسول الله ﷺ، وتشويه صورته المشرقة، فوضعوا عشرات الروايات المسيئة على ألسنة الصحابة وعلى ألسنة بعض نسائه، حتى صار

---

(١) بحار الأنوار، العلامة المجلسي: ج ١٦ ص ١١٦.

(٢) مسند أحمد، الإمام أحمد بن حنبل: ج ٢ ص ٢١٨؛ فتح الباري، لابن حجر العسقلانيّ: ج ٧ ص ١٢٨؛ صحيح ابن حبان، لابن حبان: ج ١٤، ص ٥٢٦؛ سيرة النبي ﷺ، لابن هشام الحميريّ: ج ١، ص ١٨٧؛ السيرة النبوية، لابن كثير الدمشقيّ: ج ١، ص ٤٧١.

علماء المسلمين يشكّون في أكثر الروايات؛ نتيجة كثرة الوضع والدسّ، وقد عبَّر الحافظ الدارقطني عن ذلك بقوله: «إنَّ الحديث الصحيح في الحديث الكذب كالشعرة البيضاء في جلد الثور الأسود»[1].

ولو قطعنا النظر عن سندها فإنّها رواية مكذوبة على رسول الله ﷺ بنصّ القرآن، فقد أمرنا بأنَّ نعرض كلام المعصوم على كتاب الله، كما جاء ذلك صحيحاً وصريحاً في روايات عدّة[2]، ولم يخالف في ذلك إلاَّ فقهاء بني أمية بعدما علموا بأنَّ القرآن سيقف بالمرصاد لرواياتهم المكذوبة على رسول الله ﷺ وعلى الصحابة، فمُنعوا من العمل بقاعدة العرض على كتاب الله، ليتمكّنوا من نشر ثقافة حديثيّة، تحفظ سلطانهم، وتحقّق أحلامهم بالعودة إلى سلطة القبائل بدلاً من سلطة الإسلام.

وعلى أيّ حال، فإنَّه وبحسب مقتضيات العرض على كتاب الله نجد رواية المجيء بالذبح وما شابهها مكذوبة على رسول الله ﷺ؛ لأنها مخالفة لنصّ القرآن القائل في حقِّ النبي ﷺ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ (الأنبياء: ١٠٧)، فهل يناسب ذلك أن يكون قد جاء بالذبح ؟!.

كما أنّها مخالفة أيضاً لجميع آيات العفو والصفح، والأهم من ذلك هو أنَّ لحن خطاب الرواية المكذوبة هو أنَّ رسول الله ﷺ كان يُخاطب الكفار من قريش، ولم يكن يخاطب المسلمين ولا حتى أهل الكتاب، ولكنَّ التكفيريين لما كانت استراتيجيتهم قائمة على أساس القتل والذبح وإشاعة الخوف والرعب قاموا بتسريتها على المسلمين المخالفين لهم كافة، جهلاً

---

(١) أضواء على السنة المحمديّة، للشيخ محمود أبو ريه: ص ١٩٣.

(٢) قال رسول الله ﷺ: (إنَّ على كل حق حقيقة، وعلى كل صواب نوراً، فما وافق كتاب الله فخذوه وما خالف كتاب الله فدعوه). أصول الكافي، الشيخ الكليني: ج ١، ص ٦٩ ح ١ (باب الأخذ بالسنة وشواهد الكتاب). وعن أبي عبد الله الصادق ﵇ قال:(ما لم يوافق من الحديث القرآن فهو زخرف). المصدر السابق: ج ١، ص ٦٩ ح ٤ (باب الأخذ بالسنّة وشواهد الكتاب). وعن النبي ﷺ: (سئلت اليهود عن موسى، فأكثروا فيه وزادوا ونقصوا حتى كفروا، وسئلت النصارى عن عيسى، فأكثروا فيه وزادوا ونقصوا حتى كفروا، وإنه سيفشوا عني أحاديث، فما أتاكم من حديثي فاقرؤوا كتاب الله واعتبروه، فما وافق كتاب الله فأنا قلته، وما لم يوافق كتاب الله فلم أقله). المعجم الكبير، سليمان بن أحمد الطبرانيّ: ج ١٢، ص ٢٤٤. وعشرات الروايات الأخرى الدالة والمؤكّدة على هذه القاعدة النبوية.

وتعنّتاً منهم، ولنعم ما قاله أحد الحكماء: «حاججني العالم فغلبته، وحاججني الجاهل فغلبني».

من هنا كانت النصوص الدينية هي المرجعية الدينية الأولى للفكر التكفيري على مستوى القرآن والسنة الشريفة معاً، فقد كانوا حريصين جداً على الانطلاقة النصّية، ولكنهم أخطؤوا الطريق.

ثانياً: الخلفيات التاريخية

إنَّ من أهم الخلفيات التاريخية العامة هي انتشار كتب المغازي والملاحم، وهي من أشدّ المجالات التي خضعت خضوعاً كبيراً للدس والتزوير والكذب الصريح، فضلاً عن الحرص الشديد للحكومات اللاشرعية التي ساهمت إلى حدٍّ كبير في كتابة التاريخ، ولو رجعنا إلى بعض كلمات الأعلام نجدهم قد وجّهوا نقودات لاذعة لكتب المغازي، حتى طعن أحمد بن حنبل في أصل هذه الكتب، فقال: «ثلاثة كتب ليس لها أصول: المغازي والملاحم والتفسير»[1]، وقال الشافعي: «كتب الواقدي كذب»[2]، ويقصد كتب المغازي.

وبقطع النظر عن هذا الطعن وغيره، فإنَّ الفقهاء المسلمين قد تسالموا على قضية في غاية الأهميّة، وهي ضرورة الاحتياط في الدماء، حتى أنَّ البراءة الشرعية والعقلية لا تجريان في موردين هما: الفروج والدماء، وإنّما الاحتياط هو الحاكم فيهما، والسؤال: أين هؤلاء التكفيريّون من هذا الاحتياط، فلو ثبت أنَّ النبي ﷺ قد قال ذلك: (جئتكم بالذبح) لمشركي قريش؛ بل لو ثبت أنه ﷺ قالها لقبيلة أو جماعة من المسلمين ـ وهو غير ثابت قطعاً ـ فإنّه لابدّ من حمل الحكم على القضية الخارجية، ولا يمكن حملها على القضية الحقيقيّة؛ لأنَّ القضية تتعلّق بالدماء، والدماء هي مجرى لقاعدة الاحتياط إلا مع قيام دليل قطعيّ أو معتبر في مورد التطبيق.

---

(١) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغداديّ: ج٢ ص ١٦٢، تحقيق الدكتور محمود الطحّان؛ تذكرة الموضوعات، محمد طاهر بن علي الهنديّ الفتنيّ: ص ٨٢.

(٢) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغداديّ: ج ٢ ص ٢٣٤.

ولنوضّح ذلك بمثال: لو افترضنا أن رسول الله ﷺ قال: اقتلوا بني أمية، فإنّه لا يمكن حمل قوله على كل أفراد بني أمية في كل زمان ومكان، وإنّما نحمله على القضية الخارجية، فمن كان في عصره من بني أمية فإنّه يستحق القتل، بل لابدّ من حمل قوله على إرادة من حاربه من بني أمية، وليس مطلق بني أمية في عصره.

ويمكن التمثيل لذلك من خلال تطبيق قرآني، وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾[1]، فهذا محمول على المشركين الذين كانوا في عصر النبي ﷺ، ولا يشمل جميع المشركين في كل زمان ومكان؛ بل لا يجوز تطبيقه على جميع المشركين في عصره، وإنّما هو خاصّ ببعض طبقات المشركين المستكبرين من قريش، كأبي جهل، وأبي لهب، وإلا للزم إبطال الدعوة للإسلام والترويج له.

وإذا كان الأمر كذلك فكيف الاحتكام إلى قضايا تاريخية هي محل شك في وقوعها ونقلها وحدود تطبيقها، فإنَّ الركون إلى ذلك ليس من ديدن العلماء، وما ينبغي الالتفات إليه هو الثقافة الخاطئة لمفردة (الغزو) فإنّها مفردة سيئة الصيت، وقد حملوها على أشرف معنى وهو (الجهاد) فالجهاد فريضة مقدسة، وهي خاصة الأولياء، كما جاء في الأخبار، وأمّا الغزو والغزوة فإنّه تعبير جاهلي تلقفه الحكام الطغاة المعتدون، وألبسوه ثوب الجهاد المقدّس، ولذلك نقول: بأنَّ رسول الله ﷺ ما غزا قوماً ألبتة بالمعنى الجاهليّ الذي تحمله كلمة (الغزو)، وإنّما كان يؤدي فريضة الجهاد، وإذا ما استعملت هذه المفردة في بعض الأخبار فلا يراد بها المعنى الجاهليّ، أو لا يراد بها المعنى الأمويّ البغيض.

فالغزو بمعناه الجاهليّ والأمويّ يحمل جميع المضامين الجاهليّة البائسة، من سلب، ونهب، وسبي، وقتل، وبهذا المعنى قد وقعت معظم الفتوحات في العصر الأموي، وقد صارت الفتوحات الأموية بقواها الغازية، وليست المجاهدة قدوة للخوارج والتكفيريين المعاصرين، وإلا فكيف للنبي ﷺ يطلب أن ينادى له قبل وقوع أي معركة بأروع المعاني الإنسانية، فقد

---

(١) البقرة: ٦.

روي عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام أنّه قال: «إنَّ النبي صلى الله عليه وآله كان إذا بعث أميراً له على سرية أمره بتقوى الله عز وجل في خاصّة نفسه، ثم في أصحابه عامة، ثم يقول: اغزوا بسم الله وفي سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، ولا تغدروا، ولا تغلوا، وتمثلوا، ولا تقتلوا وليداً، ولا متبتلاً في شاهق، ولا تحرقوا النخل، ولا تغرقوه بالماء، ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تحرقوا زرعاً...»[1]، فهل أبقى التكفيريّون حرثاً، ونسلاً، وأرضاً، صالحة؟ أو عاثوا في الأرض فساداً، وقد قال تعالى: ﴿ وَيَٰقَوۡمِ أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ﴾[2].

الخلفيّات الخاصّة:

وأما الخلفيّات الخاصّة لنشوء الفكر التكفيريّ فأهمّها ما يأتي:

أولاً: انتشار الظلم والدكتاتوريات:

إنَّ انتشار الحكومات الظالمة المستبدة، ابتداءً من الدولة العثمانية ومروراً بالاستعمارين الإنجليزيّ والفرنسيّ، ثم ظهور الحكومات والمماليك والدويلات التي تتوارث الحكم بلا وجه حقّ سوى الاستبداد بالحكم واحتكار السلطة، فجعل مواقع القوة بيد هذه السلطات التي لا تتغيّر فيها الأسماء، ولا توجد في برامجها السياسية أي فرصة لوصول الآخرين لسدّة الحكم، كل ذلك أدّى إلى ظهور اتجاهات تعمل على تحقيق هذا الهدف، وهو الوصول إلى السلطة بأي شكل من الأشكال، فظهرت المعارضة بأطيافها واختلاف مشاربها، فكان منها المعتدل السوي، وكان منها المتشدّد الشاذّ عن القاعدة العامة، وحيث إنّ المتشدّد - عادة - لا يملك مشروعاً واضحاً على الأصعدة كافة، فإنّه صار ينادي بالرجوع إلى سلطة السلف - أفهام الصحابة على واقعنا المعاصر - إذ إنهم وجدوا رواجاً وانسياقاً كبيراً من عامة الناس لعالم الصحابة الذي يرمز عندهم إلى العدالة والطهارة والقيم العليا، ولم يعلم هؤلاء

---

(١) الفروع من الكافي، للشيخ الكليني: ج ٥، ص ٢٩ ح ٨.

(٢) هود: ٨٥.

المنساقون أنّ الصحابة أنفسهم لم يكونوا على وئام، إذ وقع بينهم التقاتل، والتناحر، والتفسيق، والتكفير أيضاً.

ثانياً: انتشار المدارس والمراكز التكفيريّة في أصقاع الأرض

ممّا ساعد كثيراً على انتشار الاتجاه التكفيري هو المكنة الماديّة الهائلة التي ساعدتهم كثيراً على إنشاء مساجد، ومراكز، ومنتديات علمية وثقافية كثيرة، فلا يكاد يخلو بلد في العالم من وجود مسجد، أو مركز، أو نادٍ، أو منتدًى لهم؛ بل لا يبعد عدم خلو كل مدينة كبيرة في العالم منهم، وهكذا صار المسلمون وغيرهم لا يرون ممثلاً للإسلام في أوساطهم غير هذا الاتجاه التكفيري ـ الذي لم يُكشِّر عن أنيابه بعد ـ أو لم يروا حضوراً أكثر منهم ولم يسمعوا صوتاً أعلى منهم، فزادهم ذلك علوّاً في الأرض واستبداداً، حتى صار الشخص الداخل فيهم محظوراً عليه المناقشة أو المعارضة فضلاً عن الخروج عنهم، وهكذا صار المسلم في عباداته ونشاطاته موجوداً في حواضرهم العلميّة والثقافيّة، حتى كادوا يكتسحون الشارع الأوربي من خلال هذا الحضور الكبير.

ثالثاً: استغلال نزعة الحنين للماضي وعرض فكرة الخلافة الإسلاميّة

إنَّ من أهم إفرازات الواقع المرير هو أنّه خلق حنيناً جارفاً نحو الماضي التليد، حيث ازدهار الحضارة الإسلامية، وامتداد نفوذها من أطراف الصين إلى حدود فرنسا، وإذا ما أضفنا لذلك النزعة الذاتية الموجودة عند الإنسان بنحوٍ عام، وعند المسلمين بنحوٍ خاص، وعند العربي بنحوٍ أخصّ، فإنّنا سنكون أمام معطيات نفسية واجتماعية تُحيلنا على العودة إلى الماضي، وهذا ما وافق تماماً الدعوة السلفية التكفيرية، فإنّهم عبّؤوا هذا الرصيد من الانجراف القهري نحو الماضي في أطروحة العودة إلى حياة السلف الصالح وأفهامهم، في الفقه والتفسير والحديث، وغير ذلك، فضلاً عن التأثير النفسي الكبير الذي تتركه أطروحة الخلافة الإسلاميّة، ووسط هذا الفراغ الكبير، ولاسيما أن المجتمع العربي لا يحمل صورة واضحة أو طيبة عن عالم التشيع وعن نظام الجمهورية الإسلامية في إيران، بل هم في الغالب يحملون

صورة مشوّهة جداً؛ بفعل الإعلام العربي والغربي، وبالنتيجة إنَّ أي مشروع إسلامي يلوح في الأفق، يحمل لواء الخلافة، والدفاع عن الصحابة، وغير ذلك من التسويقات المعلومة للفكر التكفيري، فإنّه سيجد قبولاً واندفاعاً خطيراً، ولاسيما من الشباب العربي الذي كان وما زال يعاني من قصور حادٍ في الوعي والثقافة.

رابعاً: مواجهة الجمهورية الإسلامية الإيرانية (الإسلام المعتدل)

وهذا من أهم الأسباب السياسية والعقائدية التي تقف خلف انتشار الوهابية السلفية التكفيرية، فبعد انتصار الثورة الإسلامية في إيران، ورواج التشيّع في العالم، وصار العالم ينظر للإسلام الثوري من خلال نافذة الثورة الإسلامية في إيران، فقد استُنفرت جميع القوى المضادّة وأتباعها لمواجهة المدّ الثوري القادم من إيران، إيران المطلّة على المياه الدافئة (الخليج)، وكان لابدّ من وجود الضدّ النوعي، فليس من المعقول أن تتقدّم أمريكا والغرب لتضع نفسها في المواجهة المباشرة، فذلك لن يكون مقبولاً عالمياً وإقليمياً، وسوف تتحرّك ثورة عارمة في العالم العربي والإسلامي لمواجهة التصدّي الأمريكي والغربي، فكان لابد من الضدّ النوعي، بمعنى أن تكون مواجهة إسلامية إسلامية، وهكذا بدأ التحرّك السياسي والعسكري بوساطة النظام العراقي الذي شهد انقلاباً خفيّاً للإطاحة بحكومة أحمد حسن البكر، العجوز والضعيف، والمجيء برجل قوي وطموح، فكان صدام حسين لهذه المهمة الجديدة، إذ وصل إلى الحكم قبل مرور سنة على قيام الدولة الإسلامية في إيران بقيادة السيّد الإمام روح الله الخمينيّ.

وكان لابد من مواجهة عقائدية، ومن الضد النوعي، فكانت السلفية التي لا تتورّع في تكفير المسلمين عامة فضلاً عن المسلمين الشيعة، ولهم تاريخ طويل في مسلسل التكفير هذا.

وهكذا بدأ الحراك السياسيّ، والعسكريّ، والعقائديّ، وقد رافق ذلك موجة إعلامية كبيرة، جُنِّدت لها أموال الخليج ونفطه، فاشتروا الذِّمم ـ كما سيأتي ـ وسال لعاب كثيرين من الكتّاب، والأدباء، والشعراء، والفنانين، والصحف، والمجلات، والقنوات المرئية،

والسمعية، فقدّموا أبشع صورة ممكنة عن الجمهورية الإسلامية في إيران خصوصًا، وعن التشيع عمومًا، ومنذ ذلك الوقت بدأ التركيز على أنّ التشيع فارسي وصفوي، وأنه دخيل على الإسلام !.

خامساً: انتشار الجهل والفقر والعوز والحاجة

وهذا من أبرز العوامل الاجتماعية، فإنَّ أكثر البلدان العربية والإسلامية تعاني من الأمّية، والفقر، والعوز، والفاقة، ولاسيما البلدان كثيرة السكّان، كمصر، والسودان، والجزائر، وغير النفطية أو ذات الموارد والثروات المادية القليلة، كاليمن والأردن، فضلاً عن الفقر المدقع الذي تعانيه الهند، وباكستان، وبنجلادش، وحتى الدول المنفصلة عن الاتحاد السوفيتيّ السابق.

وهنا بدأت التجربة التبشيرية للمسيحية تتكرّر على يد السلفية التكفيرية، وقد قاموا بأعمال حسنة بحسب ظاهرها، بناء المساجد ونشر اللغة العربية، وتعليم الأمّيّين القراءة والكتابة، وبناء المراكز العلميّة والمرافق الخدمية، كالمدارس والمستشفيات، وتوفير فرص الدراسة الدينيّة في السعوديّة، والدراسات الأكاديميّة في معظم دول العالم، وكان لهذا الانتشار قبول كبير، وارتياح واضح من الدول الإسلاميّة نفسها؛ إما مجاملةً منها للفكر التكفيريّ الحاكم في السعوديّة، أو بغضاً وطعناً بالتشيع الذي بدأ يأخذ مساحته الطبيعية بعد انتصار الثورة الإسلامية في إيران بعد إقصاء له امتد إلى أكثر من عشرة قرون.

وإذ إنَّ عامة الناس من الفقراء لم يكونوا يملكون وعياً يكشف لهم حجم المؤامرة، ويقيهم الشرّ القادم، ولاسيما أنَّ أكثر الفقراء يقبعون في الجهل والأمّيّة، فكانت أيّ فرصة تتاح لهم، للإعانة في المعيشة أو في رفع الجهل وتوفير فرص التعليم لهم فإنهم كانوا يسارعون إليها، وقد كانوا يقبلون ذلك من كوادر التبشير المسيحي فكيف لا يقبلون ذلك وهم يرون راية (لا إله إلا الله محمد رسول الله)، ويدعون للتوحيد ونبذ الشرك، وما إلى ذلك من تسويقات لطيِّ الحقيقة، والوقوف في وجه التشيّع عموماً، وبوجه المشروع الإسلامي المعتدل

القادم من إيران.

سادساً: شراء ذمم كتّاب، وعلماء، ومفكّرين، وإعلاميين

وهنا تكمن الطامة الكبرى، فقد ساعد كثير من الكتّاب، والعلماء، والمفكّرين، والإعلاميّين على انتشار الفكر السلفيّ؛ نتيجة الإغراءات الكثيرة التي كانت تقدَّم لهم، وليس من المناسب التصريح بأسمائهم ولا التلويح بها؛ فإنَّ كثيراً منها معروفة لدى القارئ العربيّ والإسلاميّ.

وقد بلغ الأمر بالتكفيريّين أن مارسوا نوعاً من الابتزاز والتهديد للمانعين لفكرهم ومشروعهم، حتى راح ضحية هذه الممانعة أو المواجهة العكسيّة مفكّرون، وكتّاب، وعلماء منصفون عدة،[1] ـ شيعة وسنة ـ ومن أكاديميين ومثقفّين[2]، بعد أن خاضوا مواجهات فكرية مع تيارات الجمود والتحجر الموجودة عند الفريقين معاً، والمتمثلة بالتكفيريين في مدرسة

---

(١) من الشيعة من قبيل المفكر الاسلامي الشهيد مرتضي مطهري، فقد راح ضحية الإرهاب والتطرّف، بعد أن كانت له مواجهات فكريّة مع الجمود والتحجّر، ومن قبيل السيد محمد باقر الحكيم، والأستاذ عزّ الدين سليم، والشيخ المصري حسن شحاته، وأما من علماء أهل السنة فأشهرهم الشيخ الشهيد الدكتور محمد حسين الذهبيّ (١٩١٤ ـ ١٩٧٧م)، الذي كان يناشد الجماعات المتطرّفة بالكلمة الطيّبة، والموعظة الحسنة أن تبتعد عن الأفكار المتطرفة والمتجمدة التي تضر الناس والمجتمع، وهي التي في الأصل ليست من الدين؛ ولكن هي من أفكار الشيطان، والتي دست في كتب التراث في الماضي عن طريق المنافقين وأعداء الدين في القديم، وفكر هذه الجماعة المتطرفة قائم علي التكفير والهجرة للمجتمعات الإسلاميّة التي تخالفهم في أفكارهم، فأهدرت جماعة التكفير والهجرة دم الشيخ الذهبي، فاختطفوه ثم قتلوه دون رحمة في الرابع من يوليو عام ١٩٧٧م. وأما العلماء الذين عانوا كثيراً من الأذى والمضايقات فهم كثيرون جداً، منهم الأستاذ الكاتب الكبير عبد الفتاح عبد المقصود، الذي تم الاعتداء عليه شخصياً، فضلاً عن التفسيق والتكفير له، وكذلك الشيخ محمود أبو ريّة، وغيرهم.

(٢) من قبيل الكاتب والمفكّر المصري الدكتور فرج فوده (١٩٤٥ ـ ١٩٩٢م)، تم اغتياله على أيدي جماعة إرهابية تكفيرية في القاهرة، ومن كتبه التي أثارت التكفيريّين هو كتاب (الإرهاب)، والذي يقول فيه: (فقد علَّمنا التاريخ ... أنَّ الاستبداد مثل المبيد، تطلقه في اتجاه فينتشر في كل اتجاه، وربما أسعدك أن يتوجّه إلى عدوك، لكنه سوف يصل إليك في النهاية، وقد تأمن له فترة، لكن ذلك لن يستمر إلا إلى حين، يخرج لك بعده أصلب عوداً، وأعز نشيداً، وأكثر وجوداً، وأعنف تهديداً، وسوف يضاف إلى رصيده تعاطف البسطاء، وسوف تدرك بعد سنوات أنك حرثت البحر، وبنيت قصوراً في الرمال، وحاربت طواحين الهواء). ومن كتبه أيضاً (زواج المتعة)، إذ يقول فيه:(على مدى التاريخ الإنساني كله، كان السائرون خلفاً يحرزون انتصاراً مؤقتاً لا يلبث أن يخلي الساحة لهزيمة دائمة ونهائيّة. وقديماً أعدموا سقراط، وحكموا على جاليليو بالإعدام، وطاردوا الرسول الكريم، وقتلوا الحسين الشهيد، وهُيِّئ لهم في كل مرة أنهم انتصروا، فماذا كانت النتيجة ؟).

الصحابة، وببعض تيارات الأخباريّين عند مدرسة أهل البيت[١]، فالتكفيريّون وإن اختلفت مدارسهم إلا أنّهم يجتمعون تحت مظلّة التكفير العشوائيّ[٢].

لقد خلق التكفيريّون مناخاً خطراً من الخوف والرعب والإرهاب تجاه المفكّرين والكتّاب والإعلاميين، فبكفٍّ يستميلون ضعفاء النفوس، وبأخرى يخنقون الأصوات المعارضة لهم.

سابعاً: تقاعس المفكّرين المصلحين

إنَّ للمفكرين والمصلحين دوراً عظيماً وخطيراً في نهضة الأمة وإصلاح أحوالها، فإذا تقاعس هؤلاء، لأيّ أسباب كانت، فإنّ الضحية الأولى هم أبناء الأمة، إذ سيترك غيابهم فراغاً شاسعاً سيمليه الجهّال وأنصاف المتعلّمين، وهذا ما وقع في العقود الأربعة السابقة، والتي انتشر فيها الفكر التكفيري بقوة، فإنَّ التكفيريين قد وجدوا مناخاً ملائماً، ولاسيما أنَّ أكثر المفكّرين والمصلحين كانوا يعانون من إرهاب الدولة، فاجتمع عليهم إرهاب الدولة وإرهاب التكفيريين، ممّا أدى بكثيرٍ من المفكّرين إلى الهجرة وإخلاء الساحة للفكر التكفيريّ، فتمدّد التكفيريّون وانحسر المفكّرون، والضحية هو الدين وأبناء الأمة، وممّا يدمي القلب أنّ

---

(١) لقد حذر السيد الامام الخمينيّ رحمه الله من خطر ظاهرة التحجّر هذه بقوله: حيث يرى أنَّ خطر المتحجرين والحمقى المتظاهرين بالقدسيّة ما هو بالقليل، ومن كلماته القصار في ذلك: (لقد وُجِّهت للإسلام ضربة من قبل المتديّنين القشريّين لم توجه مثلها من قبل أية طبقة أخرى، والمثال الواضح على ذلك مظلوميّة أمير المؤمنين عليه السلام وغربته الواضحة في التاريخ)، ويقصد بذلك الخوارج التكفيريّين الذين ساهموا إلى حدّ كبير في وأد النصر المؤزّر الذي حقّقه جند الإسلام في صفين ضدَّ القاسطين المنافقين، ويقول في كلمة أخرى: (إنَّ خطر المتحجرين والقشريين الحمقى في الحوزات العلميّة ليس قليلاً، وعلى الطلبة الأعزاء أن لا يغفلوا لحظة واحدة عن هذه الأفاعي المخططة المرقطة). (الكلمات القصار ... مواعظ وحكم من كلام الإمام الخمينيّ: ص ١٠٦، منشور في المكتبة الشاملة).

(٢) إنَّ من سمات وملامح هذا الجمود الفكري والتحجر المذهبي والتعصب المذموم ما يأتي:
- النظرة التقديسية لظواهر الدين.
- تضخيم الاجتهادات والآراء الفقهية والمذهبية.
- إلغاء الطرف الآخر واعتماد الحقيقة المطلقة على اجتهادهم.
- التشبث بالقشور بدل الأصول.
- إلغاء مبدأ التقريب بين المذاهب والتعايش السلمي مع أتباع هذه المذاهب.

أنظر: مقالة (الإرهاب وليد الفكر التكفيري)، للكاتب الإيراني بشير فرهانيان، منشورة في الموقع الإعلامي لضحايا الحرب، في تاريخ: ١١ / ١٢ / ٢٠١٠ م.

كثيراً من مفكّرينا لمّا هاجروا إلى أمريكا والغرب بسبب اضطهاد الدولة لهم، لم يتواصلوا مع أمّتهم، إما لذوبانهم في المجتمع الغربيّ، أو لخشيتهم من أن تطالهم يد السلطات الظالمة، فأشغلوا أنفسهم في المسائل الشكليّة والمساحات الفنيّة والترفيهيّة بدلاً من مواجهة الخطر المحدق بالأمّة.

تلقي العالم الإسلاميّ للفكر التكفيريّ وجماعاته:

لقد سجّلت المنظمات التكفيريّة في المجتمع العربيّ والإسلاميّ حضوراً كبيراً، ونشاطاً متميّزاً، ولاسيما بعد انتصار الثورة الإسلامية في إيران، ولأسباب مرّ بعضها، وفي ضوء هذا الانتشار الكبير، على مستوى الإعلام، والمراكز العلميّة والثقافيّة، وانتشار المساجد التكفيريّة، وتوفّر الكتاب بأبخس الأثمان؛ فقد كان من الطبيعيّ جداً أن يتمدّد الفكر التكفيريّ، وينتشر في الأوساط العامّة والخاصّة انتشار النار في الهشيم، ونظراً لعدم كشف الصورة الحقيقيّة عنهم فقد كان التلقّي في أعلى مستوياته، وقد ازداد هذا الانتشار بعد انسحاب الروس من أفغانستان، واستيلاء طالبان على مساحات كبيرة من أفغانستان.

ولمّا دخلت أمريكا إلى أفغانستان في عام ٢٠٠١م بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر عام ٢٠٠١م، ازداد رواج الفكر التكفيريّ، وصار الناس يقبلون إلى متابعة هذا الفكر، إما بدافع الفضول أو بدافع اليقظة المتأخّرة، وقد ساعد على الترويج للفكر التكفيريّ هو المواجهة الظاهريّة بينهم وبين الأمريكان، فالشعوب العربية والإسلاميّة تميل بطبعها إلى مواجهة الأمريكان والعدو الصهيونيّ، مع أنَّ تلك المواجهات لم تكن جادّة، وإنما هي محاولة مبطّنة لإعطاء شرعيّة للوجود السلفيّ التكفيريّ، أو لإعطاء صورة للعالم بأنَّ الإسلام المتمثل بالتكفيريّين هو في مواجهة الغرب.

وبعد تلك الموجهات والعصف التاريخيّ في انتشار السلفيّة التكفيريّة والتي لأنَ لها وتعاطف معها كثيرون، حتى من بعض أبناء الشيعة، نتيجة الانبهار في المواجهة من جهة، ونتيجة قلّة الوعي عند هؤلاء من جهة أخرى ، بدأ العدّ التنازلي لرصيد التكفيريّين في وسط

الأمة، إذ بدأت تتكشّف الحقائق شيئاً فشيئاً، ولاسيما بعد انتشار القتل والتشريد لأبناء الأمة على أيدي هؤلاء التكفيريّين، وبصورة بشعة جداً، كما هو الحال في قتلهم للأطفال في الجزائر بسبب فتاوى بعض الجهلة التكفيريّين، ولكنّ الحقيقة ـ كما هو ثابت تاريخيّاً ـ لا تصل إلى أصحابها من دون تضحيات.

التلقي الدوليّ للفكر التكفيريّ وجماعاته:

لا ريب في أنَّ التلقّي الدوليّ (أمريكا والغرب وأتباعهم) أيّاً كانت مساحته، فإنّه لا ينطلق من باب القبول بأصل الفكر التكفيريّ، أو الرغبة بتبنّيه ونشره في أوساطهم، وإنما كان الهدف الواضح والصريح من وراء ذلك تحقيق أهداف سياسية وعقائدية واقتصادية عدّة، وسيأتينا بعض خلفيات الدعم الدوليّ لهذا الفكر، وما يهمنا هنا هو الإشارة إلى هذه الأبعاد الثلاثة.

١ ـ الهدف السياسيّ للتلقّي الدوليّ للفكر التكفيريّ وإيواء الجماعات التكفيريّة:

إنَّ الهيمنة الأمريكيّة والغربيّة على المجتمع الدوليّ كثيرٌ ما تمرّ بمطبّات وانتكاسات سياسيّة؛ نتيجة التقديرات الخاطئة، ولاسيما في الشرق الأوسط، وأغلب هذه الانتكاسات ناشئة من دعمها اللامحدود بل والخرافي للكيان الصهيونيّ، وبالنتيجة: إنهم عادة ما يلجؤون إلى حلول ناجعة لتفادي تلك الانتكاسات، وقد كان من تلك الحلول هو تبنّي التطرّف المتمثل بالضد النوعي للمجتمع الإسلامي، وهو الفكر التكفيريّ، لتكون هذه الجماعات التكفيريّة ورقة ضغط حيَّة ومستعدّة للحراك في أيّ وقت يشاؤون، والهدف من هذا الضغط هو الحصول على تنازلات سياسيّة متوالية، غالباً ما تنتهي في صالح الكيان الصهيونيّ، إذ اعتبرت أمريكا والدول الغربيّة أنّ أمن إسرائيل جزء لا يتجزّأ عن أمنها القومي.

٢ ـ الهدف العقائديّ للتلقّي الدوليّ للفكر التكفيريّ وإيواء الجماعات التكفيريّة:

من خلال المنطلق نفسه ومن تلك البؤرة نفسها، الفاسدة أخلاقياً[1]، والمنحرفة عقائدياً

(١) إنَّ هنالك ممارسات كثيرة لهذه الجماعات قد تجاوزت بديهيّات الأخلاق فضلاً عن الحدود الشرعية، من قبيل جهاد النكاح، الذي هو عين الزنى، وغير ذلك من الممارسات الجنسية الفاضحة ! فضلاً عن طريقة القتل والتمثيل بالضحايا، ولاسيما النساء منهم، فإنهم لا يقتلونهن إلاّ بعد استباحتهن والاعتداء عليهن جسدياً.

سعت أمريكا والغرب إلى تشويه الصورة المشرقة للإسلام، ولاسيما بعد سقوط الاتحاد السوفيتيّ وبروز الفكر الإسلامي الأصيل بقوّة، وصار يُشكّل تحدّياً كبيراً للعقيدة المسيحيّة وللأديان الأخرى التي لم تعد تلبّي الحاجات الحقيقية للإنسان، فصار كثير من أبناء أمريكا و أوربا منشدّين لقوة الجذب الإسلامي، فكان لابد من الحفاظ على عقيدتهم، وحيث إنهم لم يمتلكوا فكراً قادراً على المواجهة والصمود بوجه المنطق الإسلامي المنسجم مع العقل والفطرة السليمة، فسعوا إلى المواجهة من خلال إشعال الفتن في المجتمع العربي والإسلاميّ، وتبنّي فكرٍ إسلاميّ متطرّفٍ بحيث يكون قادراً على إقناع الفرد الغربيّ، والمجتمع الدوليّ، والرأي العام ببشاعة الإسلام، وتردّي الفكر الإسلاميّ، وقد نجحوا إلى حدٍّ كبير في ذلك؛ من خلال هذه البؤرة التكفيريّة، التي استطاعوا من خلالها تزييف الصورة المشرقة للإسلام، والحفاظ على الحدّ الأدنى من الرضا والقبول بالمسيحيّة والأديان الأخرى التي أظهروها بصورة الحمل الوديع المدافع عن الإنسان والإنسانية، ومن الواضح أن الفرد الأمريكيّ والأوربيّ يثق كثيراً بإعلامه المرئي والمسموع والمكتوب، ومن العسير جداً أن يستجيب للإعلام المنصف في هذه القضية.

٣ ـ الهدف الاقتصادي للتلقّي الدوليّ للفكر التكفيريّ وإيواء الجماعات التكفيريّة:

استطاعت أمريكا والغرب أن يُلهبا المجتمع العربي والإسلامي بحرائق الفتن والحروب الطاحنة، ومسلسل هذه الفتن والحروب لم يبلغ عشر ما يُخطّطون له، ولا ريب في أنّ هذه الحروب الساحقة والخاسرة والمجرمة تحتاج إلى وقود مستمر من أموال الأمة وأبنائها، وهنا يأتي العنصر الاقتصادي، حيث توريد الأسلحة، وتدريب المقاتلين، وبيع الخبرات والمعلومات (الدعم اللوجستي)، وهكذا بدأ نزيف المال والقدرات مواكباً لنزيف الدم.

وأما الانحراف العقائدي فقد أجمعت الأمة الإسلامية، ومن الفريقين معاً، على كونهم فئة مارقة وخارجة عن الدين؛ بل هم أخطر بؤرة منحرفة شهدها التاريخ الإسلاميّ.

الدعم الإقليميّ والدوليّ للفكر التكفيريّ وجماعاته:

أولاً: أسباب الدعم الإقليميّ للفكر التكفيريّ

• مواجهة المشروع الإسلامي الإيراني، ولاسيما بعد الانفتاح الكبير لهذا المشروع على المجتمع العربي والإسلامي، وظهور الحقائق المغيّبة، وانكشاف الدسّ الإعلامي في العقود الثلاثة الآنفة، وتمكّن الفرد العربي والمسلم من قراءة هذا المشروع بحياديّة وعن طريق قنوات غير مؤدلجة.

• الحقد على الشيعة والتشيع (الإسلام المعتدل)، ولهذا الحقد سوابق تأريخية كان يتزعّمها الإسلام الأموي الذي نجح إلى حدّ كبير في تغيير خارطة الإسلاميّ المحمديّ الأصيل، وتحويل بوصلته من القيم الدينية الإلهية إلى القيم القبليّة، أو قل من إشراقة الإسلام إلى جاهليّة صمّاء بكماء عمياء.

• إعطاء جرعات جديدة لدول الخليج في لعب دور الشرطيّ الأمريكيّ في المنطقة بعد سقوط الشاه في إيران، وضعف الدور المصريّ، ولذلك نجد هنالك أكثر من عرَّاب يقف في الواجهة، فهنالك السعوديّة وهنالك قطر، بل وحتى الإمارات بنحوٍ خفيّ، كما هنالك نموذج الاستجداء العربيّ وهو الأردن، حيث يحاول الأخير أن يجد لنفسه موقعاً في ظل التغيير الفعليّ الواقع في المنطقة، فجميع هذه الدول هي داعمة للإرهاب، وتريد أن تتصدّر قائمة العرّابين للدور الصهيو أمريكي في المنطقة.

• استخدام الفكر التكفيريّ والجماعات التكفيريّة من قبل بعض دول الخليج وتركيا للوجود عقائدياً والتصرّف في المنطقة، ولاسيما بعد انتشار التشيّع بنحوٍ عفويّ، فالسلفيّة الحاكمة في السعوديّة وقطر تريد أن تفرض وجوداً عقائديّاً وسلطويّاً من خلال أصابعها الواضحة في دعم الإرهاب للقاعدة و(داعش).

ثانياً: أسباب الدعم الدولي للفكر التكفيريّ (الاستكبار العالميّ).

• جعل الفكر التكفيريّ والجماعات التكفيريّة جدار صدٍّ، وطليعةً متقدّمةً للكيان الصهيوني في مواجهته الحقيقيّة مع المقاومة الإسلاميّة، وهذا ما هو واقع بالفعل، فالمجتمع العربي والإسلامي منذ أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١م وإلى يومنا هذا تعيش صراعات داخلية معقّدة، وفي الوقت الذي تزداد فيه هذه الدول العربية والإسلاميّة ضعفاً ووهناً وتفكّكاً تزداد فيه إسرائيل قوة وغطرسة، وصارت الأمة بأطيافها تخوض حرباً بالوكالة عن الصهيونية والاستكبار العالميّ، فلم تعد إسرائيل ـ في ظل هذا التمزّق ـ بحاجة لضرب البلدان المجاورة وغير المجاورة لها، فهناك من يقوم بهذه المهام على أكمل وجه، وقد كان الهدف المباشر هو تحطيم سوريا، وإخضاع العراق لأجنداتهم، وأما الهدف غير المباشر فهو محاصرة إيران الإسلاميّة، فأمريكا موجودة حول الحدود الإيرانيّة بأسطولها البحري وبقواتها البريّة فضلاً عن الجويّة، ويكفي في ذلك أن ننظر نظرة سريعة إلى دول الخليج وسواحله، وإلى أفغانستان والعراق وباكستان وتركيا، حيث نجد سوراً خانقاً أريد منه إخضاع إيران لسياساتهم وأهدافهم، ولكنهم مع هذا الانتشار والتشعّب مازالوا عاجزين عن التأثير على إيران؛ بل إنَّ هنالك كثيراً من الأحداث التي افتعلوها قد جاءت في صالح المصالح الإيرانيّة بنحوٍ يثير الدهشة، فقد قضوا على حكومة صدام، وهي معادية للجمهوريّة الإسلاميّة، وقضوا على طالبان في أفغانستان، وهي الأخرى معادية بشراسة للجمهورية الإسلاميّة.

• استخدام الفكر التكفيري والجماعات التكفيرية من بعض الدول لتنفيذ مآربها، في تسويق السلاح أولاً، وفي العودة إلى المنطقة مرة أخرى ثانياً، فإنَّ كثيراً من الدول الأوربية تعاني من أزمات مادية قاتلة؛ نتيجة انكسار سوق السلاح في المنطقة، فكان لابد من إحداث صراعات تخلق نزيفاً حادّاً؛ بل هي تسعى للحضور من جديد، كما هو حال فرنسا، وإيطاليا، وإسبانيا، وألمانيا، إذ بدأت هذه الدول بالتحرّك الفعليّ في ضمن ما يسمّى بالتحالف الدولي لضرب داعش في العراق وسوريا، ليتسنّى لهم بعد ذلك إرسال قوات برية، وإعادة السيطرة على المنطقة بعد أن فشلوا من الاستمرار فيها بعد إسقاطهم لنظام صدّام عام ٢٠٠٣م؛ بعد أن

فاجأتهم المقاومة الإسلاميّة والوطنيّة في العراق بضربات موجعة خرجوا منها بما يحفظ لهم ماء وجوههم، وهو ما يسمّى بالمعاهدة الأمنيّة بين العراق وأمريكا.

- تشويه صورة الإسلام، وهذا ما نجحوا فيه في المجتمع الأوربيّ؛ بل وفي العربيّ أيضاً، إذ خلقوا شعوراً من النفرة العمليّة من الوجود الإسلاميّ، كما هو واقع في مصر، وليبيا، وتونس، بل وفي العراق أيضاً.

- خلق المبررات للتدخّل المباشر في العالم الإسلاميّ، فلم يكتفِ الاستكبار العالميّ بالغزو الثقافي الذي مارسه منذ أكثر من عقدين وإلى يومنا هذا، وتكريس الجهود الدوليّة لتسويق نظام العولمة القائم على القيم الأمريكيّة والغربيّة، القائمة على أساس استنزاف الشعوب الضعيفة (دول العالم الثالث)، لا تخرج عن كونها الطريق الأمثل لهم للخروج من التناقض التاريخيّ الذي عاشته أوربا منذ عصر النهضة وإلى يومنا هذا، وهو التناقض القائم على أساس الصراع بين الطبقات الرأسماليّة والطبقات الكادحة (العاملة)، إذ رُفع التناقض والصراع من خلال تقديم الرفاهية للعامل الأوربيّ على حساب الثروات المسروقة من دول العالم الثالث، وتحديداً من أفريقيا، ودول الشرق الأوسط، وهذا ما بيّنه الإمام الشهيد محمد باقر الصدر[1].

- تمزيق العالم العربيّ والإسلاميّ، وهذا ما ينسجم تماماً مع استراتيجيتهم الثابتة في السياسة، وهي سياسة (فرّق تسد)، ولذلك فهم لا يكتفون باستضعاف دول المشرق وإنما يسعون إلى تمزيقها إلى دويلات صغيرة جداً، ليمكن السيطرة عليها أكثر، وليمكن ضرب بعضها ببعض بسهولة، ولو طالعنا الخرائط المقترحة للشرق الأوسط الجديد بنحوٍ عام، وخطّة بايدن[2] في تقسيم العراق على ثلاث دويلات، وتقسيم سوريا كذلك، سيسري هذا المشروع إلى اليمن ومصر والسعوديّة، فإننا سنكون على بيّنة بما يخطّطون له، وبما يُراد لنا

---

(١) انظر: المدرسة القرآنية، بحث عناصر المجتمع.

(٢) جوزيف روبينت بايدن (ولد: ١٩٤٢ م)، نائب الرئيس الأمريكي أوباما منذ ٢٠ يناير ٢٠٠٩م، وهو ممثل الحزب الديمقراطي في الكونجرس ورئيس لجنة العلاقات الخارجية في مجلس الشيوخ. قدّم خطّته لتقسيم العراق على ثلاث دويلات (دولة شيعية، ودولة سنية، ودولة كردية).

ونحن نُقَاد لأُتون حروب خاسرة، فالدول العربيّة والإسلاميّة تساق إلى مشروع جديد يمكن تسميته بـ(سايكس بيكو الجديد).

• هدر الطاقات وإضعاف القدرات الماديّة والمعنويّة، إذ يراد بالأمة أن تعلن استنجادها الرسميّ بأمريكا والغرب، وهذا ما يتوافق تماماً مع عولمة العالم وفقاً لإرادة الغرب، وهذا ما لاحظناه في السنوات الأخيرة، ولو من خلال بعض التكتّلات العميلة للغرب، فمازال هنالك من يطلب الحضور العسكري المباشر (قوات برية) في سوريا، والعراق، وليبيا، واليمن، وغداً سنسمع صيحات مشابهة من بعض الأقزام في مصر، وتونس، وغيرها، فإذا ما بقيت الأمة عاجزة عن إدارة أمورها، ومتمسّكة بالنفوذ الغربيّ لإدارة أمور الدولة والمجتمع، فإنَّ المجتمع العربيّ والإسلاميّ سائر نحو نهايته الحتميّة المتمثلة بالانقضاض التام إلى إرادة الأمة وسرق ثرواتها، وتحقيق الحلم الصهيو أمريكي في المنطقة، فإسرائيل ـ مثلاً ـ لا تحتاج إلى أن تكون موجودة رسمياً في العراق لتحقّق حلمها في دولة تبدأ من الفرات، إذ يكفيها في ذلك أن تستحوذ على قوة كبيرة ومؤثرة في القرار الإداري والسياسيّ والاقتصاديّ العراقيّ، وليس ببعيد أن يُعلن رسمياً عن افتتاح السفارة الإسرائيليّة في إحدى المناطق الثلاثة من تقسيم بايدن، التي ستكون اليد الضاربة والمحامية عن المصالح الصهيو أمريكية في العراق والمنطقة، وبالرغم من كون هذه الأساليب الأمريكية في المنطقة هي خاطئة بامتياز إلاَّ أنها خطيرة وتستدعي منا نفيراً عاماً لمواجهتها، فأمريكا لا ترعوي إلى الحلول السليمة والصحيحة إلاَّ بعد أن تجرّب جميع الحلول الخاطئة، كما وصفها بذلك تشرشل[1].

• الاستيلاء على الثروات (النفط ، الغاز، المعادن)، فمازالت الثروات يسيل لها لعاب الأمريكان والغرب، فهي ثروات لا تنضب، كما أنّ الاستيلاء عليها موجب لبقاء هذه الدول

---

(١) ونستون تشرشل (١٨٧٤ ـ ١٩٦٥م)، رئيس وزراء بريطانيا في أثناء الحرب العالمية الثانية، فولايته الأولى (١٩٤٠ ـ ١٩٤٥م)، وولايته الثانية (١٩٥١ ـ ١٩٥٥م)، كان يصف أمريكا بقوله: (إنَّ الأمريكان لن يستخدموا الطرق الصحيحة لحل المشاكل إلا بعد أن يستنفدوا جميع الطرق الخاطئة) (مقولته هذه شائعة في الأوساط السياسيّة العالمية)(الناشر).

المستضعفة على ضعفها، فلا نهضة، ولا إنتاج، ولا تطوّر، وإنما هي غارقة في عالم الاستهلاك والديون الثقيلة.

- تأمين التفوّق الإسرائيلي، بالرغم من أننا أشرنا إلى هذه النكتة في أكثر من نقطة إلا أنه أمر بحاجة إلى التذكير والتركيز، فالأمن الإسرائيليّ قد تحوّل من أمن كيان مغتصب إلى أمن دولي تذود عنه جميع قوى الاستكبار في العالم، ولذلك نجد كل رئيس أمريكي جديد يدشّن انتخاباته بالولاء لإسرائيل والدفاع عنها، كما يدشّن كلمته الأولى بعد انتخابه بالوفاء لوعوده السابقة لإسرائيل! وهذا البروتوكول صارت تمارسه بعض دول الغرب أيضاً، من قبيل بريطانيا وفرنسا.

كيفية تضييق دائرة الفكر التكفيري:

بعد تلك الجولة السريعة في حيثيات (التلقّي الإسلامي والعالمي للفكر التكفيري والجماعات التكفيريّة) ناسب أن نوجز الحديث في بيان كيفيّة تضييق دائرة الفكر التكفيريّ، وبيان واجبنا الديني والوطني تجاه ذلك.

أما سبل تضييق دائرة انتشار الفكر التكفيريّ ومحاصرة الجماعات التكفيريّة، فيكمن في ثلاث نقاط رئيسة، وهي:

الأولى: مواجهة المناهج الدراسية المنتجة للفكر التكفيريّ، وذلك من خلال ضرب الحصار الشديد على انتشارها، ومن خلال بيان زيفها وبطلانها من قبل أساتذة متخصّصين في مجال الفكر والعقيدة والشريعة والتفسير والحديث.

الثانية: عدم تمكينهم من المنصّات الإعلاميّة المؤثرة، كالمساجد والمدارس والقنوات الفضائيّة.

الثالثة: نشر الوعي والثقافة الدينية في أوساطنا الاجتماعية، وهذا الوعي والتحصين إنما يكون من خلال نافذتين، هما: التفقّه في الدين، ونشر الوعي السياسيّ.

فإذا تحقّق الحد الأدنى من التفقه في الدين والوعي السياسي فإنّ الفكر التكفيريّ لن يجد له موضعاً ولا مستودعاً ولا حاضنة له في بلداننا العربية والإسلاميّة.

واجبنا تجاه الوقوف بوجه الفكر التكفيريّ:

هنالك واجبات عدّة تفرضها أربعة مستويات في المجتمع، ستكون هي المسؤولة والكفيلة بالخروج بالأمة من هذا الدهليز المظلم الذي يريد التكفيريّون سوقنا إليه بالقوة، وهي:

أولاً: واجبات علماء الدين، فإذا ما قام علماء الدين بوظيفتهم الأساسية، وهي نشر ثقافة التفقّه في الدين، وتهيئة المراكز العلمية لسد الفراغ الهائل عند أبنائنا، فإنهم سوف يُوجدون سدّاً منيعاً وحصانة واقعية لأبنائنا.

ثانياً: واجبات المفكّرين، إذ عليهم بتقديم الأطروحات المعاصرة التي تلائم العصر، والتي تستجيب للواقع الجديد، فإن الأبناء عادة ما يجدون أنفسهم بين المطرقة والسندان، أما المطرقة فهي الفكر التكفيريّ، وأما السندان فهو الفكر العلماني (اللادينيّة)، فيدور الأبناء بين خطّين متناقضين، الأول يدعو للتطرّف والقتل وانتهاك جميع الحرمات، والأخر يدعو إلى تمييع أصل الفكر الدينيّ والانسياق إلى الفوضويّة الفكريّة.

ثالثاً: واجبات المؤسسات الإسلاميّة، وهذه المؤسسات وإن كانت مرتبطة بالواقع الديني المتمثل بعلماء الدين إلا أنها أوسع دائرة من علماء الدين؛ بل إن المؤسسات الدينية هي الكفيلة بإيصال صوت العلماء إلى أبناء الأمة، كما أنها مسؤولة بنحوٍ مباشر على إدارة التثقيف الدينيّ.

رابعاً: واجبات الإعلام الإسلامي والوطني في مواجهة الترويج للفكر التكفيريّ والإشاعات المغرضة التي يبثها إعلام الفكر التكفيري.

نتائج البحث

ممّا تقدم نكون قد انتهينا إلى ما يأتي:

- إنَّ للفكر التكفيري، وظهور جماعاته جذوراً تاريخية تمتد إلى الصدر الأول من الإسلام، أو ما يسمّى بعصر الخلافة، ولكنها لم تصبح ظاهرة منتشرة وخطيرة في العالم بأسره إلاَّ في العقد الأخير من القرن المنصرم.

- من الخلفيات العامة التي أدَّت إلى نشوء الفكر التكفيري وانتشاره، هي: الخلفيّات الدينية (التفسير الخاطئ لبعض الآيات القرآنية والأحاديث النبويّة)، والخلفيّات التاريخية (الغزو بمعناه الجاهليّ والأمويّ الذي يحمل جميع المضامين الجاهليّة، من سلب، ونهب، وسبي، وقتل، وقد صارت الفتوحات الأمويّة بقواها الغازية وليست المجاهدة قدوة للخوارج والتكفيريّين المعاصرين).

- من أهمّ الخلفيات الخاصة لنشوء الفكر التكفيريّ: انتشار الظلم والدكتاتوريات، وانتشار المدارس والمراكز التكفيريّة في أصقاع الأرض، واستغلال نزعة الحنين للماضي وعرض فكرة الخلافة الإسلاميّة، ومواجهة الجمهوريّة الإسلاميّة الإيرانيّة (الإسلام المعتدل)، وانتشار الجهل والفقر والعوز والحاجة، وشراء ذمم كتّاب، وعلماء، ومفكّرين، وإعلاميين، وأخيراً تقاعُسُ المفكّرين المصلحين.

- لقد سجّلت المنظمات التكفيريّة في المجتمع العربي والإسلاميّ حضوراً كبيراً ونشاطاً خطيراً، ولاسيما بعد نجاح الثورة الإسلاميّة في إيران، على مستوى الإعلام والمراكز العلميّة والثقافيّة وانتشار المساجد التكفيريّة، والوجود العسكريّ المسلّح، وقد ازداد هذا الانتشار بعد انسحاب الروس من أفغانستان، واستيلاء الطالبان عليها.

- إنَّ وراء التلقّي الدوليّ (أمريكا والغرب وأتباعهم) أهدافاً سياسيّة، وعقائديّة، واقتصاديّة.

- من أهم أسباب الدعم الإقليميّ للفكر التكفيريّ وجماعاته: مواجهة المشروع

الإسلاميّ الإيرانيّ، والحقد الأسود على الشيعة والتشيّع (الإسلام المعتدل)، وإعطاء جرعات جديدة لدول الخليج في لعب دور الشرطيّ الأمريكيّ في المنطقة بعد سقوط الشاه في إيران وضعف الدور المصريّ، واستخدام الفكر التكفيريّ وجماعاته من لدن بعض دول الخليج وتركيا للحضور عقائدياً والتصرّف في المنطقة، ولاسيما بعد انتشار التشيّع بنحوٍ عفويّ.

• من أهم أسباب الدعم الدوليّ للفكر التكفيريّ (الاستكبار العالمي): جعل الفكر التكفيريّ وجماعاته جدار صدٍّ وطليعةً متقدّمةً للكيان الصهيوني في مواجهته الحقيقية مع المقاومة الإسلاميّة، واستخدام الجماعات التكفيريّة في تسويق السلاح والعودة إلى المنطقة مرة أخرى، وتشويه صورة الإسلام، وخلق المبررات للتدخّل المباشر في العالم الإسلامي، وتمزيق العالم العربي والإسلاميّ، وهدر الطاقات وإضعاف القدرات المادية والمعنوية، والاستيلاء على الثروات (النفط، الغاز، المعادن)، وتأمين التفوّق الإسرائيليّ.

• لتضييق دائرة الفكر التكفيري لابدَّ من: مواجهة المناهج الدراسيّة المنتجة للفكر التكفيري، وعدم تمكينهم من المنصّات الإعلاميّة المؤثرة، كالمساجد والمدارس والقنوات الفضائية، نشر الوعي والثقافيّة الدينيّة في أوساطنا الاجتماعية من خلال التفقّه في الدين ونشر الوعي السياسيّ.

• أهمّ الواجبات تجاه الوقوف بوجه الفكر التكفيريّ هي: واجبات علماء الدين، وواجبات المفكرين من خلال استجابتها للواقع الجديد، وواجبات المؤسسات الإسلاميّة فهي مسؤولة بنحوٍ مباشر على إدارة التثقيف الدينيّ، وأخيراً واجبات الإعلام الإسلاميّ والوطنيّ في مواجهة الترويج للفكر التكفيري والإشاعات المغرضة التي يبثها إعلام الفكر التكفيري.

التعايش السلميّ
بين سماحة الإسلام ووحشيّة الجماعات التكفيريّة

التعايش السلميّ بين سماحة الإسلام ووحشيّة الجماعات التكفيريّة

عبدالخالق كاظم إبراهيم*

المقدّمة:

التعايش السلميّ من أهم المرتكزات الأساسية التي يقوم عليها المجتمع الإنساني، وعندما تهتز تلك الركيزة يتحول المجتمع والحياة إلى غابة يفترس فيها القوي الضعيف، وتفقد الحياة محتواها الحقيقي؛ لذلك أولى الإسلام أهمية فائقة لهذا الأمر، وانطلق ليوطد علاقة الأخوة الإنسانية بين الجميع؛ ليتعايش الجميع تحت مظلة الإسلام والإنسانية؛ إلا أن قيم الجاهلية والبداوة المترسخة في نفوس بعضهم والقائمة على السلب، والنهب، والقتل، والغزو، والإقصاء...، تظهر عندما تُشوّه قيم الإسلام وتتبدل وتنحرف في نفوس الأفراد، وتحاول أن تتلبس بلباس الدين؛ لإضفاء المشروعية والمقبولية على بداوتها وجاهليتها المقيتة، فظهر التكفير الذي كان وما زال من أخطر الأدوات في تهديد التعايش السلمي، والقضاء عليه؛ لتعود الحياة إلى سابق عهدها الجاهلي؛ لذلك، إن تكفير الآخر المختلف فكرياً، أو عقائدياً، أو دينياً... أزهق الأرواح، وجاء بالويلات والكوارث على المجتمع الإنساني، وما شهده العالم في هذا المجال كثير جداً، ولم تكن ظاهرة التكفير طارئة أو جديدة عند المسلمين؛ إذ مرت بمراحل عديدة، وظهرت في مراحل مختلفة في التاريخ الإسلامي؛ لكن ظهورها الأول يتمثل في حركة الخوارج، واستمرت في العصر الأموي والعباسي بوضوح، وكان

* باحث عراقي مغترب في النرويج بكالوريوس في الشريعة.

للعامل السياسي الأثر الأكبر في فتاوى التكفير التي انطلقت لتكفر الفرق والمذاهب والأشخاص.

وتواجه البلدان الإسلامية اليوم حرباً من نوع جديد، حرباً تختلف عن الحروب السابقة، فلا هي استعمار واحتلال مباشر، ولا هي السيطرة من خلال أدواته من الحكام العملاء؛ إذ إن النوع الأول أثبت فشله من خلال الثورات المستمرة ضد الغزاة، وما تكبدوه من خسائر فادحة في الأرواح والأموال، والنوع الآخر جعلهم يعيشون حالة من القلق، وعدم الثقة والاطمئنان لهؤلاء العملاء، فالتجؤوا إلى طريق جديد يهدد الشعوب والحكام في آن واحد، أو أحدهما عند الحاجة، فاتخذوا من دعاة الفكر التكفيري وسيلتهم المنشودة لتحقيق مآربهم عن طريق تهديد التعايش السلمي؛ لأن هؤلاء يمثلون قوة مخيفة لا تخضع لقيم إنسانية أو دينية، وهم في الوقت ذاته أداة فاعلة في إضعاف تلك الدول، والقضاء على أي برامج وسياسات للتنمية فيها.

وهذا الهدف ليس هو الغاية النهائية لأنّه هدفٌ مرحلي يتم من خلاله الوصول إلى الهدف الأساس المتمثل بالقضاء على الإسلام عن طريق التشويه المستمر، وإلصاق مختلف التهم بتعاليمه السمحة من خلال الجماعات التكفيرية، وتمكينها بمختلف الوسائل للقضاء على الاعتدال والوسطية التي تمثل أهم قيم الإسلام.

يهدف البحث إلى بيان أن ما ترتكبه الجماعات التكفيرية من جرائم بشعة لا علاقة له بالإسلام، وأن أخلاق الإسلام وتعاليمه بالضد تماماً من أعمال هؤلاء؛ لأنه دين تعايش ومحبة وإخاء ورحمة، وأن هؤلاء المغرّر بهم ممن انضموا لتلك الجماعات لا علاقة لهم بالإسلام، وقد سلكوا طريقاً سينتهي بهم إلى النار، وقد أعطوا الذريعة لأعداء الإسلام ليطلقوا عليه مختلف التهم المزيفة والباطلة، وهذا الأمر يستدعي أن يتم عرض الرؤية الإسلامية (المغيّبة)، ونموذج التعايش السلمي الذي أكده الإسلام وكل الأديان السماوية.

تستأثر مسألة التعايش السلمي في الوقت الحاضر باهتمام أوسع الدوائر والأوساط الفكرية والثقافية والسياسية على امتداد الساحة العالمية بنحو عام، وعلى ساحة الوطن العربي والإسلامي بنحو خاص؛ نظراً للمستجدات والتطورات المتلاحقة السريعة التي عصفت بالمنطقة العربية وما تزال تعصف بها؛ بسبب ما أحدثته موجة التكفير وأفعال التكفيريين من تفكّك رهيب داخل المجتمعات الإسلامية، وهي التي أدت إلى إحداث مزيد من الانقسامات، والاضطرابات الأمنية والسياسية، والصراعات الدموية، والحروب الأهلية بين مختلف التيارات، والتوجهات، والطوائف، والمذاهب الدينيّة في أماكن مختلفة في عالمنا العربي والإسلاميّ.

تم تقسيم البحث على مبحثين؛ الأول: عرضنا فيه التأصيل الإسلامي لمفهوم التعايش السلمي نظرياً وعملياً، وتناول المبحث الآخر الضدية التي يمثلها الاتجاه التكفيري مع أخلاق الإسلام؛ ليتّضح من خلال ذلك أن هؤلاء ليس لهم أي علاقة بالإسلام، وهم يدعون الإسلام لغرض إضفاء المقبولية والمشروعية على ما يقومون به من أفعال منكرة، فالغرض من تقسيم البحث على هذا النحو هو أن نبيّن موقف الإسلام الأصيل حول قضية التعايش السلمي، وموقف تلك الجماعات الإرهابية التكفيرية التي عملت بالعكس تماماً من القيم والمفاهيم الإسلامية؛ لأنه من غير الممكن أن تكون تلك الجماعات إسلامية؛ لأنّ هوية الإنسان تحدد من خلال سلوكه وأعماله، وسلوك هؤلاء وأعمالهم ليس لها أي صلة بقيم الإسلام النبيلة، وكذلك من غير الممكن أن تكون أعمالهم مرتبطة بالإسلام، وأول ضحاياها المسلمين، على حين اليهود في فلسطين بأمان واستقرار، ولا يمثلون أدنى تهديد عليهم؛ بل أصبحوا أداة لحمايتهم وعدم تسليط الأضواء على ما يرتكبونه من أعمال وحشية بحق الشعب الفلسطيني الأعزل.

المبحث الأوّل

التأصيل الإسلاميّ للتعايش السلميّ

التعايش في اللغة مشتق من العيش، والعيش معناه الحياة، وعايشه: عاش معه، وهو العيش على هذه الأرض من بني آدم كافة دون تفريق بينهم، وتعني الاشتراك في الحياة على الألفة والمودة[١]، والسلمي صفة لطبيعة التعايش، ويقصد به اصطلاحاً العيش المتبادل مع الآخرين القائم على المسالمة وقبول الآخر بكل مكوناته ومعتقداته، ومنحه حقوقه كاملة.

وقد ظهر هذا المفهوم في العلاقات الدولية حينما دعا إليه خروتشوف عقب وفاة ستالين، ومعناه انتهاج سياسة تقوم على مبدأ قبول فكرة تعدد المذاهب الإيديولوجية، والتفاهم بين المعسكرين (الشرقي والغربي) في القضايا الدولية، كما تدعو الأديان كافة إلى التعايش السلمي في ما بينها، وتشجيع لغة الحوار والتفاهم والتعاون بين الأمم المختلفة[٢].

لقد شاع استعمال مصطلح التعايش السلمي على ساحة العلاقات الدولية بين الشعوب، وانتقل من المجال الاجتماعي إلى المجال السياسي؛ لما يمثله من أهمية كبرى في حفظ الاستقرار العالمي، وتقوية أواصر الارتباط الإيجابي بين الأمم من خلال التعاون والتداخل بين المكونات الاجتماعية، والابتعاد عن الاتهامات التي تقف عائقاً دون تحقيق هذا الهدف .

يمثل السلم والتعايش السلمي من المبادئ الأصيلة في الدين الإسلامي، ولا يتحقق هذا المبدأ إلا من خلال مجموعة من الأمور: منها الحرية في الاعتقاد والتفكير، وحرية الكلام والتصرف، وتوفير كل مستلزمات الحوار الحر والموضوعي، ولا تعني الحرية الانفلات والتجاوز على حقوق الآخرين؛ لأن ذلك يمثل تعدياً وعدواناً، ومن مظاهر الحرية الفردية في الإسلام عدم الإجبار على قبول الدين واعتناقه؛ كما قال تعالى: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ﴾[٣]؛ لأن الدين المطلوب في الإسلام هو الاعتقاد والإيمان القلبيان، وهما لا يتحققان في قلب

(١) ينظر: المعجم الوسيط، ج٢ : ٦٤٦.
(٢) ينظر: ويكيبيديا، الموسوعة الحرة، بتاريخ ٢٤-١١-٢٠١٤.
(٣) البقرة: ٢٥٦.

الإنسان بالعنف والقهر؛ بل ينشآن بعد حصول مقدمات أهمها اتضاح الحق والباطل، وامتياز أحدهما عن الآخر، فإذا حصلت المعرفة اختار الإنسان الحق في ظروف طبيعية قطعاً[١].

والأمر الآخر لتحقيق التعايش السلمي هو العدل بين البشر بلا تمييز بينهم، وهو مبدأ أساس في استقرار العلاقات الاجتماعية وديمومة التواصل بين الأفراد؛ لأنّ فقدان العدل يفضي إلى غياب الاستقرار السياسي والاجتماعي؛ ولكي تتحول حالة التعايش إلى حقيقة راسخة وثابتة ينبغي الالتزام بالثالوث القيمي (التعارف - التعاون - العدالة)؛ كونها مبادئ التعايش الراسخ التي من خلالها نتمكن من حماية وحدتنا ومكاسبنا، وأيضا تنمية واقعنا في كل المجالات[٢]. ويعتبر العدل من المبادئ التي أرساها الإسلام لتحقيق التعايش السلمي العالمي، والعدل وسيلة ذات شأن من وسائل إعادة التوازن في الحياة، وتسكين هياج النفوس، ومظلة تحمي الحقوق وتشيع الأمن والسلام بين الناس، وإذا غاب العدل بين الناس تصدعت أسس الاستقرار، وفسد طعم الحياة[٣].

مما سبق يمكن القول: إنّ الإسلام هو النظام العالمي الوحيد الذي احتوى على تشريعات يمكن أن يعيش العالم في ظلها في سلام ووئام ولو في شبر واحد من الأرض، يهوداً ونصارى، ومسلمين؛ بل إذا رضخوا لتوجيهات الإسلام مع بقائهم على عقائدهم دون أن يضيق الإسلام ذرعاً بأحد منهم وهذا ما لا وجود له في أي نظام آخر على وجه الأرض[٤]، وما يحصل الآن من أعمال إجرامية من قبل الجماعات التكفيرية ليس له أي علاقة بتعاليم السماء وسماحة الإسلام .

الاختلاف من السنن الكونية والاجتماعية الثابتة التي ينبغي ألا تتخذ ذريعة للحروب والصراعات ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾[٥] بل ينبغي أن تكون

(١) ينظر: جعفر السبحاني، العقيدة الإسلامية على ضوء مدرسة أهل البيت : ٣٨-٣٩.

(٢) ينظر: مجموعة من الكتاب ، التسامح وجذور اللاتسامح : ٢٠٢- ٢٠٣.

(٣) عبد العظيم إبراهيم المطعني ، مبادئ التعايش السلمي في الإسلام : ٧٨.

(٤) المصدر نفسه : ١.

(٥) سورة هود ، آية ١١٨-١١٩.

سبباً للتعارف والتبادل والتعايش، من أجل القضاء على الحواجز وتعميق المحبة والوئام الاجتماعي، وصولاً إلى التفكير الموضوعي الحر الذي يخرج من إطار الذاتية الضيق إلى رحاب الأفق الإنساني الكبير، والاختلاف بين البشر «لا يؤسس لأي عملية تفاضلية، استناداً إلى عرق أو لون أو ما أشبه، وإنما يقود للتداول والتبادل والتعاون والتعارف حتى يستطيع البشر الاستفادة من بعضهم بعضاً على مختلف المستويات والمجالات»[1]، وتتم هذه الاستفادة بشكلها الصحيح اعتماداً على قاعدة المساواة والاشتراك في الآدمية والإنسانية، والابتعاد عن كل أشكال الإقصاء والتهميش.

وقد أوجد الإسلام جملة من المبادئ التي تؤسس للتعايش السلمي، منها التعارف وكسر حواجز الجهل المتبادل، وتعميق عوامل الوئام الاجتماعي، فالإسلام هو دين التعايش السلمي بين الشعوب من خلال حرصه على احترام حقوق الآخرين بغض النظر عن معتقداتهم وآرائهم؛ قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾[2]، وهذا نداء لجميع البشر بغض النظر عن دينهم، أو معتقدهم، أو عاداتهم وتقاليدهم، وهو دعوة من قبل الخالق للتعايش والتعارف، وهذه إحدى القواعد القرآنية في تحديد علاقة المسلم مع غيره التي تقوم على التواصل والأخذ والعطاء المتبادلين وعلى التكافؤ؛ لذا فإن التعارف هنا «لا يعني نسقاً من المجاملات، أو معادلة طارئة من التواصل؛ بل هو تلاحم بشري، يتم من خلاله تبادل التجربة البشرية، وتعميقها، تعميق المغزى الإنساني من وجودنا، ومن هنا لا يجوز الربط المصيري بين الانتماء الديني من جهة، وحق الوجود من جهة أخرى»[3].

فالإسلام لا يقوم بإلغاء خصوصيات الناس؛ بل يعمل على تنمية العناصر الايجابية فيها؛ لتتفاعل مع بعضها في عملية التعارف التي يعترف فيها كل فريق بما لدى الطرف الآخر من

---

(١) مجموعة من الكتاب، التسامح وجذور اللاتسامح: ١٩٨.
(٢) سورة الحجرات، آية ١٣.
(٣) غالب حسن الشابندر، الآخر في القرآن: ١٤١-١٤٢.

خبرات، وأفكار، ومواقف، وحينئذٍ تتحول عملية التعارف هذه إلى تبادل، وتجاذب، وتعاون؛ لتترك للإنسان حرية الاختيار من خلال جهده المتحرك ووعيه المنفتح في الواقع الإنساني الكبير، لينحصر التفاضل في نطاق التقوى التي تمثل حركة الانضباط في أجواء المسؤولية بين يدي الله تعالى[1].

وضع الإسلام طريق المسالمة أمام المسلمين وغير المسلمين؛ قال تعالى: ﴿لَّا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ﴾[2]؛ وكذلك التسامح وعدم إكراه من يخالفنا، وإجباره على اعتناق ما نؤمن به، وقد ركّز القرآن الكريم على تأسيس خطاب سلمي يُعلي من قيمة الإنسان، ويكرم الآدمية، ويعد قتل النفس قتلاً للبشرية جمعاء؛ لأنّ « الفطرة الإنسانية الشفافة تفزع من منظر الدم الحرام»[3]، بينما نجد هؤلاء يتفننون في قتل الإنسان بوحشية لم يشهد لها التاريخ مثيلاً، « فليس من المعقول أننا على المستوى النظري ننتمي إلى شرعة التيسير والرحمة، ولكننا على المستوى الواقعي نسرف في التشدد والغلو والتطرف»[4].

لقد بُعث النبي ﷺ في مجتمع كمجتمع هؤلاء التكفيريين بما تجلى في مجتمعهم من قتل، وحروب، ودمار، وغزو... من هنا تتضح حجم المسؤولية الكبيرة على عاتق المسلمين في مواجهة هذه الهجمة البربرية .

فالإسلام منظومة قيميّة متكاملة لكل البشرية يمثل التعايش أحد جوانب هذه المنظومة فقد جاء؛ ليحفظ كرامة الإنسان، ويشيع ثقافة التعايش السلمي بين الشعوب وبين أفراد الشعب الواحد بعدما كانت الحروب والكراهية تنخر في جسد المجتمعات البشرية؛ لذلك فالإسلام «يُرسي مبدأ التعارف المفتوح على كل المبادرات والابتكارات لإنجاز مفهوم التعايش والاستقرار الاجتماعي؛ إذ إنه لا يمكننا أن نحقق مفهوم التعايش السلمي بدون التعارف، فهذا المنهج هو الذي يزيل الالتباسات، وينجز الأسس النفسية والسلوكية للحوار

---

(١) ينظر: سليم الحسني، الإسلاميون والتحديات المعاصرة : ١٨٠.

(٢) الممتحنة: ٨.

(٣) غالب حسن الشابندر، الآخر في القرآن : ١٥٥.

(٤) مجموعة من الكتاب ، التسامح وجذور اللاتسامح : ٢٠١.

والتواصل والتعاون»[١].

وقد سبق الإسلام الأمم والمنظمات الدولية إلى إعلان نداء الإسلام العالمي الشامل والتعايش السلمي بين الأمم والشعوب بمقتضى قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً﴾[٢]، وتتجلى أهمية التعايش السلمي وكونه مطلباً عالمياً ما أكدت عليه كثير من المنظمات الدولية، فقد جاء في الورقة الختامية لحقوق الإنسان في الفقرة (ب): التأكيد على الالتزام بمبادئ العدالة، والإنصاف، والتعايش السلمي، وعدم التدخل، وتقرير المصير، والاحترام المتبادل، والثقة المتبادلة، والتضامن الإنساني في العلاقات الدولية، وكذلك جاء في المبادئ التوجيهية الأساسية الفقرة (و): التأكيد على التعايش السلمي والعلاقات الودية بين الدول بصرف النظر عن الاختلافات في نظمها الاجتماعية، أو الاقتصادية، أو السياسية، أما الفقرة (ج): فقد أكدت على التعايش المتسم بالوئام، والنهوض التدريجي بجميع الحضارات والأديان[٣].

إن تحقق التعايش الاجتماعي عامل أساس لتوفير الأمن والاستقرار في المجتمع، وإذا ما فقدت حالة الوئام والسلم الداخلي أو ضعفت فإن النتيجة الطبيعية لذلك هو تدهور الأمن وزعزعة الاستقرار، وشيوع الفوضى، إذ تسود حالة الخصام والاحتراب، فيسعى كل طرف للإيقاع بالطرف الآخر، وتنتهك الحرمات والمقدسات، وتدمر المصالح العامة حين تشعر كل جهة أنها مهددة في وجودها ومصالحها، فتندفع باتجاه البطش والانتقام كما هو حاصل في كثير من البلدان العربية والإسلامية.

وقد وضع الإسلام الأسباب الكفيلة بالحفاظ على التعايش السلمي، ففي نهج البلاغة يخاطب الإمام علي عليه السلام مالكاً الأشتر بمقولته المشهورة: «ولا تكوننّ عليهم سبعاً ضارياً

(١) مجموعة من الكتاب، التسامح وجذور اللاتسامح: ٢٠٠-٢٠١.
(٢) سورة البقرة، آية ٢٠٨.
(٣) ورقة ختامية عن حقوق الإنسان والتضامن الدولي التابع للجمعية العامة للأمم المتحدة، الدورة الحادية والعشرون ٢٠١٢: ٦.

تغتنم أكلهم فإنهم صنفان إمّا أخ لك في الدين، وإما نظير لك في الخلق»[١] ، وأيضاً موقفه عليه السلام عندما رأى شيخاً طاعناً في السن من أهل الذمة يسأل الناس فقال : عجيب تستفيدون منه في أيام شبابه، وتتركونه في أيام شيخوخته، أخرجوا له حقاً من بيت المال[٢].

وقد تعايش المسلمون مع غيرهم سواء على البعد العقيدي للتعايش أم البعد الاجتماعي، وتتجلى مظاهر التعايش في الإسلام بثلاث واجهات هي :

١-المسلمون المكونون لهذا المجتمع سواء شكلوا عمومه أم أغلبيته.

٢-غير المسلمين والذين يشكلون أقليات في المجتمع الإسلامي.

٣-المجتمعات الأخرى المخالفة للمسلمين[٣].

إن من مبادئ التعايش السلمي في الإسلام: المساواة بين جميع الناس، مهما اختلفت أجناسهم، وألسنتهم، وألوانهم، وبيئاتهم، إنهم فروع لشجرة واحدة، فأصلهم واحد، ومصيرهم واحد، كلهم لآدم وآدم من تراب، فلا فضل للأبيض على الأسود، ولا للآري على السامي، وإنما يكون التفاضل بينهم على أساس الإيمان والتقوى والعمل الصالح [٤].

وقد وضع الإسلام مرتكزات أساسية عدة تعتبر المنطلق لمفهوم التعايش السلمي بين الشعوب ومن تلك المرتكزات:

أولاً: الحوار:

لقد بدأ الإسلام بوصفه ديناً للحوار، وقد فتح هذا الحوار مع أهل الكتاب من موقع البحث عن مواطن اللقاء، وطرح مسألة التعايش مع أهل الكتاب في ظل نظام إسلامي يكفل لهم إنسانيتهم وحريتهم، وهذا هو الخط الذي سار عليه الإسلام والمسلمون، وما يزالون؛

---

(١) بحار الأنوار: ٣٣، ص ٦٠٠.
(٢)الشيخ مرتضى المطهري ، التعليم والتربية في الإسلام ، ترجمة أحمد القبانجي : ٢٤٤-٢٤٥.
(٣) حسن السيد عز الدين بحر العلوم ، مجتمع اللاعنف دراسة في واقع الأمة الإسلامية : ٣٣٢.
(٤) عبد العظيم إبراهيم المطعني ، مبادئ التعايش السلمي في الإسلام : ٨٥.

لأن المسألة تتصل بالجانب الفكري والتشريعي في الإسلام، وما يفعله هؤلاء التكفيريّون لا ينطلق من بعد ديني على الإطلاق[1]، والقرآن الكريم كتاب حوار مفتوح جاء بمبادئ التسامح والتعددية، وعرض كثيرا من آراء المخالفين، وناقش آراءهم وحاورهم؛ ليعطي للإنسان المسلم دروساً في التعايش مع الآخر والاستماع إليه أياً كان ذلك الآخر حتى إبليس والكافرين والمشركين، فهو يحاول أن يستفيد من طاقات الإنسان وكفاءاته؛ ليبني الإرادة الحرة والشخصية الفاعلة بكل اختيار في المجتمع البشري[2].

إن مقصد الحوار أن نجد سبيلاً في نطاق الاحترام المتبادل إلى قبول غيره كما هو، وكما يريد أن يكون وأن نكتشف القيم المشتركة التي تلتقي حولها الأديان على صعيد واحد : محبة الله ورفض العنف، محبة العدل ورفض الظلم، هذه القيم وغيرها يمكن على أساسها أن ننمّي الإخاء وقبول التعددية والاختلاف والتعايش السلمي على أساس التعاون والتضامن والتحابب[3].

فالإسلام أراد للإنسان أن يحصل على القناعة الذاتية المرتكزة على الحجة والبرهان في إطار الحوار الهادئ العميق في كل القضايا بالاعتماد على الحوار العقلاني والمنفتح القائم على قيم الاعتراف بالآخر، وتفهم قناعاته وأفكاره في كل المواقع والامتدادات الفكرية والعملية، من أجل وضع حد للانقسامات، وإبقاء النزاع على طابعه السلمي الحضاري والسجالي بعيداً عن لغة التعصب وإلغاء الآخر[4].

ركّز السلوك الإسلاميّ على مسألة الحوار مع الآخر اعتماداً على مسائل البرهان والحجة العلمية والموضوعية ، وتؤكد المواقف الحوارية للرسول وأهل البيت عليهم السلام على هذا الأمر عند الاختلاف مع الآخرين، ففي عهد الإمام علي عليه السلام حاول الإمام مواجهة خصومه بالفكر

(١) سليم الحسني، الإسلاميون والتحديات المعاصرة : ١٤٢.
(٢) ينظر: مجموعة من الكتاب، أعمال المؤتمر الفلسفي السابع (فلسفة الحوار ... رؤية معاصرة) : ٥٣ و ٦٠.
(٣) ينظر: محمد الطالبي ، عيال الله أفكار جديدة في علاقة المسلم بنفسه وبالآخرين: ٢٤٠.
(٤) ينظر: مجموعة من المؤلفين : محمد حسين فضل الله العقلانية والحوار من أجل التغيير : ٢٤٤ .

والعقل والحوار ، وهو لم يمنع عنهم شيئاً، ولم يجمد لهم عطاياهم؛ بل كان يرسل إليهم بعض أصحابه الواعين، كابن عباس ليحاورهم، ولم يمنعهم من تجمعاتهم وأحاديثهم مع بعضهم بعضاً إلا عندما قطعوا طريق المسلمين، وقتلوا، وعاثوا فساداً بحق الناس، فقتلوا عبد الله بن الخباب بن الأرت وزوجته، وعندما تحولت المسألة من حرية فكر ومعارضة إلى إخلال بالأمن، هنا حاربهم حتى أرجعهم وردهم عن ذلك، ومع كل ذلك كان الخوارج يأتون إلى الكوفة ويرجعون؛ فالإمام لم يضيق الحرية عليهم، حتى يضع للمجتمع أسس الحوار كمنهج بين المختلفين على أساس الانفتاح والحوار والاحترام والاعتراف بالآخر، وينطلق بذلك اعتماداً على مبدأ الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن، كما كان يفعل الرسول ﷺ فلم يحارب إلا حرباً دفاعية أو وقائية، أو حارب لسلامة المجتمع، والأمن الإسلامي الذي يتحمله بوصفه خليفة للمسلمين[1].

يرى الشهيد مرتضى مطهري أن الإسلام أراد منا أن نكون في خدمة جميع أفراد البشر بما فيهم الكفار « فالعداء للكافر إذا كان نابعاً من حب الشر له فهو ضد الأخلاق، فلا ينبغي لنا أن نريد الشر للكافر أيضاً، بل علينا أن نكون كما كان رسول الله ﷺ حيث كان يتحرق على هؤلاء القوم لماذا لا يفكرون بخيرهم ومصلحتهم وحقهم »[2]؛ وإذا لم يهتدوا وحاولوا أن يكونوا عقبة في طريق من يريد الهداية، فلا بد من النظر إليهم بنظر المانع وحجر الطريق، ولكن لا ينبغي أن نريد الشر لهم، إن العداء مع الكافر ناشئ من حب الآخرين وإرادة الخير لهم، وليس ناشئاً من إرادة الشر للآخرين، فالإحسان إلى الكافر جائز إلى الحد الذي لا يكون الإحسان إليه إساءة إلى الآخرين وإساءة إلى الإنسانية ومصالح البشرية»[3].

ثانياً: العلاقة مع الآخر :

مفهوم الآخر قد يكون في الهوية، أو في الجنس، أو في اللون، أو الموقف السياسي، أو

---

(١) ينظر: مجموعة من المؤلفين : محمد حسين فضل الله العقلانية والحوار من أجل التغيير : ٢٤٦-٢٤٧.
(٢) الشيخ مرتضى المطهري ، التعليم والتربية في الإسلام ، ترجمة أحمد القبانجي : ٢٤١.
(٣) المصدر نفسه : ٢٤٢.

المدرسة النقدية، المقصود بالآخر في هذا البحث ليس فقط من لا ينتمي للإسلام؛ بل يشمل حتى من هم في دائرة الانتماء الواحد، فالمسلم السني يقابله المسلم الشيعي وتتشعب إشكالية الآخر حتى داخل المذهب نفسه.

لا يقرُّ القرآن الكريم مبدأ اتخاذ الموقف من (الآخر) في ضوء أفكار وتصورات الأجداد أو الأحفاد؛ بل يتقرر بلحاظ المسؤولية الشخصية المباشرة[1]. والإسلام عندما يتحدث عن أهل الذمة يتحدث عنهم بطريقة حضارية تؤكد إنسانية الإنسان وليس بطريقة تهزم إنسانيته، وحتى موقفه من التيارات الإلحادية أو الضالة التي تعمل على إنكار كثير من المفاهيم الإسلامية فإن الإسلام يرفضها رفضاً كاملاً؛ ولكنه لا يعتمد التعسف في مواجهتها؛ لأنه يرى أن الحوار هو الطريق الأفضل لتكوين القناعات، ويرى أن التعسف لا يمكن أن يحقق نتائج ايجابية كبيرة، ويصل الانفتاح على الآخرين في أن يقول تعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾[2] ويريد الإسلام من المسلمين أن يجادلوا بالتي هي أحسن، وأن يدعوا إلى سبيل ربهم بالحكمة والموعظة الحسنة، وأن يدفعوا بالتي هي أحسن وأن يقولوا التي هي أحسن[3].

لقد تعامل الإسلام مع الآخر في الدين من خلال المشاركة بمقاربات ثلاث، الإنسانية والوطنية والاجتماعية وهناك شواهد وأدلة عديدة على ذلك منها إباحة مؤاكلتهم، ومصاهرتهم، ومعاشرتهم بلحاظ الشراكة الإنسانية الجامعة، وتسميتهم بأهل الكتاب تؤكد على قاسم مشترك هو الدين السماوي بما يمثله من روابط روحية وإيمانية، وقد تعامل معهم على أساس البر بوصفه قيمة إنسانية، وكذلك الدعوة إلى التعارف الروحي والفكري والاجتماعي، ومحاورة أهل الكتاب بالتي هي أحسن، الحوار القائم على الدليل والإقناع الفكري، وأيضاً ليس من حق المسلم محاسبة الناس على أخلاقهم وانتماءاتهم الدينية؛ كونه من

---

(١) غالب حسن الشابندر، الآخر في القرآن: ٩١.
(٢) سبأ: ٢٤.
(٣) سليم الحسني، الإسلاميون والتحديات المعاصرة: ١٤٧-١٤٨.

اختصاص العدالة الإلهية في اليوم الآخر[١].

فالآخر في القرآن الكريم ليس مشروع حرب؛ بل هو مشروع تعارف، وفكر، ودعوة، وسلام، وأخوة، وتعاون، وحسن ظن، ودعاء بالخير... [٢]، ولم يأتِ الإسلام لإلغاء حق الآخرين المخالفين له في الوجود ولم يفرض الإسلام نفسه كرهاً ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾[٣]، «إن الآخر في القرآن الكريم ليس مجموعة أشخاص، ولا مصفوفة عقائد محسوبة، بل يمتدُّ بامتداد الحراك الفكري على طوال التاريخ»[٤].

أما موضوعة الولاء والبراء فقد تم تحريف مسارها بلحاظ أنها دعوة إلى الحرب، والبغض، والكراهية، والقطيعة، وهذا من الأخطاء الكبيرة التي ساهمت في تمزيق السلم الاجتماعي داخل المجتمعات الإسلامية، وتسببت في تشويه نظرة الإسلام إلى الآخر، وعقدت علاقتنا مع الآخرين، في حين إن الأصل في العلاقة مع الآخر في القرآن هو التواصل والتعارف والتداخل «وإن المودة المنهي عنها في الكتاب الكريم هي مودة الذين ينصبون العداء السافر، ويعملون على التعريض بالمؤمنين، ومن ثم هي حالة قلبية أكثر مما تكون حالة عملية؛ بل هي موقف قلبي صرف عند كثير من الفقهاء»[٥]؛ كذلك، إن «موالاة الكافر المرفوضة تتمثل في تقبل كفره، والانسياق مع هذا الكفر تحت ضاغط غير موضوعي يدخل في نطاق الولاء المنهي عنه، كذلك الركون إلى الآخر، ومدّه بالقوة والإسرار في ما هو يحارب المؤمنين، ويعمل على تصديع المجتمع المسلم، هذه موالاة مرفوضة، ولكن الموالاة بمعنى المعاشرة الجميلة، بمعنى المشاركة بالوطن والمصير، فهي مما أجازه الشرع، ولم ينه عنه كتاب الله »[٦]، وليس في الإسلام المقولة الوهابية التي تقسم العالم على معسكرين، وتحتم الجهاد ضد

---

(١) ينظر: غالب حسن الشابندر، الآخر في القرآن: ١١٢-١١٦.
(٢) المصدر نفسه: ١٥٩.
(٣) سورة البقرة: آية ٢٥٦.
(٤) غالب حسن الشابندر، الآخر في القرآن: ٤٢.
(٥) المصدر نفسه: ١١٩.
(٦) المصدر نفسه: ١٣٤-١٣٥.

المعسكر الآخر باعتباره دار حرب ، في مقابل: دار الإسلام[١].

حاول الباحث غالب حسن الشابندر استقصاء بعض حالات ممارسة إقصاء الآخر وصيغها عبر التاريخ القمعي بالرجوع إلى القرآن الكريم، ومن تلك الصيغ التي نجد بعضها له وجوداً ومصداقاً في واقعنا الحالي:

١-**الاستئصال الوجودي**: وتعني الحرمان من الحياة بأي وسيلة، ويلجأ إليها العاجزون عن تجذير فكرهم في الواقع، كما في أفعال الطغاة على مر التاريخ منذ فرعون، وكذلك اليهود في تعاملهم مع زكريا ويحيى عليهما السلام وقصة أصحاب الأخدود الذين خالفوا ملكهم وأُلقوا في النار جماعياً هي من أوضح الأمثلة، وفي العصر الحديث تتكرر عملية الاستئصال الجماعية بحق الآخر كما في جرائم الطاغية صدام بحق أتباع مدرسة أهل البيت ﷷ؛ إذ إنّ المقابر الجماعية خير دليل على ذلك، وجاءت داعش التكفيرية ومن وقف معها لتكمل هذا المسار الاستئصالي من خلال التصفيات الجماعية على الأساس الطائفي كما في جريمة العصر (جريمة سبايكر)، وجريمة سجن بادوش، وقتل، وتهجير المسيحيين، والأيزيديين، وغيرها من الجرائم.

٢-**السجن**: وهو وسيلة أخرى من وسائل الإقصاء يعبر عن إقصاء للفكر المتبنى، وقد كان وما زال أحد أساليب القهر .

٣-**النفي من الوطن**: وهي عملية إقصائية، وقد مارسها الطغاة على مر العصور بحق أصحاب الفكر المخالف، أو أصحاب الفكر النَّير كما حصل مع عدد من الأنبياء مثل شعيب ﷵ: ﴿**قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَـٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَـٰرِهِينَ**﴾[٢]. وكذلك حصل مع موسى ﷵ عندما خرج من مصر متوجهاً إلى مدين بسبب الخوف من فرعون، وكذلك حصل مع النبي محمد ﷺ عندما خرج من مكة

---

(١) ينظر : الشيخ خالد البغدادي ، آفة العصر الوهابية وآل سعود قصة تحالف مشؤوم ، نقلاً عن جذور الإرهاب في العقيدة الوهابية، أحمد محمد صبحي: ١٤١.

(٢) سورة الأعراف ، آية ٨٨.

المكرمة.

٤-**العزل الاجتماعي**: وذلك من خلال عزل أصحاب الفكر اجتماعياً؛ كون ذلك الفكر يهدد وجودهم، وغالباً ما يسبب ذلك الانغلاق والتقوقع، وهو كان وما يزال أحد أساليب الطغاة ومن أساليب قمع الفكر المضاد .

٥-**تشويه الفكر**: وهو أسلوب غير مباشر لإقصاء الآخر ويمثل عملية إلغاء فنية راقية من حيث الأسلوب، ويتخذ أساليب متعددة وذلك من خلال تحريف النص الذي يعتبر المصدر الأساسي للفكر إذ أساء لفلسفات عظيمة من خلال تحريف نصوصها بتشويه المعنى الذي تهدف إليه.

٦-**كتمان الفكر**: وتتخذ هذه العملية صيغاً متعددة من خلال كتمان الفكر المخالف بإخفائه وعدم السماح بنشره، أو عدم الإشارة إليه، ومن ذلك ما أعلنته قناة السودان مؤخراً من قرار حذف مواضيع المذهب الشيعي من مقررات المدارس الثانوية في السودان.

٧-**الصد عن سماع الفكر**: أحد أساليب الإلغاء للآخر من خلال الصد عن الاستماع لهذا الآخر كما مارس المشركون مثل هذا الأسلوب مع دعوة النبي محمد ﷺ.

٨-**التشنيع على حامل الفكر**: وهو أسلوب آخر من أساليب القمع والإقصاء بحق الآخر، ومن أمثلته اتهام الرسول الأكرم بالجنون والسحر، واتهام الأنبياء بسبب خلافهم الفكري مع طغاة المجتمع وقاتليه، وما تزال صور هذا النوع تظهر بأشكال مختلفة تلصق بحق أتباع مدرسة أهل البيت عليهم السلام[1].

والملاحظ أن البراهين الدينية، ودلالات الآيات القرآنية تشيد بالتنوع، وتقر بالتباين، وتعترف بالاختلاف، وتراه ظاهرة طبيعية، طالما أن البشر يختلفون في إفهامهم ومدركاتهم العقلية ووعيهم للمصالح، وينجذبون بدرجات مختلفة للأفكار والرسالات والمذاهب،

(١) ينظر: غالب حسن الشابندر ، الآخر في القرآن : ٤٧-٦٢.

وتؤثر فيهم العادات والتقاليد، وتترك عليهم البيئات الطبيعية تأثيرات مختلفة "[١]؛ لذلك فإن الخطاب العربي والإسلامي يتناول موضوعة (الآخر) باعتبارها أحد مداخل السلام الاجتماعي، ومن أهم أسباب التعايش الفكري والعقيدي؛ بل باعتبارها من صلب الإيمان بالحرية من حيث كونها جوهر الوجود الإنساني، فهي قضية مصيرية تتماهى مع صيرورة الإنسان "[٢].

ومن خلال ما ذكرنا من اليسير من أخلاق الإسلام وتعاليمه في تعامله مع الآخر، وتأكيده على أهمية التعايش السلمي بين البشر بمختلف انتماءاتهم، وعدم قيامه على الإقصاء والتهميش، بل على الحوار وتبادل الآراء لغرض الوصول إلى الحقيقة، وإن الإنسان قيمة مقدسة ومن قتل نفسا كأنما قتل الناس جميعاً، وغيرها من القيم النبيلة التي تعبر عن حقيقة هذا الدين العظيم، مما ذكرنا لا بد من أن نبين حقيقة ما يحصل من قتل وتفجير وتهجير وسبي باسم الإسلام من قبل الجماعات التكفيرية، وجميع تلك الأعمال الإرهابية هي بالضد من قيم وأخلاق وتعاليم الإسلام، وهذا ما يتكفل به المبحث الثاني من هذا البحث.

(١) مجموعة من الكتاب ، الإسلام المعاصر والديمقراطية : ١٦٣.
(٢) غالب حسن الشابندر ، الآخر في القرآن : ٤٧.

المبحث الثاني:

معالم غياب التعايش السلمي عند الجماعات التكفيرية:

اعتمدت الجماعات التكفيرية في فكرها على القاعدة التكفيرية الشهيرة (من لم يُكفّر فهو كافر)، وللقارئ أن يتصور عقول تفكر بهذه الطريقة ماذا يكون تصرفهم في ضوئها؟ فهم لا يرون غضاضة في استهداف المدنيين كونهم أبناء مجتمع كافر لا يقيم حدود الله من وجهة نظرهم، فدمهم وأموالهم وأعراضهم مستباحة، فلا وجود للغة العقل والضمير والدين وتتحكم بهم لغة التعصب والتطرف والقتل والإرهاب.

تعتبر منظمة (السيكاري) أوّل منظمة إرهابية عرفها التاريخ؛ إذ من شكّلها هم بعض المتطرفين اليهود الوافدين إلى فلسطين، في نهاية القرن الأول قبل الميلاد عندما كانت فلسطين جزءاً من الإمبراطورية الرومانية، إذ قامت هذه المنظمة بحملة متصلة من الاغتيالات والحرق والتدمير ضد الرومان الأغنياء من سكان البلاد[1].

إن عدم عرض نموذج التعايش السلمي الذي أكده ودعا إليه الإسلام أعطى الفرصة لأن تأخذ الجماعات التكفيرية زمام المبادرة، مستغلة الجهل، والتخلف، والفقر، والظلم في بعض المجتمعات فأشاعت التطرف، والتكفير، والقتل، والموت، والدمار؛ لذا فقد علت الأصوات بوجه تلك الهجمة البربرية للجماعات التكفيرية التي توسع نطاقها في بعض الدول العربية والإسلامية كما هو الحال في مصر، وتونس، وليبيا، والعراق، وسوريا، ولبنان، إذ هددت تلك الجماعات التعايش السلمي لتلك الشعوب وإذا لم يتم التنبه لخطرها والوقوف بوجهها فسوف يؤدي ذلك إلى مآسٍ كبرى وويلات عظيمة على البلاد والعباد.

لذلك ارتفعت الأصوات لوقف تمدد هذا السرطان وتهديده التعايش السلمي، ففي تونس طالبت رابطة حقوق الإنسان بتطبيق القانون، واتخاذ موقف واضح تجاه العنف السلفي الذي بات يهدد الحريات وحقوق الإنسان والحق في التعايش السلمي بين التونسيين ،

---

(١) ينظر: حسن السيد عز الدين بحر العلوم ، مجتمع اللاعنف دراسة في واقع الأمة الإسلامية : ١٩-٢٠.

فباتوا يهددون المفكرين، والمثقفين، والمبدعين، والإعلاميين؛ فاستخدموا شبكات التواصل الاجتماعي لتكفير المفكرين، وإهدار دمهم وتهديدهم، كما هو الحال في ما يخصّ المفكر الإسلاميّ محمد الطالبيّ، ويتوجس المجتمع التونسي من خطر الجماعات السلفية التكفيرية التي ينشط أعضاؤها في الأحياء الشعبية الفقيرة تحت غطاء جمعيات خيرية، فباتت تهدد مقومات المجتمع والتعايش السلمي والتسامح من خلال فرض نموذج عيش متخلف على المجتمع التونسي[1].

أما في مصر فقد هدد التكفيريون الأمن والاستقرار، فمنذ صعود الإخوان صعد الخطاب التكفيري، وما زال له تأثيره بعد إزاحتهم من المشهد، وأصبحت الفتاوى التكفيرية، والعنف المادي والمعنوي يثيران قلق المجتمع المصري الباحث عن الأمن والاستقرار، والتعايش السلمي المشترك الذي يجمع المصريين بمختلف أطيافهم من خلال الأعمال الإرهابية المتكررة التي تقوم بها تلك الجماعات الضالة[2].

إن التكفير لا بد أن يتبعه استحلال لكل شيء بعد ذلك، وأن هذه المحنة تعد من أكبر المحن التي واجهت العالم الإسلامي، والعقل التكفيري عقل سطحي يصنف أي خلاف بينه وبين الآخرين على أنه كفر، وهو فكر انشطاري يفرق ولا يجمع، ويمزق ولا يوحد، ويستكثر رحمة الله على عباده، ومن المعلوم أن الجماعات الإرهابية نشطت في مصر وخاصة في سيناء، ومن أهم تلك الجماعات التي اتخذت من سيناء مقراً لها جماعة التكفير والهجرة ومنظمة الرايات السوداء ومنظمة السلفية الجهادية ومنظمة أنصار الجهاد ومنظمة مجلس شورى المجاهدين وجماعة التوحيد والجهاد[3].

وفي لبنان هددت تلك الجماعات التكفيرية التعايش السلمي والأمن والاستقرار، وهذا واضح من التحذيرات التي أطلقها المعنيون بالشأن اللبناني، وما قام به الإرهابيون من أعمال إرهابية بالسيارات المفخخة ضد المدنيين الأبرياء.

---

(١) موقع ألكتروني : ميدل ايست اونلاين.
(٢) صحيفة العرب ، العدد ٩٧٥١، الخميس ٢٧ نوفمبر - تشرين الثاني ٢٠١٤.
(٣) موقع إلكتروني: الأهرام ، السياسة الدولية ، الخميس ٢٧ نوفمبر ٢٠١٤.

وفي سوريا فإن جرائمهم الوحشية لا تخفى على أحد فمنذ سنوات عدة أشاعوا القتل والدمار والتخريب في سوريا، وأصبح الشعب السوري مشرّداً بحجة إسقاط النظام، ولكل عاقل أن يسأل ماذا جنى السوريون من هذه الأكذوبة حتى الآن؟ فقد أصبح هؤلاء التكفيريون أداة طيعة لتحقيق مآرب سياسية وطائفية من جهات لم تخفَ على أحد.

وأما في العراق فإن جرائمهم الوحشية البشعة والقتل الطائفي المنظم والسيارات المفخخة التي تستهدف الأحياء الشيعية في بغداد أصبحت مشهداً مألوفاً في كل يوم، ولم يسلم من بطشهم أبناء السنة، فكل من لا يقف معهم فهو ضدهم اعتماداً على الفتاوى التكفيرية من شيوخ القتل، والإرهاب، والتفجير، وجريمة مجزرة ألبو نمر شاهد على إجرامهم الأعمى.

إن العنف والإرهاب ليس متأصلاً في أي دين، أو عقيدة، أو طائفة، فهو مرتبط بزمن وبأسباب معينة، فالماركسيون الذين كانوا يحملون شعار السلام خرج فيهم مثل (ستالين) الذي قتل الملايين، والأمريكان قتلوا الآلاف في هيروشيما وناجازاكي بإلقاء القنابل الذرية، وقتل الفرنسيون أكثر من مليون جزائري، وتهمة العنف والإرهاب ضد المسلمين لا تمثل إلا فئات صغيرة جداً ضمن قطاعات سلفية متعصبة تنطلق من تكفير المسلمين وغير المسلمين وتجيز قتلهم، لكن وجود أجندات داخلية وخارجية جعلت من تلك المجموعات الإرهابية ذات قوة ونفوذ.

يرى بعض الباحثين أن الفكر التكفيري وهو فكر الخوارج الذي كاد أن ينقرض وعادت إليه الحياة من جديد من خلال اعتناق بعض الشباب المسلمين من أهل السنة لهذا الفكر المنحرف، ويعزو الباحث السبب إلى حماستهم وغيرتهم على الدين، وما يفعله أعداء الإسلام بالمسلمين، وجهلهم بالنصوص الشرعية، والذين لم يتربوا على أيدي العلماء، ولم يأخذوا عن الأكابر؛ جعلهم يتبنون هذه الأفكار الخارجة عن مذهب أهل السنة والجماعة [1].

---

(١) باسم بن فيصل الجوابرة ، التكفير في ضوء السنة النبوية: ٧ .

هناك تشابه كبير بين خوارج الأمس وخوارج اليوم؛ لكن خوارج اليوم لهم إمكانيات مالية وإعلامية وسياسية كبيرة، وأصبحوا يهددون التعايش السلمي في العالم أجمع، فقد رفع خوارج الأمس شعار (لا حكم إلا لله)، ورفع خوارج اليوم شعارات (لا دعاء إلا لله ، ولا شفاعة إلا لله، ولا توسل إلا بالله) وكلها كلمات حق أرادوا بها باطلاً فكفروا كل المسلمين، وكأن الإسلام مختص بتلك الفئة التي لا تعرف إلا تكفير الآخرين، وأيضاً فإن خوارج الأمس واليوم عمدوا إلى الآيات الواردة في الكفار والمشركين فجعلوها في المسلمين والمؤمنين، فكفّروا كل ما عداهم، واستحلوا الدماء والأموال والذراري، كما أن خوارج الأمس متصلبون في الدين مواظبون على الصلوات وتلاوة القرآن حتى اسودّت جباههم من طول السجود طالبون للحق وقد أخطؤوه فهلكوا على باطلهم، كذلك خوارج اليوم يشبهونهم من هذا الجانب، كذلك إن خوارج الأمس واليوم استندوا إلى ظواهر الآيات والأدلة فزعموا أن كل كبيرة كفر[1].

يقول الداعية السعودي الشيخ حسن بن فرحان المالكي - الذي اعتقل مؤخراً من دون توجيه أية تهمه له من قبل السلطات السعودية[2]، حول منهج غلاة الوهابية ومنهج شيخهم محمد بن عبد الوهاب في تكفير المسلمين «من عجائب هذا الزمان أن نجد (غلاة ينهون عن الغلو)! فيدافعون عن التكفير السلفي والوهابي ويبرؤون الرموز من كل مبالغة في هذا الأمر الخطير، ويلقون بأسباب الغلو على المتشابه الذي كتبه المودودي وسيد قطب رحمهما الله، وينسون التكفير الصريح النابع من ثقافتنا السلفية والوهابية، ألا يخجل أولئك الذين يحاولون أن يركبوا الجملين معاً! فيردون على أهل التكفير ويبقون على التكفير! يهاجمون من وقعوا في متشابه التكفير ويغلون في الدفاع عن أخطاء ابن تيمية وأئمة الدعوة في التكفير! نعم هذه ليست آخر تناقضات الغلاة، نعم أصبحنا نرى (غلاة ينهون عن الغلو)! يردون على تيار

---

(١) ينظر: الشيخ خالد البغدادي، آفة العصر الوهابية وآل سعود قصة تحالف مشؤوم: ١٤٤-١٤٨.

(٢) اعتقل الداعية السعودي المشهور الشيخ حسن بن فرحان المالكي مؤخراً من قبل السلطات السعودية، وقد ذكر محامي الشيخ على برنامج على قناة الحرة عراق إن الشيخ اعتقل من دون توجيه أية تهمه له، يذكر ان الشيخ كان جريئاً في مواقفه الدينية والسياسية وله كتابات كثيرة منها كتابه حول منهج محمد عبد الوهاب في التكفير وغيرها.

الشباب التكفيري الذين بهم ضلوا، ومن نهرهم استقوا، وفي بحرهم أرسوا سفن الغلو والتطرف.

هؤلاء الغلاة (الذين ينهون عن الغلو)! أصبحوا يردون على تيار العنف التكفيري بأدلة العلماء الذين كانوا يردون على الشيخ محمد بن عبد الوهاب! فكأنهم بهذا يردون على الشيخ محمد مع غلوهم فيه ومنعهم من مراجعة إنتاجه، وتقييم منهجه بهذه الطريقة التي تجمع بين أبلغ المتناقضات.

ونحن نقول لهم: إن كان هذا التناقض بجهل فما منا من لم يجهل ولا مانع من التصحيح والرجوع عن الأخطاء، وإن كان تناقضهم بعلم وسياسة - زعموا - فالله حرم التلون والظهور بوجهين، وقد ذم النبي ﷺ ذا الوجهين، فيقال لهم: إن كنتم رادين على هؤلاء الشباب التكفيري؛ فيجب أن يكون جوابكم مقنعاً بنقد الأصول التي رجعوا إليها، والعلماء الذين قعدوا لهذا التكفير والعنف، ضد علماء وحكام زمنهم.

وإن كنتم تدافعون عن ابن تيمية والشيخ محمد وعلماء الدعوة وترونهم مصيبين فيجب أن تدافعوا عن هؤلاء الشباب التكفيري؛ لأنهم مقلدون للعلماء الذين منعتم من نقدهم، وآخذون من الكتب التي علمتموهم إياها وأوصيتموهم بها»[1].

يؤكد الشيخ حسن بن فرحان المالكي أن التيار الوهابي فيه الغلو والاعتدال؛ لكن تيار الاعتدال مضطهد، لا رأي ولا صوت، ولا حياة ولا موت، والغلو هو التيار الغالب بيده معظم الشؤون الإسلامية كالإفتاء، والتدريس بالجامعات الشرعية، وله خطبة المنبر، والدروس والمحاضرات والأشرطة السمعية، وهذا التيار مدعوم رسمياً من الحكومة، ويعلل المالكي سبب ذلك إما لعدم تنبّه الحكومة لحجم الغلو داخل التيار الوهابي، أو لأنه كان مفيداً

---

(١) حسن بن فرحان المالكي ، داعية وليس نبياً ، قراءة نقدية لمذهب الشيخ محمد بن عبد الوهاب في التكفير : ٢٢-٢٣.

في الماضي، وربما لأنه ينطق عما يجب أن يسكت عنه، ويسكت عما يجب أن ينطق به"[1]. ويؤكد أن تشدد محمد بن عبد الوهاب في التكفير جلب أضراراً على كثير من المسلمين في العالم ، وأن دلائل غلو الشيخ في التكفير ظاهرة لمن أنجاه الله من التعصب"[2]؛ لذلك يجب عدم التغاضي عن الحقيقة، وتشخيص الداء الذي ينخر بالجسد الإسلامي، ويفتك بالتعايش السلمي للمجتمعات الإسلامية، وتسمية الأشياء بمسمياتها الحقيقية، وأن منبع التكفير الحديث وبؤرته فكرياً ومادياً هو الفكر الوهابي والمال السعودي، والغريب أن تعصب هؤلاء جعلهم لا يرون الحقيقة بسبب انغلاقهم الفكري وتعصبهم الأعمى .

برزت ظواهر العنف والإرهاب عند المسلمين مع حركة الخوارج التي أباحت لنفسها قتل كل من لا يكون من أتباعها، وتوالى بعد ذلك ظهور حالات عنف وإرهاب وصولاً إلى ما نراه اليوم من ظواهر العنف والقتل بما يتنافى مع روح الإسلام وسماحته[3]، فالتكفير في الماضي كان محدوداً نوعا ما؛ ولكن التكفير اليوم توسع كثيراً، وبدلاً من محاصرة الفكر التكفيري المتطرف في مشهد يعج بالقتل والدمار في بعض الدول الإسلامية نجد هناك من لا يزال محاولاً تغييب الحقيقة، ومحاربة الفكر الإسلامي المعتدل سواء كان ذلك الفكر سنياً أم شيعياً؛ لأن هناك محاولات حثيثة لتغييب الاعتدال الإسلامي، وبث روح التفرقة، والتشتت والتمزق، وعدم قبول الفكر الآخر في عالمنا العربي والإسلامي؛ بل إن هناك من أصبح لا يطيق حتى سماع الفكر الآخر، فنجد مؤخراً أن الحكومة السودانية تقوم برفع المواضيع التي تتعلق بالمذهب الشيعي من مناهج الدراسة الثانوية كما ذكرت الإذاعة الرسمية السودانية؛ لذا إن الفكر التكفيري هو فكر لا يلتزم بالنسق القيمي والفكري والتشريعي والأصولي الذي أسسه عامة علماء المسلمين منذ بعثة النبي ﷺ، وهو فكر على هامش النسق الرئيسي لما يعتقده المسلمون وعلماؤهم عامة، والأمر الغريب الذي نلاحظه هو أن يقوم دعاة التكفير

---

(١) ينظر: حسن بن فرحان المالكي، داعية وليس نبياً، قراءة نقدية لمذهب الشيخ محمد بن عبد الوهاب في التكفير: ٢٤.

(٢) المصدر نفسه: ١٠.

(٣) ينظر: حسن السيد عز الدين بحر العلوم، مجتمع اللاعنف دراسة في واقع الأمة الإسلامية: ٢١.

ورعاته يعقد المؤتمرات وكتابة المؤلفات والدراسات لمحاربة التكفير والإرهاب ؟؟ وكأنما هذا الأسلوب ينطلي على الواعين من الأمة الإسلامية باعتقادهم.

لم يظهر الفكر التكفيري بشكل مفاجئ في العصر الحاضر، إذ نظَّر للتطرف والتكفير عدد من أصحاب الفكر المتطرف كأبي الأعلى المودودي، وسيد قطب، وابن تيمية، ومحمد بن عبد الوهاب، وفي النهاية برزت إلى الوجود الجماعات التكفيرية التي تبنّت فكراً جديداً للخوارج الجدد يتمثل في جماعات التكفير والتطرف والغلو، كما في جماعة التكفير والهجرة التي نشأت داخل السجون المصرية منذ عام ١٩٦٥م، وكفَّرت كل من خالفهم في الفكر قديماً وحديثاً، ثم تتالت بعد ذلك جماعات أخرى متطرفة تكفيرية تفننت في أساليب التكفير والقتل والذبح .... كان آخرها جماعة داعش التكفيرية المنحرفة التي عاثت في الأرض فساداً، وقتلاً ودماراً.

لقد تبنت الجماعات التكفيرية القتل، والإقصاء، والدمار منهجاً لفكرها المتطرف في تعاملها مع الآخر بعكس المنهج القرآني القويم لذا إن « خطاب السيف يتقاطع مع الحوار ويرفضه ويعتمد شكل محدد من الحوار هو الجدل، ويقوم على آليات (القتل والكفر) والخروج عن الإسلام ، والحد ، والمرتد ، الجهاد..؟»[1].

إن اللغة المتداولة في واقعنا العربي والإسلامي من قبل الجماعات التكفيرية والمتطرفة هي لغة التكفير والانقسام والتضليل والسباب بين المذاهب المتعددة، وحتى داخل المذهب الواحد؛ وسبب هذا هو الخوف من الحوار لعدم امتلاك الحجة؛ ولأن كلاً منا يريد أن يبقى مختنقاً في داخل ذاته في إطار المذهبية والطائفية والحزبية، فيتم استبدال الفكر بالتخلف، والالتزام بالعصبية، وهذا سببه جبن هؤلاء الذين لا يملكون شجاعة في أن يواجه فكرهم الفكر الآخر، ولو كانوا أقوياء لوقفوا في ساحة المواجهة، فهم يشعرون بالضعف في الحجة التي تدعم فكرهم؛ لذلك يختبئون في داخل ذواتهم ليرفضوا الآخر من خلال عقدة الذات[2].

لقد استعملت الحركات (الإسلامية) المتطرفة في العقود الأخيرة العنف المسلح ضد

---

(١) مجموعة من الكتاب ، أعمال المؤتمر الفلسفي السابع (فلسفة الحوار ... رؤية معاصرة) : ٣٣٠.

(٢) ينظر : مجموعة من المؤلفين : محمد حسين فضل الله العقلانية والحوار من أجل التغيير : ٢٤٨-٢٤٩.

الآخرين وضد بعضها بعضاً؛ مما أدى إلى خلق حالة من العداء والرفض للمشروع الإسلامي، وإفشال هذا المشروع في أكثر من موقع في العالم الإسلامي، وإلى حصول أضرار فادحة أُلصقت من خلالها تهمة الإرهاب بالإسلام « وأحيا التهم القديمة عن انتشار الإسلام بالسيف، وعن عجز المسلمين وتخلفهم في بناء العلاقات وتكوين القناعات بـ (الحوار)، في الوقت الذي تترسخ على المستوى العالمي فكرة التغيير بالحوار وبالتراضي وبالأساليب الديمقراطية، والإسلام بريء من التهمتين، فهو يحرم الإرهاب والغيلة حتى في حال الحرب، وهو يحمل أعظم وأوسع دعوة للحوار عرفها تاريخ البشرية»[1].

يعتبر الوهابيون من أشد الاتجاهات التكفيرية في الواقع الإسلامي، ولم يسلم من تكفيرهم كل من خالفهم في أبسط القضايا وكثير من نصوصهم تنطوي على تكفير عموم المسلمين تصريحاً أو تلميحاً، وقد ابتدأ هذا التكفير محمد بن عبد الوهاب فكفر أهل نجد وشيوخهم وشيوخ شيوخهم، ثم توسع نطاق التكفير ليشمل كل من خالفهم، وهذا الحكم بالكفر أو الشرك عندهم مساوق للأمر بالقتل، فإذا قال محمد بن عبد الوهاب عن أحد ما بأنه كافر أو مشرك فهذا معناه حليّة دمه، وماله، وجواز سبي ذراريه، وهذا المعنى قد صرح به اتباعه جهاراً نهاراً، والنص الآتي من كلامه يؤكد ما قلناه يقول: « يجب أن يُدعى هؤلاء إلى التوبة والرجوع إلى التوحيد، فمن رجع منهم حُقن دمه، وماله، وذراريه، ومن أصر أباح الله منه ما أباح لرسول الله من المشركين» والمقصود بالرجوع إلى التوحيد في النص هو الرجوع إلى الوهابية[2].

لقد نجحت الحركة الوهابية في التأسيس لفكرها بعد أن كفّرت كل خصومها، وقامت بتصفيتهم، وتحالفت مع آل سعود مما أعطاها قوة كبيرة، فاجتمع السلوك البدوي الدموي لآل سعود الذي كانوا يمارسونه من قبل في القتل والسلب بين القبائل، فجاءت دعوة محمد بن عبد الوهاب لتحقق الحلم لتلك العائلة بالقتل المشروع، والنهب المشروع، والسيطرة

(١) الشيخ محمد مهدي شمس الدين، فقه العنف المسلح في الإسلام: ٣٠.

(٢) ينظر: الشيخ خالد البغدادي، آفة العصر الوهابية وآل سعود قصة تحالف مشؤوم: ١١٦-١١٧.

المشروعة، متى ما أرادوا، إذ كان عبد العزيز بن سعود قبل أن يهاجم القبائل يرسل لهم رسولاً يحمل هذا الإخطار (القرآن في يد والسيف في الأخرى)، مع كتاب موجه لهم فيه «السلام على قبيلة كذا، إذا وعيتم كلامي نجوتم، أما اذا اهملتموه فسينالكم غضب الله»، وفي رسالة أخرى الى المدينة المنورة جاء فيها «من سعود إلى سكان المدينة كباراً وصغاراً، سلام: إني أبتغي أن تكونوا مسلمين حقيقيين، آمنوا بالله تسلموا، وإلا فاني سأقاتلكم حتى الموت»[١].

لقد انطلقت شرارة التكفير إلى العالم الإسلامي في العصر الحديث من أتباع الفكر الوهابي في السعودية متغلغلة في بعض البلدان بفعل أموال البترول الطائلة ومستغلة الظروف التي تعيشها بعض الفئات الاجتماعية، مخالفين بذلك إجماع المسلمين الذين لم يكفروا الخوارج فضلاً عن غيرهم من المسلمين، فقبل أكثر من عقد ونصف شهد علماء مكة والمدينة على أنفسهم بالكفر الأكبر المبيح للدم والمال قبل الفتح الوهابي – التي يرى بعضهم أنها أخذت منهم بقوة السيف – جاء في أحد تلك الوثائق :

«نشهد نحن علماء مكة الواضعون خطوطنا، وأختامنا في هذا الرقيم: إن هذا الدين الذي قام به الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، رحمه الله تعالى، ودعا إليه إمام المسلمين: سعود بن عبد العزيز ، من توحيد الله ونفي الشرك الذي ذكره في هذا الكتاب إنه الحق الذي لا شك فيه، ولا ريب ، وأن ما وقع في مكة والمدينة سابقاً، ومصر والشام وغيرهما من البلاد، إلى الآن من أنواع الشرك ... إنه الكفر المبيح للدم والمال والموجب للخلود في النار، ومن لم يدخل في هذا الدين (الذي قام به محمد بن عبد الوهاب) ويعمل به، ويوالي أهله، ويعادي أعداءه فهو عندنا كافر بالله واليوم الآخر، وواجب على إمام المسلمين (سعود بن عبد العزيز)، والمسلمين، جهاده وقتاله حتى يتوب إلى الله مما هو عليه، ويعمل بهذا الدين»[٢]. واستمر هذا التكفير الذي بدأ متقوقعاً لدى مجموعة من البدو في الجزيرة العربية ليصبح الآن أكبر مشكلة تواجه

---

(١) ينظر : الشيخ خالد البغدادي ، آفة العصر الوهابية وآل سعود قصة تحالف مشؤوم ، نقلا عن : الوهابيون : تاريخ ما أهمله التأريخ لمؤلفه لويس دوكرانسي : ١١٨-١١٩.

(٢) ينظر: الشيخ خالد البغدادي، آفة العصر الوهابية وآل سعود قصة تحالف مشؤوم ، نقلا عن: الدرر السنية في الأجوبة النجدية: ١٢٠.

التعايش السلمي بين المسلمين أنفسهم فضلاً عن غيرهم، ولم تتوقف فتاوى فقهاء البادية إلى الآن فما زالت منابرهم ووسائل إعلامهم تكفر كل من خالفهم من المسلمين فكفروا السنة قبل الشيعة، ومن موارد تكفيرهم للشيعة جواب ابن جبرين على سؤال وجه له حول حكم دفع الزكاة لفقراء الشيعة فجاء في جوابه «لقد ذكر العلماء في مؤلفاتهم في باب أهل الزكاة انها لا تدفع لكافر ولا مبتدع ، فالرافضة بلا شك كفار لأربع أدلة...»[١].

جاء الإسلام بتعاليم سماوية خالدة أحدثت رقياً واسعاً في المجتمعات البشرية، وقد حرص الإسلام على حماية الفرد «كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه»، و«المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده»، وأعطى الحماية اللازمة للمواطنين الذين يعيشون في بلد واحد مع المسلمين، ويرتبطون معهم برباط متين من عهود السلم، والأمان، وحسن الجوار، ويسمون باصطلاح الفقهاء بأهل الذمة، أي لهم ذمة الله ورسوله؛ يقول الرسول ﷺ عنهم: «لهم ما لنا وعليهم ما علينا»؛ وبذلك أصبحت دماؤهم وأموالهم وأعراضهم حراماً علينا كحرمة المسلمين سواء بسواء[٢].

لقد اعتبر التكفيريون كل من سواهم كافراً حربياً أو مرتداً، دمه وماله وعرضه مباح لهم، فارتكبوا أبشع الجرائم، وأراقوا الدماء، وأهلكوا الحرث والنسل، وأفسدوا في الأرض باسم الدين، وهناك أسباب عديدة وراء هذا الفكر التكفيري المتطرف منها الاستبداد بالرأي، واحتكار فهم الآيات والأحاديث الشريفة، وكل من خالف فهمهم فهو كافر يجب قتله، يقول ابن تيمية في من لم يعترف أو يؤمن بان لله تعالى نهاية ومحدودية من الجهات الست: «فهذا كله وما أشبهه شواهد ودلائل على الحد ومن لم يعترف به فقد كفر بتنزيل الله وجحد آيات الله»[٣]. وكذلك خطأهم في الأخذ بطريقة نؤمن ببعض ونكفر ببعض من آيات القرآن الكريم، وأيضاً الخطأ العظيم في تفسير الشرك والإيمان بطريقة انتقائية.

---

(١) ينظر: الشيخ خالد البغدادي ، آفة العصر الوهابية وآل سعود قصة تحالف مشؤوم ، نقلاً عن: اللؤلؤ المكين من فتاوى فضيلة الشيخ ابن جبرين :١٢٢.

(٢) ينظر: حسن السيد عز الدين بحر العلوم ، مجتمع اللاعنف دراسة في واقع الأمة الإسلامية: ١٤٣.

(٣) الشيخ خالد البغدادي، آفة العصر الوهابية وآل سعود قصة تحالف مشؤوم : ٨٦، نقلاً عن : درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية : ١:٢٦٤.

وكذلك إن مفهوم الجهاد في الإسلام قد انحرف مفهومه ومعناه عند الجماعات التكفيرية، وأصبح قنبلة موقوته تستهدف الأبرياء في كل مكان، بينما أهداف الجهاد الحقيقي في الإسلام هي:

١-النضال من أجل حياة ملؤها الفضيلة.

٢-القتال ضد الظلم.

٣-الدفاع عن العقيدة حينما تتعرض لهجمات عليها[1].

يرى السيد حسن نصر الله أننا أمام فرصة ذهبية لكسر المشروع التكفيري، وهذه فرصة موضوعية لثلاثة أسباب :

أولاً: إن المشروع التكفيري يتضمن عوامل فنائه؛ لأنه يسعى إلى استحضار صورة الماضي الفائت في واقع الحاضر والتخطيط للمستقبل، وهو ما يشكل استحالة تاريخية.

ثانياً: لأنه مشروع تدميري انتحاري لا ينطوي على أي فكرة وطنية، أو تنموية، أو قابلة للحياة.

ثالثاً: لأنّ موازين القوى - على رغم الدعم الإقليمي والدولي للتكفيريين - تسمح بمواجهة هؤلاء وهزيمتهم.

واغتنام الفرصة لا تتمثل فقط في رد المعتدين، وإنّما من خلال « تقديم إسلام راقٍ ومشرق، على عكس ذلك الذي تقدمه داعش ومثيلاتها»[2].

وعندما نقول: إن الجماعات التكفيرية ليس لها صلة بالإسلام؛ لأن كل قيم هذا الدين ومفاهيمه بالضد من أفعالهم المنكرة، فهم عندما يكفرون المسلمين بالجملة يقومون بحرب وراءها أجندة، ومخابرات دولية للقضاء على الإسلام، وإلا فإن الإسلام وقيمه لا تحتاج

---

(١) حسن السيد عز الدين بحر العلوم ، مجتمع اللاعنف دراسة في واقع الأمة الإسلامية : ٢٧.

(٢) صحيفة الصحوة التونسية، السنة الثانية ، العدد ٩٣، ٢٠١٤ ، مقال: كيف يمكن (كسر المشروع التكفيري)؟، للكاتب ناهض حتر:٢٥.

لفلسفة ومعادلات ... فعندما أعطى رسول الله ﷺ الراية لعلي عليه السلام لفتح قلاع خيبر، وأخبر الناس بأن حامل الراية سيفتح خيبر، في هذه اللحظة قال الإمام علي لرسول الله: يا رسول الله علامَ نقاتلهم؟.

فقال النبي ﷺ «قاتلهم حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فإذا فعلوا ذلك فقد منعوا منك دماءهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم على الله»[1]. وفي قول آخر للنبي ﷺ جاء فيه «لا تكفروهم بذنب ولا تشهدوا عليهم بشرك»[2].

النتائج والتوصيات

١- ينبغي إشاعة ما دعا إليه الإسلام بخصوص مبدأ التعايش السلمي بين كل البشر، وكشف زيف الفئات الضالة والمنحرفة التي تهدف إلى تشويه قيم الإسلام بمختلف الوسائل والأساليب الملائمة؛ سواء كانت وسائل إعلام أم مراكز بحثية أم كتب منهجية حتى لا تمرر الأفكار المسمومة للفئات التكفيرية على مجتمعاتنا.

٢- ينبغي القضاء على الجذور الفكرية للتيارات التكفيرية لتخليص المجتمع من شرهم.

٣- إن الإسلام يواجه خطراً كبيراً من تلك الجماعات التكفيرية مما يجعل المسلمين بكل فئاتهم وانتماءاتهم أمام مسؤولية كبرى في كشف زيف هؤلاء والوقوف بوجههم.

٤- لا بد من كشف خطر الجماعات الإرهابية، وبيان سبل مواجهتها وكيفية اجتثاث جذورها.

٥- تمثل الجماعات الإرهابية تهديداً للسلم والأمن العالميين إلى جانب تهديده للمسلمين وهويتهم الإسلامية، كونهم يتخذون من الإسلام غطاءً لتمرير أفكارهم وخداع السذج من الناس.

---

(١) صحيح البخاري: كتاب الإيمان، ١٠، صحيح مسلم: ج٧ ، باب فضائل علي ،١٢١، نقلا عن العقيدة الإسلامية على ضوء مدرسة أهل البيت: جعفر السبحاني:٢٦٠-٢٦١.

(٢) كنز العمال: ج١، الحديث ٣٠. نقلا عن العقيدة الإسلامية على ضوء مدرسة أهل البيت: جعفر السبحاني: ٢٦٤.

٦-إن ظاهرة التكفير لا تمت للإسلام بصلة أبداً، وتقف بالضد منه تماماً وهي قراءة خاطئة عن الدين الإسلامي وشريعته السمحاء.

٧-التيار التكفيري نتاج الجمود الفكري في الغرف المظلمة.

٨-ضرورة إنشاء المراكز العلمية والأكاديمية المتخصصة في كشف الفكر التكفيري وتسليط الضوء عليه، ولا سيما في العراق؛ لكونه يعتبر من أكثر المتضررين من الجماعات التكفيرية.

٩-عدم الانخداع بمواقف بعض الدول التي هي بالأصل داعمة للإرهاب أو مداهنة له، وتدعي محاربته، كما في (غلاة ينهون عن الغلو)؟.

١٠-ينبغي مراجعة التاريخ، وقراءة الأحداث التي أوصلت البلدان الأوربية إلى حالة التطور بعد سنوات من التناحر والحروب المذهبية؛ من أجل وضع خطط الإصلاح المجتمعي، وإنهاء حالة التناحر الديني والمذهبي، واستثمار المعرفة للقضاء على كل أشكال التعصب.

دور الأفكار والمعتقدات
في توجيه الجماعات التكفيريّة

دور الأفكار والمعتقدات في توجيه الجماعات التكفيريّة

د. مصطفى كعب*

مقدمة

إنّ بناء المحتوى الداخليّ للإنسان - أي البناء العقائديّ والفكريّ - يمثل اللبنة الأساسية الأولى في كل الحركات التغييرية التي عرفتها الحياة البشرية على ظهر هذه البسيطة، وحتى الأديان السماوية أعطت هذا الجانب من الحياة الإنسانية اهتماماً خاصاً؛ لدوره الأساسي في التحكم في السلوك الإنساني، وتوجيهه نحو الهدف المرسوم، وهو ما عبّر عنه القرآن بقول الرحمن عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[1]، «بمعنى: إن الله جعل السنن الكونية المتحركة في خط التغيير في ما يمكن أن يتغير في الكون خاضعة لسنّة إنسانية هي سنّة الحركة الداخلية للإنسان التي تعطي الإشارة إلى التغيير الذي يمكن أن يجعل الحركة منطلقة من خلال الفكرة»[2]، أجل، من الفكرة والعقيدة تنطلق حركة الإنسان نحو الوجهة التي تحددها تلك العقيدة، ذلك أن العقائد ما أن تستقر في النفوس حتى تتحول إلى تيار دافع للإنسان نحو تجسيد ما يؤمن به في واقع حياته التي يعيشها بين أفراد مجتمعه، إن حركة الإنسان - صاحب العقيدة - تظلّ محكومة بما تقرّر في محتواه الفكري والروحي من مبادئ وتوجيهات تلك العقيدة التي فرضت سلطانها على الضمير والسلوك معاً، وصاغته صياغة

---

* استاذ في جامعة القرويين، كلية اللغة العربية، مراكش، المغرب .

(١) الرعد: ١١.

(٢) المشروع الحضاري الإسلامي: محمد حسين فضل الله، إعداد محمد عبد الجبار، مؤسسة المعارف للمطبوعات، ط ١- ١٩٩١م-١٤١١هـ.

خاصّة، لهذه الأسباب نالت قضية البناء العقيدي في الرسالة المحمدية الخاتمة اهتماماً خاصاً استقطب مجهود معظم المرحلة المكّيّة من الدعوة الإسلامية في أولى مراحلها، حتى إذا استقرّ ذلك البناء في النفوس، واستوفى نضجه انطلقت منه وعلى أساسه عمليات البناء الأخرى في مختلف مجالات الحياة.

نستخلص من هذا أن حياة الإنسان في ما يصدر عنه من أعمال تحكمها حياته الفكرية والعقائدية، وأن الجانب العقائدي والفكري للإنسان هو الموجه لهذا الكائن البشري نحو اختياراته ومواقفه، وما يترتب عن ذلك من الأعمال والأحداث في حياته الواقعية.

ومن النصوص التاريخية الرائعة التي صورت الارتباط الوثيق بين العقيدة والسلوك لدى أولى الجماعات التكفيرية التي ظهرت في تاريخ الإسلام، وكشفت عن حجم تأثير العقائد على النفوس؛ حتى ارتُكب لأجلها ما تقشعر من هوله الأبدان ما قاله عز الدين عبد الحميد بن أبي الحديد المعتزليّ في شرح نهج البلاغة، وهو يتحدث عن التكفيريين الثلاثة من الخوارج حين عقدوا العزم على قتل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، ومعاوية بن أبي سفيان، وعمرو بن العاص، فقال: «إنما تواعدوا بمكة عبد الرحمن، والبرك ، وعمرو [١]، على هذه الليلة؛ لأنهم يعتقدون أن قتل ولاة الجور قربة إلى الله، وأحرى القربات ما تقرب به في الأوقات الشريفة المباركة، ولما كانت ليلة الجمعة التاسعة عشرة من شهر رمضان ليلة شريفة يرجى أن تكون ليلة القدر عينوها لفعل ما يعتقدونه قربة إلى الله؛ فليعجب المتعجب من العقائد، كيف تسري في القلوب، وتغلب على العقول، حتى يرتكب الناس عظائم الأمور، وأهوال الخطوب لأجلها»! [٢].

والحقيقة: إن مثل هذه الأمور تستفرغ العجب، وتحار في فهمها العقول، ولا سيما أنها

---

(١) عبد الرحمن بن ملجم ، و البرك بن عبد الله التميمي ، وعمرو بن بكر التميمي؛ شرح نهج البلاغة: عز الدين عبد الحميد بن أبي الحديد المعتزلي، ج٦، ص ١١٣، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط٢-١٤١٦-١٩٩٦م ، دار الجيل بيروت.
(٢) المصدر السابق: ص ١١٦.

تصدر عن مجموعة من الناس تحركهم عقيدة ينسبونها إلى الإسلام المحمديّ، ويدّعون أنها هي الحق، وأن ما يصدر عن معتنقيها إنما يعبر عن حقيقتها وأحقيتها؛ فأي عقيدة وأي فكر هذا الذي يتسافل بهذه النفوس والعقول إلى مثل هذه الدركات حتى لا تعقل إلا مفردات تلك العقيدة وذلك الفكر، ولا تسمع إلا صوتهما ونداءهما، ولا تستجيب إلا لمطالبهما وحدهما دون سواهما؟ فتحولت بذلك إلى قطع آدمية قد جمدت في كيانها كل أدوات المعرفة، ووضعت دونها جداراً حديدياً، فهي لا تسمع، ولا تبصر، ولا تعقل شيئاً أمام قوة الاندفاع - بفعل الدافع والمحرك العقيدي - نحو الدواهي العظام ومشاقص الحتوف! لننظر إذاً كيف يفكر التكفيريّون المنتسبون إلى الإسلام، وكيف كانت طبيعة معتقداتهم وأفكارهم، التي شكلت أساس البناء في تكوينهم التكفيري.

١ - التكفير في فكر التكفيريين الأوائل (الخوارج ومعتقدهم):

التكفير سلاح مدمر للنفس والمجتمع، تفوق خطورته كل سلاح مادي بكثير، لأنّ هذا الأخير خارجي المظهر والأثر، مادي الحقيقة ظاهر للعيان، مهما كان نوعه يقاوم بالمجهود المادي فينتهي أو يختفي؛ لكنه في صورته الفكرية والعقيدية يتخذ من المحتوى الداخلي للإنسان - الذي هو فكره وعقله وروحه - موطناً له، فيصبح هو الخزّان المزود، والوقود المحرك لكل أعمال الترويع والقتل وإراقة الدماء، ويتحوّل المحتوى الداخلي للإنسان إلى مركز توجيه عقائدي يسيطر على فكر الإنسان وعقله وروحه، فلا يتلقّى إلا منه، ولا يستجيب إلا لأمره، وهنالك يتحول قتل المسلم، واستباحة عرضه، وماله إلى عبادة يتقرب بها القاتل إلى الله!.

لقد تضافرت النصوص التاريخية من كتب المقالات وغيرها عن المؤسسين الأوائل على هذا النوع من الفكر التكفيري بأنهم كانوا يكفرون مخالفيهم من المسلمين، ويستبيحون دماءهم وأعراضهم، راجين من وراء ذلك التقرب إلى خالقهم ومعبودهم: منها ما سبقت الإشارة إليه من تكفيرهم الإمام علياً عليه السلام واعتبارهم قتلَهُ من صالح الأعمال التي يُتقرّب بها

إلى الله في ليلة هي أفضل ليالي شهر رمضان عند المسلمين! كما أجمعت كتب المقالات على أن هذه المجموعة من التكفيريين الأوائل كانوا «يزعمون أن علياً عليه السلام، وعثمان، وأصحاب الجمل، والحكمين، وكل من رضي بالحكمين كفروا كلهم»[1]، وهذا معناه أن كل من خالفهم في رأيهم الذي اعتقدوا أنه حق صار كافراً، يُستباح منه كل شيء، ولهذا قال لهم أمير المؤمنين علي عليه السلام: «فإن أبيتم إلا أن تزعموا أني أخطأت وضللت، فلم تضلّلون عامة أمة محمد صلى الله عليه وآله بضلالي، وتأخذونهم بخطئي، وتكفرونهم بذنوبي؟ سيوفكم على عواتقكم تضعونها مواضع البرء والسقم، وتخلطون من أذنب بمن لم يذنب»[2]، هكذا هو الفكر التكفيري: التكفير الذي يبيح سفك الدم، ويوجب القتل، وكما أن التكفير يتم بغير علم، ولا حُسن فهم، ولا رجوع في ذلك إلى أهله - وقد كانوا بين ظهرانيهم - كذلك هو القتل عندهم، إنما يتبعون فيه أهواءهم من غير تمييز بين المذنب المستحق وغير المذنب البريء.

وذكر ابن كثير في البداية والنهاية كلاماً يصور فيه بالعبارة الدقيقة كيف كان هذا الفريق من دعاة التكفير يفكرون، وكيف كانوا يكفّرون بناءً على تفكيرهم ومعتقدهم، ثم بعد ذلك كيف كان يقودهم الفكر والمعتقد إلى سفك الدم الحرام؛ فيقول: بينما عليٌّ عليه السلام يستعد للخروج إلى أهل الشام «إذ بلغه أن الخوارج قد عاثوا في الأرض فساداً، وسفكوا الدماء، وقطعوا السبيل، واستحلوا المحارم، وكان من جملة من قتلوه عبد الله بن خباب صاحب رسول الله صلى الله عليه وآله أسروه وامرأته معه وهي حامل، فقالوا: من أنت؟ قال: أنا عبد الله بن خباب صاحب رسول الله؛ وإنكم قد روعتموني، فقالوا: لابأس عليك، حدثنا ما سمعت من أبيك، فقال: سمعت أبي يقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «ستكون فتنة القاعد فيها خير من

---

(١) الفرق بين الفرق: عبد القاهر البغدادي، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ص ٧٣، ٧٤، ط ١٤١١هـ-١٩٩٠م، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بيروت - لبنان، د.ت. الملل والنحل محمد بن عبد الكريم الشهرستاني. تحقيق عبد الأمير علي مهنا .
علي حسن فاعور: ج ١ ص ١٣٣ دار المعرفة بيروت .ط ٣، ١٩٩٣-١٩١٤م مقالات الإسلاميين و اختلاف المصلين :أبو الحسن الأشعري تصحيح هلموت ريتر ص ٨٦.ط الثانية. دار النشر فرانز شتايز بفيسبادن ١٤٠٠-١٩٨٠م.
(٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ج ٨ ص ١١٢ .

القائم، والقائم خير من الماشي، والماشي خير من الساعي؛ فاقتادوه بيده وعندما كان يسير معهم إذ لقي بعضهم خنزيراً لبعض أهل الذمة فضربه بعضهم فشق جلده، فقال له آخر: لم فعلت هذا وهو لِذميّ؟ فَذَهب إلى ذلك الذميّ فاستحله وأرضاه، وبينما هو معهم إذ سقطت تمرة من نخلة فأخذها أحدهم فألقاها في فمه، فقال له آخر بغير إذن ولا ثمن؟ فألقاها ذاك من فمه، ومع هذا قدموا عبد الله بن خباب فذبحوه وجاؤوا إلى امرأته فقالت: إني امرأة حبلى، ألا تتقون الله، فذبحوها وبقروا بطنها عن ولدها.!!»[١]؛ فليتأمل كل متأمل عاقل من بني الإنسان - وليس من المسلمين فحسب - هذا النوع من التفكير، وهذا النوع من العقائد وما انبثق عنهما من سلوك لم يستبق من الوحشية والهمجية باقية!! وكيف يمكن أن ينسب هذا إلى دين جاء به نبي من عند الله؟ بل كيف ينسب إلى دين جاء به محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله؛ إن التأمل في هذا النص الذي يعرض هذه الصورة المؤلمة لسلوك منطلق من عقيدة، ليؤكد أن العقائد لا تغلب العقول فحسب؛ بل تسد أمامها كل منافذ التعقل والإدراك والفهم السليم، وإلا فأي عقل، وبالأحرى أي الدين يجيز أن يُقتل رجل مسلم يعلن إسلامه بدعوى أنه كافر؟ وإذا قبلنا فرض المحال واعتبرناه كذلك، فما بال زوجته تُذبح؟ وما ذنب الجنين الذي لم يرَ النور بعد؟ هل تغذّى من كفر أمه المزعوم وهو بعد في بطنها؟ لعمري إنهم لفي غيّهم يعمهون !! .

إن أخطر ما في هذا النوع من التفكير والاعتقاد الذي ابتليت هذه الأمة بمعتنقيه الذين ما إن يذهب منهم جيل في عصر من العصور، حتى يظهر جيل جديد في عصر آخر، فهم كما قال أول من ابتلي بفتنتهم أمير المؤمنين علي عليه السلام: «نطف في أصلاب الرجال، وقرارات النساء، كلما نجم منهم قرن قطع، حتى يكون آخرهم لصوصاً سلابين»[٢]، إن أخطر ما في اعتقادهم هو ذلك التلازم بين التكفير والقتل، فلا تلقى تهمة الكفر على فرد، أو جماعة، أو طائفة إلا

---

(١) البداية والنهاية: الحافظ ابن كثير، تحقيق، يوسف الشيخ محمد البقاعي: ج ٥.ص ٣٩٠ ط ١١، دار القلم بيروت لبنان.

(٢) شرح نهج البلاغة ، ابن أبي الحديد: ج ٥، ص ١٤.

اقتضى ذلك قتلهم: القتل الذي لا يميز بين كبير وصغير، ومذنب وبريء كما قال ابن كثير معقّباً على كلامه السابق: «لو قوي هؤلاء - يعني الخوارج التكفيريين الأوائل - لأفسدوا الأرض كلها عِراقاً وشاماً، ولم يتركوا طفلاً، ولا طفلة، ولا رجلاً، ولا امرأة؛ لأن الناس عندهم قد فسدوا ولا يصلحهم إلا القتل جمل !»(١)، أجل، لأن القتل عندهم ليس هدفاً وغاية؛ بل هو وسيلة إلى السعادة الأبدية، وقرباناً يتقربون به إلى الله، وياله من قربان عندما يكون القتيل أمير المؤمنين علياً عليه السلام، ويكون القتل في ليلة هي أفضل الليالي عند المسلمين!! وهنا يطرح السؤال عن طبيعة تصورهم لمعبودهم وربهم الذي يعتقدون أنه يقبل منهم مثل هذا القربان كما يزعمون؟ لا يأخذني شك – وإن كانت المصادر التاريخية، وكتب المقالات، لا تقدم جواباً عن هذا السؤال – في أنهم تخيلوه جسماً مادياً محسوساً؛ لأن أروحهم لم يعد لها إلى ما وراء الحس سبيل بصفات المخلوقين، يبارك لهم معتقداتهم، ويقبل منهم فظائع الأعمال، كما يقبل بعضهم من بعض ذلك.

إن المؤمن الذي يعرف الله بأسمائه الحسنى، وصفاته العظمى لا يمكن أن تصدر منه مثل هذه الأعمال، وكيف يؤمن مؤمن بأن ربه غفور ودود، رحمن رحيم، يقبل التوبة عن عباده، ويعفو عن المسيء، ويبدل السيئات حسنات، ثم لا يتحرك في داخل كيانه هذا الإيمان ليمنعه من الإقدام على ذبح أمٍّ مسلمة حبلى وزوجها بدعوى أنهم كفار؟.

نعم، كانت لهم رغبة في الحقّ ظاهرة، شهد لهم بها الإمام عليٌّ عليه السلام حين أخبر عنهم أصحابه بأنهم أرادوا الحق فأخطؤوه (٢)؛ لكنهم سعوا إلى الحق الذي أرادوه من غير طريقه، وأتوه من غير بابه، وهنالك استولى الشيطان على أوليائه، ونجا الذين سبقت لهم من الله الحسنى، وكان لهم كذلك حرص كبير على إظهار مزيد من الصلاة والصيام والتمسك بالدين، يتشددون في ذلك كشدتهم على أهل الإسلام، في ما يسمونه جهاداً يتقربون به إلى الله؛ فهذا عروة ابن أدية أحد التكفيريين الأوائل، وأحد الناجين من النهروان، جيء به إلى زياد بن

---

(١) البداية و النهاية، الحافظ ابن كثير: ج٥، ص ٣٩١.
(٢) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: ج٥،ص ٧٨ .

أبيه- في خلافة معاوية - ومعه مولى له، فأمر به زياد فقتل، «ثم دعا مولاه فقال: صف لي أموره، فقال: أأطنب أم أختصر؟ قال: بل اختصر، قال: ما أتيته بطعام في نهار قط، ولا فرشت له فراشاً في ليل قط!»(١)؛ فلتعجب الإنسانية لحال هؤلاء، يصومون النهار ويقومون الليل، ثم هم بعد ذلك من أحرص الناس على سفك دم المسلمين صغيرهم وكبيرهم، لاعتقادهم أن الأمة قد ضلّت، ولا يردها إلى رشدها إلا القتل، واستباحة المال والعرض الذي يسمونه (جهاداً).

٢ - التكفير في فكر متكلمي المسلمين:

الحقيقة التي لا يمكن لأي باحث منصف أن ينكرها هي أن تكفير المخالف الذي استحدثته هذه الفئة الأولى من التكفيريين الخوارج - قتلة المسلمين - قد تجاوز دائرته المذهبية، وأمسى مصطلح (الكفر) و تكفير الآخر المخالف متداولاً بين المتكلمين من أصحاب المذاهب المختلفة، فلا تكاد تطالع كتاباً من الكتب الكلامية القديمة، أو الكتب التي نقلت مقالات المسلمين المختلفة، إلا وجدت مؤلفه قد استعمل مصطلح الكفر، وأطلقه على المخالفين أكثر من مرة؛ لكنه ظل حبيس الإطار النظري والمجال الفكري؛ بمعنى أنه أُفرغ من محتواه العنيف الذي حمله عند التكفيريين الخوارج، ولم يعد مقروناً بالقتل واستباحة الدم الحرام:

في المذهب السني منذ أن بدأ التأليف في علم الكلام – الذي اشتغل بالأساس على المباحث العقائدية – كان إطلاق عبارات التكفير وتوجيهها إلى المخالف أسلوباً متبعاً في التأليف، فهذا أحمد ابن حنبل يطلق هذا المصطلح - الكفر- حتى على المخالف في بعض فروع العقيدة مما له تعلق ببعض القضايا العقلية الدقيقة فيقول واصفاً حجج القائلين بخلق القرآن بحجة أن الكلام لا يكون إلا بجارحة، والجوارح منفية عن الخالق سبحانه، - وأصحاب هذا الرأي كانوا يومئذٍ يمثلون فئة عريضة من المسلمين - يقول عنهم ابن

---

(١)شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: ج٥ ، ص ٨٠.

حنبل: «فإذا سمع الجاهل قولهم يظن أنهم من أشد الناس تعظيما لله، ولا يعلم أنهم إنما يعود قولهم إلى ضلالة وكفر»[1]، وسلك البخاري- صاحب الصحيح - في كتابه خلق أفعال العباد نفس المسلك، فتراه يقوم بجمع عبارات كثير من الشيوخ التي تصب في اتجاه تكفير الآخر دون أن يعقّب عليها بما يدل على عدم موافقته عليها وذلك من قبيل : «يكفرون من وجه كذا، ويكفرون من وجه كذا، حتى أكفرهم من كذا وكذا وجها »[2]، ثم أضاف: «لا يُصلّى خلفهم، ولا يناكحون وعليهم التوبة»[3]، ونظير هذا في نفس الكتاب كثير أردت فقط الإشارة إليه دون حصره، كما هو الشأن في ما يخص كل الكتب التي ذكرت أو التي سيأتي ذكرها أكتفي بذكر مثال أو مثالين للدلالة على التحقق والوقوع دون قصد الحصر لأن المطلوب يتحقق بالأول فقط .

فإذا تجاوزنا تاريخياً هذه المرحلة بقليل، وتصفّحنا كتاب التوحيد لمحمد بن إسحاق بن خزيمة نجد فيه مكتوباً بالخط العريض: «بابٌ من الأدلة التي تدل على أن القرآن كلام الله الخالق، وقوله غير مخلوق لا كما زعمت الكفرة من الجهمية المعطلة»[4]، ولم يكن هذا الأسلوب المتمثل في اتهام المخالف بالكفر خاصاً بهؤلاء وأمثالهم ممن عرفوا بمنهج خاص يتلخص في الميل الشديد إلى الأخذ بظواهر النصوص؛ بل كان شبهاً عاماً عند باقي المتكلمين؛ بل حتى عند الذين حملوا لواء المعارف العقلية، وحرية التفكير كالمعتزلة، فقد تضمّنت مؤلفاتهم عبارات التكفير في حق مخالفيهم إما بوصفه رد فعل، وإما لأن الفكر الإسلامي ألف هذه الطريقة في التعبير، فصارت له عادة متبعة لامناص لكل صاحب رأي أو منتسب إلى مذهب أراد أن يدافع عن مذهبه من اتخاذها مسلكاً له؛ يروي صاحب كتاب الانتصار عن

---

(١) الرد على الجهمية و الزنادقة، أحمد بن حنبل تحقيق : عبد الرحمن عميرة ١٠٦٠ دار اللواء المملكة العربية السعودية ط .الثانية ١٤٠٢-١٩٨٢م.

(٢) خلق أفعال العباد و الرد على الجهمية و أصحاب التعطيل: محمد بن إسماعيل البخاري: ص ١٧، مؤسسة الرسالة، بيروت لبنان، ط ١، ١٤٠٤-١٩٨٩م.

(٣)المصدر السابق.

(٤) كتاب التوحيد :محمد بن إسحق بن خزيمة: ص ١٦٦، راجعه وعلق عليه: محمد خليل هراس. دار الجيل بيروت لبنان ط ١٤٠٨-١٩٨٨ (د.ط).

أحد شيوخه أنه «كان يزعم أن من قال: إن الله يرى بالأبصار، على أي وجه قاله فمشبه لله بخلقه، والمشبه عنده كافر بالله »(١)، كما ينسب إلى المعتزلة وهو واحد من شيوخهم: «أن القول بالجسم والبداء وحدوث العلم ضلال وكفر!»(٢)، والقاضي عبد الجبار المعتزلي في كتابه شرح الأصول الخمسة نحا نفس المنحى وهو يطلق لفظ الكفر، ويكرره مراراً في حق من خالف المعتزلة في شيء من أصولهم الخمسة(٣).

وإذا كان موقف المعتزلة هذا يثير كثيراً من الاستغراب، فإن ما صدر عن الأشاعرة الذين يصرحون في كتبهم بأنهم لايكفّرون أحداً من أهل القبلة يستفرغ العجب والاستغراب؛ فهذا شيخ المذهب: أبو الحسن الأشعري في كتاب الإبانة يعتبر المعتزلة مجوس هذه الأمة(٤)، مع العلم أنه قضى في هذا المذهب فترة ليست باليسيرة؛ كما اعتبر الأشعري القائلين بخلق القرآن كفاراً وكرر ذلك أكثر من مرة في نفس الكتاب(٥)، وعلى هذا المنوال سار من جاء بعده من الأشاعرة؛ فعبد القاهر البغدادي - وهو أشعري - يكفّر حتى المخالف في بعض الأصول العقلية، فيقول: «وبعد هذا، فرق من المشبهة عدهم المتكلمون في فرق الملة لإقرارهم بلزوم أحكام القرآن، وإقرارهم بوجوب أركان شريعة الإسلام من الصلاة، والزكاة، والصيام، والحج عليهم، وإقرارهم بتحريم المحرمات عليهم، وإن ضلّوا وكفروا في بعض الأصول العقلية» (٦)، وقريب من معنى هذا الكلام ما ذكره أبو المعالي عبد الملك الجوينيّ الأشعريّ المذهب موجهاً كلامه إلى الكراميّة - أتباع محمد بن كرام السجستاني - فقال: «إن سميتم الباري تعالى جسماً، وأثبتم له حقائق الأجسام، فقد تعرضتم لأمرين: إما نقض دلالة حدث

---

(١) الانتصار و الرد على ابن الراوندي الملحد: عبد الرحيم ابن محمد الخياط، ط ٦٨، تحقيق الدكتور نيبرج، دار قابس، بيروت (د.ط)، (د.ت).

(٢) نفس المصدر: ص ١٠٦.

(٣) شرح الأصول الخمسة، قاضي القضاة عبد الجبار بن أحمد: ص ١٢٥؛ حققه وقدم له: الدكتور عبد الكريم عثمان ط٢، ١٤٠٨-١٩٨٨ أم القرى للطباعة و النشر.

(٤) الإبانة عن أصول الديانة: أبو الحسن الأشعري ص ١٦ تحقيق فوقية حسين ، ط ١، ١٣٩٧هـ-١٩٧٧م، توزيع دار الأنصار.

(٥) المصدر السابق: ص ٨٩.

(٦) الفرق بين الفرق، عبد القاهر البغدادي: ص ٢٢٧ .

الجواهر، فإن مبناها على قبولها للتأليف والمماسة والمباينة، وإما أن تطردوها وتقضوا بقيام دلالة الحدث في وجود الصانع، وكلاهما خروج عن الدين، وانسلال عن ربقة المسلمين»[١]، هكذا حتى الأمور العقلية الدقيقة التي كانت ولفترة طويلة مدار نزاع عقلي دقيق بين المتكلمين المسلمين، يكفّر بسببها المخالف، ويعتبره بعضهم خارجاً عن الإسلام مع العلم أن هذه المصطلحات إنما قام على أساسها دليل حدوث العالم، وإثبات الصانع جلّ وعلا في ذلك الوقت عند المتكلمين.

ولم يخل المذهب الإمامية الاثني عشري من أن يكون له نصيبه مما هو موجود عند غيره من المذاهب؛ فهذا الشيخ المفيد في كتابه أوائل المقالات يصرح «بأن أصحاب البدع كلهم كفار»[٢]، وأضاف الشيخ إلى ذلك «أن من أنكر إمامة أحد الأئمة وجحد ما أوجبه الله تعالى من فرض الطاعة فهو كافر ضال»[٣]، مع العلم أن جمهور علماء الإمامية يعتقدون أن الإمامة أصل من أصول المذهب، وليست أصلاً من أصول الدين، فمن «أنكر إمامة الأئمة الاثني عشر لا يخرج بذلك عن الإسلام؛ لأن إمامتهم ليست من ضروريات الدين؛ بل من ضروريات المذهب»[٤]، من خلال ما سبق يتضح أن الفكر التكفيري ينقسم على :

فكر تكفيري نظري ظلت مفرداته حبيسة المجال الفكري، واستعمل فيه التكفير في أغلب الأحيان تشنيعاً على المخالف دون أن يراد به إخراجه من الملة أو سحب صفة الإسلام عنه، واستباحة دمه، وهو الذي شاع بين المتكلمين من مختلف المذاهب.

و فكر تكفيري دموي كان الغرض من إطلاقه التحريض على القتل، وسفك دماء المسلمين، واستباحة أعراضهم وأموالهم، وهو الذي تبناه الخوارج، وحملوا السلاح لأجله،

---

(١) الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد : عبد الملك الجويني: ص ٦١، تحقيق أسعد تميم، مؤسسة الكتب الثقافية، ط ١، ١٤٠٥-١٩٨٥

(٢) أوائل المقالات : محمد بن محمد بن النعمان المفيد: ص ٤٩.ط٢ ١٤١٤ -١٩٩٣م، دار المفيد للطباعة و النشر و التوزيع.

(٣) المصدر السابق: ص ٤٤.

(٤) الشيعة في مسارهم التاريخي: محسن أمين العاملي، مركز الغدير للدراسات والنشر، ط١ ١٤٢١.

ورَوّعوا به المسلمين، وقتلوا منهم ما أمكنهم قتله، وبعدهم سيولد لكل فريق أتباع .

وليس المقصود من هذا التقسيم تبرير ما دار بين المتكلمين من عبارات تكفيرية، ولا استحسان ذلك في مخاطبة المخالفين؛ فإن ذلك كان أسلوباً خاطئاً، ومسلكاً مذموماً في مناظرة الخصوم - وإن لم يكن المقصود نفي صفة الإسلام ولا استباحة الدم - كان يجب تفاديه، وإبعاد مفرداته عن طرق الخطاب المتداول بين رجال الفكر والنظر، حتى لا تلجأ إليه الأجيال التي تأتي بعد فترة طويلة من الزمان، فتحول أقوال سلفها في ما مضى من التاريخ إلى مسلمات دينية مقدسة، تحاكم الناس على أساسها، وتعتمد عليها في تكفيرهم، وإباحة قتلهم؛ لاعتقادها الخاطئ أن تلك الأقوال هي الدين الحقيقي بعينه، وما عداها ليس إلا انحرافاً عن الدين لا قيمة له ولا اعتبار، فحولوا التاريخ الفكري إلى دين، كما وقع لأتباع أحمد بن عبد الحليم بن تيمية ومقلديه من المعاصرين.

٣ - التكفير في فكر ابن تيمية ومعتقداته وأتباعه القدماء والمعاصرين: التكفير في فكر ابن تيمية وأتباعه لا يمكن تصنيفه ضمن التكفير الذي تبناه الخوارج، ولا هو من صنف التكفير الذي تداولته عبارات المتكلمين، وذلك لسببين رئيسيين:

أولهما: إن الفكر التكفيري عند ابن تيمية يرتبط بمنظومة فكرية وعقائدية متكاملة، تكاد تشكل مذهباً عقائدياً مستقلاً بذاته، وهو ما يعبر عنه مؤسِّس هذا الاتجاه بعبارة: «أهل السنّة المحضة أوالخاصة»[1]، تميزاً له عن مذهب أهل السنة والجماعة الذي أطلق على مذهب أبي الحسن الأشعري، فحدد بذلك إطاراً خاصاً لمذهبه العقدي كما ميزه بمسائل عقائدية جعلها هي الحق وما خالفها اعتبره باطلاً، وجهلاً، وضلالاً، بل صرح باعتباره كفراً أكثر من مرة كما سيأتي بيانه، وأهم المسائل العقائدية التي خالف فيها ابن تيمية مذاهب المسلمين الاعتقاديّة التي تمثل في حقيقتها جوهر مذهبه العقدي برمته تتمحور حول: إثبات معاني الجسميّة في حق الخالق سبحانه لاعتقاده بأن «الموجود القائم بنفسه لا يكون إلا جسماً، وما لا يكون

(١) منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة و القدرية: أحمد ابن تيمية: ج.٢، ص٢٢١-٢٢٥-٢٢٩.

جسماً لا يكون إلا معدوماً»[1]، ويرى أن هذا أقرب إلى الفطرة والعقل من غيره، وكما أن العقل لا يمنع من القول بأن الله جسم - عنده - فكذلك « الكتاب والسنة والإجماع، لم تنطق بأن الأجسام كلها محدثة، وأن الله ليس بجسم ولا قال ذلك إمام من أئمة المسلمين!!»[2]، ثم يذهب إلى أبعد من ذلك فيعتبر أن نفي معاني الجسمية ضلال وجهل؛ فيقول: «وليس في كتاب الله، ولا سنة رسول الله، ولا قول أحد من سلف الأمة وأئمتها أنه ليس بجسم، وأن صفاته ليست أجساماً وأعراضاً، فنفي المعاني الثابتة بالشرع والعقل بنفي ألفاظ لم ينفِ معناها شرع، ولا عقل جهل وضلال!!»[3]، ولما كان إثبات التجسيم يقتضي إثبات كل ما هو من مقتضيات الجسم ولوازمه فقد أثبت كل ذلك ودافع عنه بكل الوسائل؛ أثبت الحد، والحيز والمكان، والجهة، ثم أثبت الصورة - صورة الإنسان - والجوارح، والأعضاء وما يترتب عن ذلك من الحركة، والانتقال والاستقرار[4].

ومن نفى عن الخالق سبحانه شيئاً من ذلك اعتبره من الجهمية الجهلة المعطلين، حتى فضل بعض العلماء العارفين بالله - المغاربة - الوصف بالجهل على أن يوصف بعلم يصف الله سبحانه بمثل ما وصفه به ابن تيمية وأتباعه؛ فقال: «وجدت ابن القيم يقول في كتابه (زاد المعاد): وكان شيخنا أبو العباس ابن تيمية، يذكر في سبب الذؤابة - العذبة - شيئاً بديعاً، وهو أن النبي ﷺ إنما اتخذها صبيحة المنام الذي رآه في المدينة، لما رأى ربّ العزة تبارك وتعالى فقال: «يا محمد فيمَ اختصم الملأ الأعلى؟ قلت: لا أدري يا ربّ، فوضع يده بين كتفي،

---

(١) بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية: أحمد ابن تيمية: ج١، ص٣٥٩، تحقيق يحي بن محمد الهنيدي، طبعة وزارة الشؤون الإسلامية و الأوقاف والدعوة و الإرشاد، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف ١٤٢٦هـ.

(٢) المصدر السابق: ج١، ص:٤٠١.

(٣) بيان تلبيس الجهمية :ج١/ ص٣٧٣.

(٤) قال في بيان تلبيس الجهمية: (و الدلالة عليه أن العرش في جهة بلا خلاف، وقد ثبت بنص القرآن أنه مستو على العرش فاقتضى أنه في جهة)، ج٣، ص ١٩ وقال في نفس الكتاب (نفيتم عن الله أشياء لم ينطق بها كتاب، ولا سنة، ولا إمام من أئمة المسلمين، وخالفتم العقول الصريحة، وقلتم ليس هو بجسم، ولا جوهر، ولا متحيز، ولا في جهة، ولا يشار إليه بحس)، ج٣، ص٤٤ -٤٥، وأثبت الصورة فقال: (علم بالاضطرار أن الذي يأتيهم في هذه الصورة هو رب العالمين لا ملك من الملائكة).بيان تلبيس الجهمية ج٧ ص٧٦.

فعلمت ما بين السماء والأرض» الحديث، وهو في الترمذي، وسئل عنه البخاري فقال صحيح، قال: «فمن تلك الليلة أرخى الذؤابة بين كتفيه !! وهذا من العلم الذي تنكره ألسنة الجهال وقلوبهم، ولم أرَ هذه الفائدة في إثبات الذؤابة لغيره. ا هـ . قلت إن كان نفي صفات المخلوقات عن الخالق سبحانه وتعالى جهلاً، فالجهل خير من علم يصف الله باليد، وبمماسَّتها كتف نبيه حتى اتخذ الذؤابة ستراً لذلك المحل الذي مسته يد الله»!![1]، فليعجب العاقل ماذا تفعل العقائد بأصحابها؛ فيقبلون مثل هذه الأفكار ويصدقونها، ثم لا يهدأ لهم بال حتى يعدوا من لا يصدقها من الجاهلين.

و قد سلك أتباع ابن تيمية المعاصرين مسلك شيخهم نفسه، وقلدوه في كل صغير وكبير، فتجدهم يرددون عباراته ومصطلحاته نفسها، يروّجون بها عقائده، ويضلّلون ويكفرون من خالفها: فهذا الشيخ عبد الرحمن بن ناصر البراك في شرح العقيدة الطحاوية يرد على كلام الإمام الطحاويّ الذي ينزه الله فيه عن الأعضاء فيقول: «عفا الله عن المؤلف، وغفر الله لنا وله، ماذا يريد بالأركان والأعضاء؟»[2] فإذا كان المراد نفي «الوجه والعينين واليد ،فهذا باطل»[3]، وهذا الشيخ محمد بن صالح العثيمين في شرح العقيدة الواسطية لابن تيمية يثبت التجسيم بصريح العبارة فيقول: «إن كان يلزم من رؤية الله تعالى أن يكون جسماً فليكن كذلك!»[4]، ولم يكتفوا بتصديق معتقدات ابن تيمية؛ بل جعلوه مقياساً للحق والباطل كما قال مؤلف السبائك الذهبية بشرح العقيدة الواسطية: «لا نزال نميز بين أهل التوحيد والسنة بمحبة ابن تيمية، فمن كان يبغضه عرفنا أنه ليس من أهل التوحيد ولا من أهل السنة، ومن

---

(١) بدع التفاسير :عبد الله محمد صديق العماري، ص ١١، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، المغرب، ط ٢، ١٤٠٦هـ.

(٢) شرح العقيدة الطحاوية، عبد الرحمن بن ناصر البراك، ص ١٤٣، إعداد عبد الرحمن بن صالح السديس، دار التدمرية الرياض، المملكة السعودية، طبعة ١٩٢٤ م.

(٣)المصدر السابق.

(٤) شرح العقيدة الواسطية لابن تيمية، محمد الصالح العثيمين، خرج أحاديثه سعد بن فواز الصميل: م ١ ص ٤٥٨. دار ابن الجوزي، طبعة ٦، ١٤٢١هـ.

كان يحبه عرفنا أنه من أهل التوحيد والسنة»!!(١)، ومن خالف فكر ابن تيمية وعقيدته فهو ضالٌّ مضلّ كما ورد في فتاوى اللجنة الدائمة للبحوث والإفتاء «إن الشيخ أحمد بن عبد الحليم بن تيمية إمام من أئمة أهل السنة والجماعة، يدعو إلى الحق، وإلى الطريق المستقيم، قد نصر الله به السنة، وقمع به أهل البدعة والزيغ، ومن حكم عليه بغير ذلك فهو المبتدع الضال المضل!!»(٢)، وهكذا أصبح كل مخالف عندهم مبتدعاً ضالاً، وكل مبغض لإمامهم الذي أمسى مقدس الذات والكلمات، بعيداً عن التوحيد، مجافياً للسنة؛ ويا له من توحيد هذا الذي خفي على الأمة بعلمها وعلمائها، حتى انبعث من يظهر لها حقائقه في القرن الثامن الهجري! ومن كان ذاك توحيده وتلك خصاله، كيف لا ينسب المذاهب الأخرى المخالفة له إلى الباطل والضلال؟ وهذا ما فعلوه مع أقرب المذاهب إليهم فجعلوا «الأشاعرة والماتريدية من الفئات التي عليها الوعيد، لمخالفتهم أهل السنة في منهج التلقي وفي تقديم النصوص على العقل، لأنهم يقدمون العقل على النصوص، وكذلك في الصفات، وفي الإيمان، وفي القدر، وفي مسائل أخر خالفوا السنّة، فليسوا من أهل السنة والجماعة أتباع السلف الصالح؛ بل هم من المبتدعة الضلال!!»(٣)، هكذا أهل السنة والجماعة أتباع السلف الصالح، وكأن أهل السنة والجماعة صنفان: أهل السنة والجماعة أتباع السلف الصالح أي أتباع ابن تيمية ومن والاه، وأهل السنة والجماعة المخالفون لابن تيمية - أي الضُّلال- وهم أتباع أبي الحسن الأشعري الذين هم في الواقع غالبية أهل السنة من المسلمين، فكيف جاز وصفهم بهذه الأوصاف؟ ولم يقف أصحاب هذا النوع من الفكر التكفيري عند هذا الحد، ولم يكفهم أن جعلوا مخالفيهم من أهل البدع والضلال؛ بل قرروا أن مذهبهم مأخوذ من «تلامذة اليهود والمشركين،

---

(١) السبائك الذهبية بشرح العقيدة الواسطية، عبد الله بن محمد الغنيمان، ص ٣٩، ط١، ١٤٣٠هـ، الناشر دار ابن الجوزي.

(٢) فتاوى اللجنة الدائمة للبحوث العلمية و الإفتاء، ج٢، ص١٧٣، تحقيق أحمد بن عبد الرزاق الدويش، الناشر دار المؤيد للنشر و التوزيع، الرياض، ط ١٤٢٤،١ هـ.

(٣) اللآلئ البهية في شرح العقيدة الواسطية: صالح بن عبد العزيز بن محمد بن إبراهيم آل الشيخ: ج٢،ص٦٦٤، تحقيق عادل بن محمد مرسي رفاعي، دار العاصمة للنشر و التوزيع، المملكة السعودية، طبعة ١٤٣١،١هـ.

وضلال الصابئين، وأول من حفظ عنه مقالة التعطيل في الإسلام هو الجعد بن درهم في أوائل المئة الثانية، أخذ هذا المذهب الخبيث عن الجهم بن صفوان وأظهره، وإليه تنسب الجهمية، ثم انتقل هذا المذهب إلى المعتزلة الأشاعرة، وهذه أسانيد مذهبهم ترجع إلى اليهود والصابئين والمشركين والفلاسفة!»[1]، هكذا تكرار واضح لكلام ابن تيمية، بل نفس ألفاظه يعيدها هذا الشيخ دون تحقيق، مع العلم أن أبسط نظرة في تاريخ علم الكلام عند المسلمين تبين أن الجعد بن درهم لم يكن أول من تكلم بما يصفه هؤلاء بمقالات التعطيل؛ لكن هذا المبحث متعلق بموضوع آخر غير هذا الموضوع، المهم أن يعرف الباحث كيف صارت مذاهب المسلمين المخالفين لهم مأخوذة من اليهود والمشركين، ولو كانوا في ذلك متبعين لابن تيمية لوصفوا بأهل السنة والتوحيد.

وبعد ... أليست هذه قذائف فكرية تكفيرية تسبق قذائف الحديد والنار؟ وماذا ينتظر ممن يعتقد أن الآخر ضال، أخذ مذهبه عن اليهود والمشركين، غير التكفير واستباحة الدم؟ وإذا كان هذا موقف هذه الفئة من مخالفيهم المنتسبين إلى مذهبهم فكيف سيكون موقفهم ممن يختلف معهم ممن لا ينتسب إلى مذهبهم؟.

الحقيقة: إنه ما نال مذهب من الإهانة، والتحقير، والسبِّ، والتضليل، والتكفير،من هذه الفئة ، مثل ما ناله المذهب الإمامي الاثنا عشري: اعتبروهم منبعاً لكل شر وانحراف، ضلّلوهم، وعدوهم أسوأ من اليهود والنصارى، كفروهم، وأباحوا قتلهم، يقول ابن تيمية موجهاً كلامه إلى علّامة المذهب الإمامي: الحسن بن يوسف، المعروف بابن المطهر الحلي يقول في رده (العلمي !) على هذا الرجل: «وهذا المصنف سمى كتابه منهاج الكرامة في معرفة الإمامة، وهو خليق بأن يسمى منهاج الندامة، كما أن من ادعى الطهارة وهو من الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم؛ بل من أهل الجبت والطاغوت والنفاق، كان وصفه بالنجاسة والتكدير،

---

(١) الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد و الرد على أهل الشرك و الإلحاد؛ صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان: ج١، ص١٣٥، طبع و نشر الرئاسة العامة لإدارة البحوث العلمية، الرياض المملكة السعودية ط ٢ ،١٤١٢هـ.

أولى من وصفه بالتطهير»[١]، أليست هذه أفضل مقدمة لحوار علمي مذهبي بين عالمين مسلمين ؟ ألا يستحق هذا الأسلوب الحواري أن يكون نموذجاً لكل حوار إنساني ؟ أليس من حق هذه الأمة أن تقدمه بوصفه أرقى نموذج حواري سنّه عالم (أهل السنة المحضة وأتباع السلف الصالح؟)!!

وبعد فإذا كان علامة المذهب الإمامي بهذه الصفات: من أهل الجبت والطاغوت والنفاق، موصوفاً بالنجاسة والتكدير، فكيف هو حال عامة أهل هذا المذهب عند ابن تيمية؟ وماذا سيقول الذين يقلدونه بلا أدنى تعقل أوتد بر أو تفكير،عن مذهب يصفه إمامهم بهذه العبارات التي تمجها الأسماع، وتنفر منها الطباع؟ هل سيفكرون بغير حمل السلاح، وقطع الأطراف، وفصل الرؤوس عن الأجساد؟ وكيف لا يفعلون وشيخهم يقول: «ولهذا كان بينهم وبين اليهود من المشابهة في الخبث، واتباع الهوى، وغير ذلك من أخلاق اليهود، وبينهم وبين النصارى من المشابهة في الغلو وغير ذلك من أخلاق النصارى، ما أشبهوا به هؤلاء من وجه وهؤلاء من وجه!»[٢]، ويقول أيضاً: «وأما تكفيرهم وتخليدهم ففيه أيضاً للعلماء قولان مشهوران وهما روايتان عن أحمد، والقولان في الخوارج والمارقين من الحرورية والرافضة ونحوهم، والصحيح أن هذه الأقوال التي يقولونها التي يعلم أنها مخالفة لما جاء به الرسول كفر»[٣]، ويقول كذلك: «فأما قتل الواحد منهم المقدور عليه من الخوارج كالحرورية والرافضة ونحوهم، فهذا فيه قولان للفقهاء وهما روايتان عن أحمد، والصحيح أنه يجوز قتل الواحد منهم كالداعية إلى مذهبه، ونحو ذلك ممن فيه فساد»[٤]، إن ابن تيمية يميز بين الفرق الغالية المنتسبة إلى الشيعة وبين الإمامية الاثني عشرية، يعرف ذلك من يطالع كتبه، ولكنه يطلق مصطلح الرافضة على الجميع، ويلجأ إلى التعتيم والتعميم ليعمم أحكام الغلاة على

---

(١) منهاج السنة النبوية لابن تيمية: ج١ ،ص ٢١.
(٢) المصدر السابق: ج ١ ،ص٢٢.
(٣) مجموع فتاوى ابن تيمية. جمع وترتيب عبد الرحمن بن محمد بن قاسم وساعده ابنه، ج٢٨، ص٥٠٠، طبعت في مجمع الملك فهد بالمدينة المنورة عام ١٤٢٥ هـ.
(٤) المصدر السابق: ج٢٨ ص٤٩٩.

الجميع .

هذا ما يتميز به الفكر التكفيري عند هذه الطائفة من المسلمين (أهل السنة المحضة)، كما يزعمون: التعصب الشديد لعقائد المذهب باعتبارها حقاً مطلقاً، ثم تضليل المخالف من أي مذهب أو طائفة كان، ثم يعدون ما يرون أنه ضلال وكفر، ثم يرتبون على الكفر ما يريدون من أحكام .

أما السبب الآخر الذي يميز الفكر التكفيري لهؤلاء عن سابقه عند الخوارج ، فيتمثل في كون الفكر التكفيري عند الخوارج يرتكز بالأساس على قاعدة تكفير الحكام والولاة - ولاة الجور كما صورتهم عقيدتهم الفاسدة التي أدخلت ضمن هؤلاء، أمير المؤمنين علياً عليه السلام وأوجبت عليهم قتله، فنفذ ذلك أشقاهم ابن ملجم المرادي - وهذه القاعدة لا مكان لها في فكر ابن تيمية العقيدي لأنه يعتقد أنه لا يجوز «الخروج على الأئمة وقتالهم بالسيف وإن كان فيهم ظلم، كما دلت على ذلك الأحاديث الصحيحة المستفيضة عن النبي صلى الله عليه وآله؛ لأن الفساد في القتال والفتنة أعظم من الفساد الحاصل بظلمهم بدون قتال ولا فتنة»[1]، وهذا هو ما يعتقده أتباعه من المعاصرين إذ يوجبون طاعة الأمراء «وإن كانوا فساقاً، وإن كانوا يشربون الخمر في الحج، لا يقولون هذا إمام فاجر لا تقبل إمامته!»[2].

بهذا كان فكرهم التكفيري ذا طبيعة خاصة، فهم ينطلقون في ذلك من منطلق مذهبي عقائدي محتواه أن مذهبهم العقائدي هو محض الحق، ومن هنا جاء تمسكهم باسم مميز لهم (أهل السنة المحضة)، وأن ما خالفه لا يمكن أن يكون حقاً؛ بل لا يكون إلا باطلاً وضلالاً، ثم يبنون أفكارهم التكفيرية على هذا الأساس، أي التكفير العقيدي المذهبي.

ويوجد في الفكر التكفيري المعاصر، نوع جديد من التكفير ظهر في ما كتبه سيد قطب في النصف الأخير من القرن الميلادي الماضي، فقد كان يعتقد جازماً أن المجتمعات الإسلامية

(١) منهاج السنة النبوية، ابن تيمية: ج٣ ص٣٩١.
(٢) شرح العقيدة الواسطية، محمد الصالح العثيمين: ج٢ ، ص٣٣٧.

تحولت إلى مجتمعات جاهلية، يبين ذلك بقوله: «وأخيراً يدخل في إطار المجتمع الجاهلي تلك المجتمعات التي تزعم لنفسها أنها مسلمة، وهذه المجتمعات لا تدخل في هذا الإطار لأنها تعتقد بألوهية أحد غير الله، ولا لأنها تقدم الشعائر التعبدية لغير الله أيضاً، ولكنها تدخل في هذا الإطار لأنها لا تدين بالعبودية لله وحده في نظام حياتها»[1]، ثم يوضح ذلك بقوله: « فإن موقف الإسلام من هذه المجتمعات الجاهلية كلها يتحدد في عبارة واحدة: إنه يرفض الاعتراف بإسلامية هذه المجتمعات كلها وشرعيتها في اعتباره»[2]، وإذا كان هذا هو الحكم فما هو الموقف الذي ينبغي أن يتخذه المسلم تجاه هذه المجتمعات؟ يقترح سيد قطب المواجهة بلا تردد: تواجهه «بالدعوة والبيان لتصحيح المعتقدات والتصورات، وتواجهه بالقوة والجهاد لإزالة الأنظمة والسلطات القائمة عليها»[3]، ففهمت الأجيال التي جاءت إلى الحياة بعد هذا التاريخ، ووجدت أمامها كل هذا التراكم الفكري الذي يعجّ بمفردات التكفير، ويحث على المواجهة وإعلان النفير، كما وجدت واقعاً استخفه الاستبداد، وحول حياته إلى جحيم، فهِمت أن هذا الواقع المنهار كافر كما صورته المعتقدات، فخرجت عنه مجموعات تعلن كفره ومواجهته، ويا ليتها قررت المواجهة مع غير المسلمين الذين يغتصبون الأرض، ويهينون المقدس، ويمرّغون أنوف المسلمين في أوحال الذل والعار، لكن الفكر التكفيري المعاصر قرر أن تكون المواجهة مع المسلمين الذين حولهم المعتقد إلى كفار، وترك المعاندين المحتلين...، وبعد ليس لي إلا أن أقول مع ابن أبي الحديد قولته السابقة: «فليعجب المتعجب من العقائد، كيف تسري في القلوب وتغلب، على العقول، حتى يرتكب الناس عظائم الأمور، وأهوال الخطوب لأجلها»[4].

أخيراً نستنتج أن هذا المسار الفكري التكفيري الممتد عبر تاريخ هذه الأمة، بما يختزنه من

---

(١) معالم في الطريق، سيد قطب، ص١٠١، الطبعة ١٠ ،١٤٠٣ هـ دار الشروق.

(٢) المصدر السابق: ص ١٠٣.

(٣) المصدر السابق: ص٦٤.

(٤) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: ج٦، ص١١٦.

مفردات وأحكام ومقالات، سيظل يشكل خزاناً لوقود الفتنة، والاقتتال، والفوضى، والاضطراب، في حياة المسلمين، وسيظل كيان هذه الأمة المثقل بالجراح والآلام، عرضة لمزيد من نزف الدماء، مشلولاً أمام النهوض والنماء ما لم تتحرك الجهود الخيرة؛ إن هذا الركام الفكري الضخم والمعقد في حاجة إلى مجهود علمي أضخم يراجع صفحاته، ويفتح حولها حواراً علمياً- بحجم هذا العمل ومستواه - داخل كل مذهب، ثم بين هذا المذهب وذاك، قصد إخراج مشروع فكري بديل يحمل طابع قيم الإيمان التي جاءت بها الرسالة المحمدية الخاتمة .